التحبير لقواعد التفسير

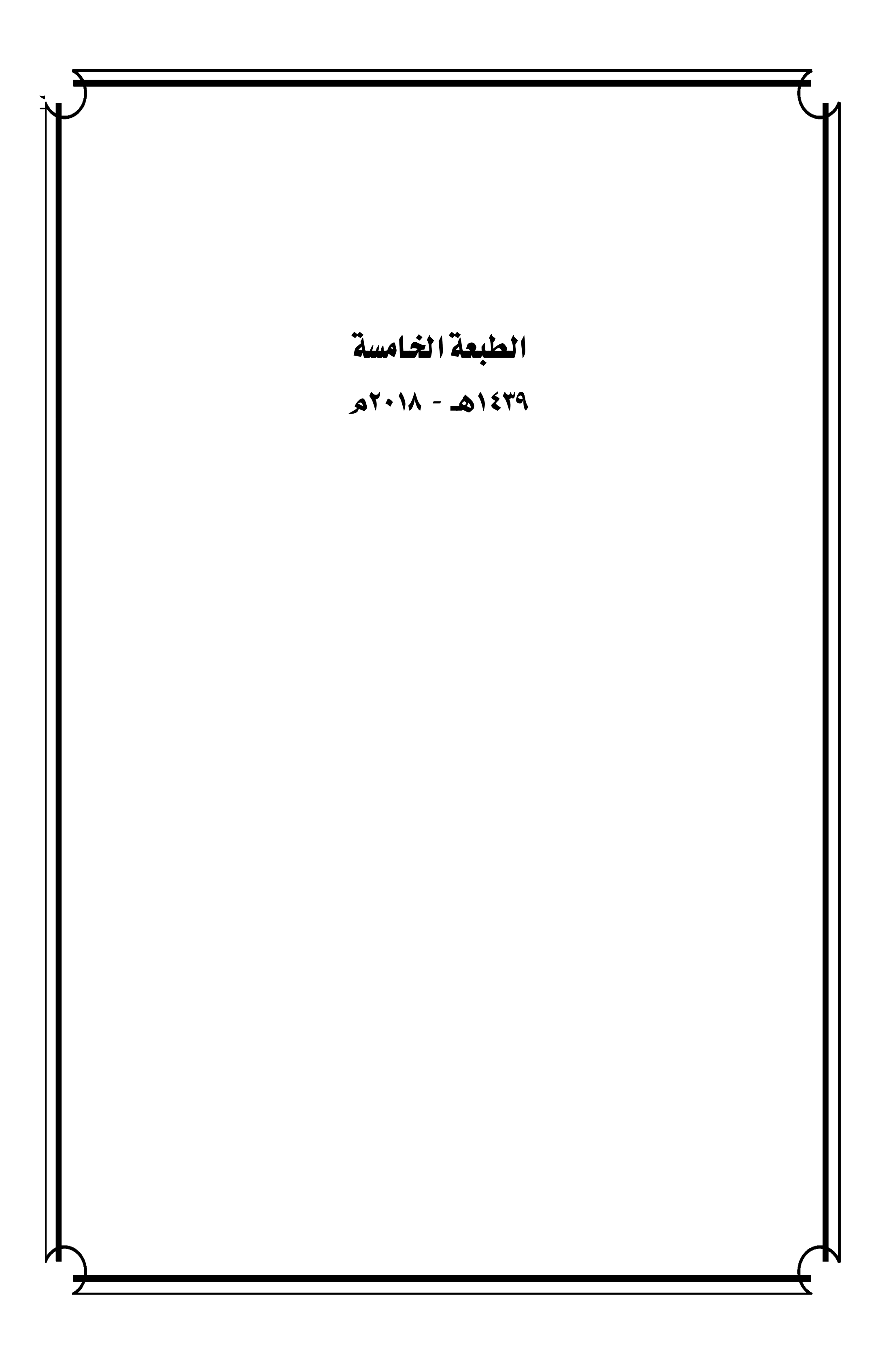
تأليف
حمد بن ابراهيم العثمان
المدرس بقسم التفسير والحديث بكلية الشريعة بجامعة الكويت

دار الفرقان

التحبير لقواعد التفسير



التحبير
لقواعد التفسير



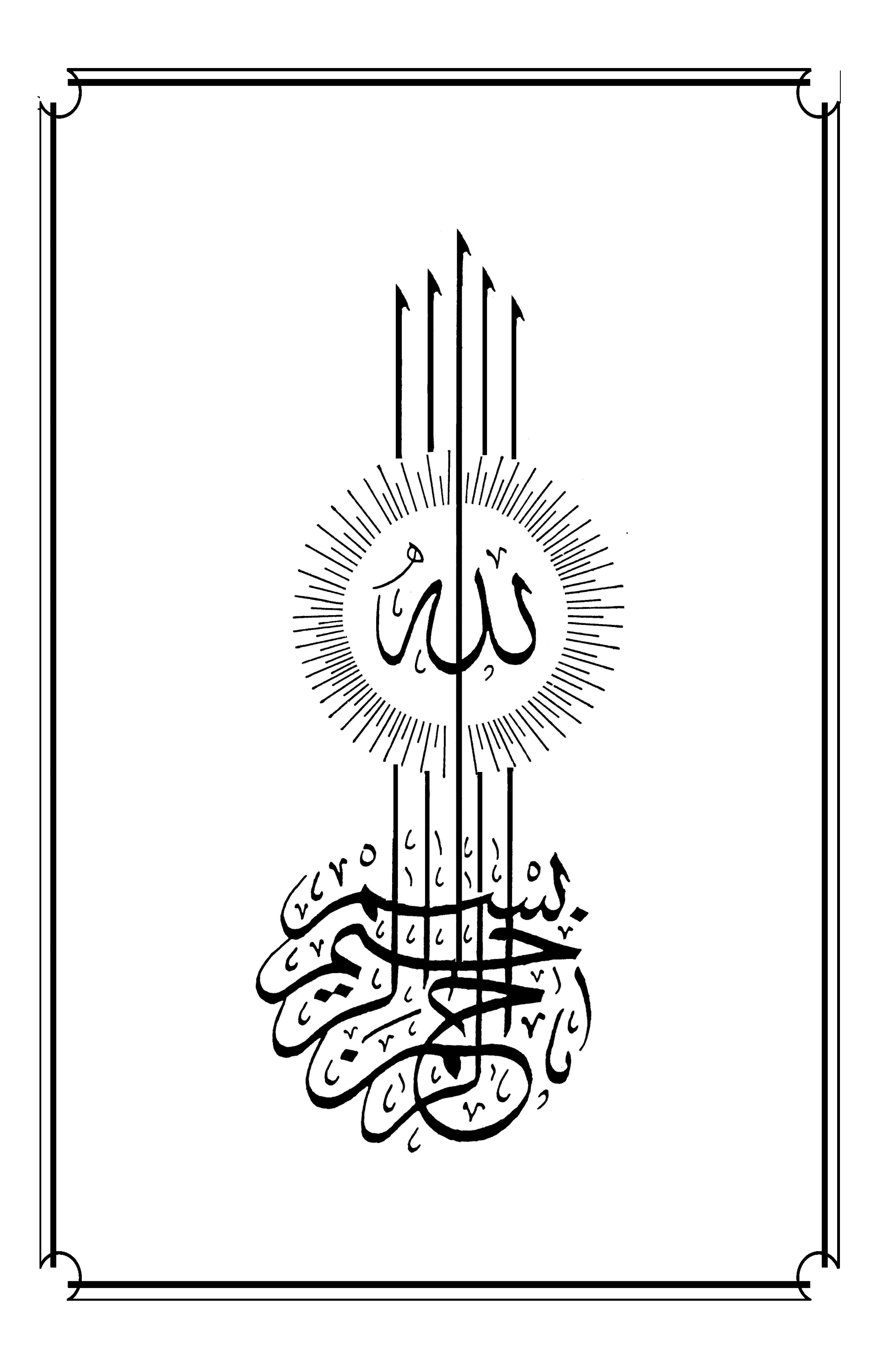
الطبعة الخامسة

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

التحبير لقواعد التفسير

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الطَّبعة الخامسة

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وبعد:

فالقرآن حياة المؤمنين؛ به اهتدوا، وبه آمنوا، وبه اتقوا، هداهم الله به لأزكىٰ العقائد، وخير العبادات، وأفضل الأحكام، وأكمل الأخلاق، وأحسن السياسات؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] .

ومن النَّصيحة لكتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ المبيِّنة له، ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم: حثُّهم علىٰ تعلُّم وتعليم القرآن، والعمل به وتحكيمه، وهذا من معاني تلاوة القرآن التي أمرنا الله بها.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «معنىٰ تلاوته اتِّباعه، بامتثال ما يأمر به واجتناب ما ينهىٰ عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبُّر معانيه، وتلاوة ألفاظه؛ فصار تلاوة لفظه جزء المعنىٰ وبعضَه، وإذا كان هذا معنىٰ تلاوة الكتاب؛ عُلم أنَّ إقامة الدِّين كلِّه في تلاوة الكتاب».

من أجل هذا لابُدَّ أن يتعاون كافَّة المسلمين علىٰ تعليم كتاب الله وحفظه وتدبُّره، وهو من التَّواصي بالحق، وتعليمُه من آكد العلوم وأولاها بالعناية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «حاجة الأمَّة ماسَّة إلىٰ فهم القرآن،

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٦٦٩).

(٢) مقدِّمة في أصول التَّفسير (ص١١).

الذي هو حبل الله المتين، والذِّكر الحكيم، والصراط المستقيم».

ومدارسة القرآن وتدبُّر معانيه، وقيام الأُمَّة به؛ من أفضل ما تُعمر به الأوقات، وتُبنىٰ به المجتمعات، فتعليم القرآن وتدريسه وشرحه وتيسير أسباب فهمه لعموم المسلمين؛ من أفضل الطَّاعات، وأعظم الحسنات؛ عن عثمان بن عفَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»، رواه البخاري.

وقواعد التَّفسير جمعُها وتيسير فهمها لطلبة العلم من أسباب تيسير تدبُّر القرآن، أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع بهذا المصنَّف.

والحمد لله رب العالمين.





مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

فقد يسر الله إخراج الطبعة الأولىٰ من «التحبير لقواعد التفسير»، وقد اشتمل علىٰ ثمانين قاعدة من قواعد التفسير. وما زلت أغرس في هذا الملخص الذي أسأل الله أن يبارك فيه آمين، والطبعة الثانية صدرت أيضًا بفضل الله بإضافات مهمة بلغ مجموع قواعدها اثنان ومائة. وهذه الطبعة الثالثة فيها إضافة قواعد جديدة لم تذكر في الطبعات السابقة، حيث بلغ مجموع الكل اثنتا عشرة ومائة.

وقد أضفت لما سبق مما تم تدوينه من القواعد جملة من الفوائد والنقول عن الأئمة، مع تدعيم تلك القواعد بالأمثلة التي تزيد القاعدة وضوحًا.

وغرضي من تأليف هذا الملخص تيسير أسباب تدبّر وفهم القرآن، واستخراج درره، واستنباط فوائده، وإبراز معانيه لطلبة العلم، وذلك من خلال صياغة قواعد التفسير صياغة سهلة بعيدة عن التكلف والتعقيد والتطويل، لتكون قريبة المأخذ والتناول والفهم لطالب العلم حتىٰ لا يستصعب هذا العلم، ولا يُحرم فضل وبركة فهم القرآن.

والله الهادي إلىٰ سواء السبيل

والحمد لله رب العالمين





المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

فهذه جملة من قواعد التفسير، انتخبتها من كتابي «الجامع في علوم القرآن»، لتكون بين يدي طلبة العلم لحين طباعة « الجامع في علوم القرآن »، ولفائدة تجريد قواعد التفسير في مصنف خاص، لأن الأصل « الجامع في علوم القرآن » مصنف في علوم القرآن وقواعد التفسير ومناهج المفسرين.

وهذه القواعد ما هي إلا إضاءات في طريق القارئ لكتب التفسير.

وطالب العلم يحتاج أن يأخذ هذا العلم بالمشافهة عن أهله.

وقراءة كتب علوم القرآن، ومقدمات المفسرين، والتتلمذ علىٰ كتب التفسير النقية كتفسير الطبري، والبغوي، وابن كثير، والأمين الشنقيطي، والسعدي، والعثيمين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ عون علىٰ إدراك صحيح معاني القرآن.

وألفت انتباه القارئ إلىٰ أن عزو المصادر سيجده في الأصل « الجامع في علوم القرآن »، بإذن الله تعالىٰ.

والحمد لله رب العالمين.





١ - الابتهال إلى الله

فالعلم والتفسير منح إلهية، فالنبي ﷺ دعا لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بعلم التأويل. فأجاب الله هذا الدعاء، وصار ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ترجمان القرآن، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان يقوم علىٰ المنبر، فيقرأ البقرة وآل عمران، فيفسرهما آية آية.

وقال أبو وائل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خطبنا ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهو أمير علىٰ الموسم، فافتتح سورة النور، فجعل يقرأ ويُفسِّر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثل هذا، لو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت.

وعن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قالت**: كان رسول الله ﷺ يدعو في صلاة الصبح: «اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا ورزقًا طيبًا»[١].

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمالك بن يخامر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سأله عن العلم: اطلبه من معلم إبراهيم.

فكل خير تريده ومن أعظمه تدبر معاني القرآن فارغب إلىٰ الله في طلبه فإننا مفتقرون إليه.



(١) رواه الطيالسي وأحمد والطبراني في الدعاء وحسَّنه ابن حجر.



٢- حفظ القرآن

فإن حفظه عون علىٰ التدبر والتفسير، وسوء الفهم يقع مع اجتزاء النصوص، وبهذا ضل أهل البدع، وحافظ القرآن إذا جاء يفسر الآية فإنه يحفظ كل النصوص المكملة لمعناها.

قال زكريا بن أبي زائدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الشعبي يمرُّ بأبي صالح باذام مولىٰ أم هانئ فيأخذ بأذنه فيهزّها، ويقول: ويلك! تُفسِّر القرآن، وأنت لا تحفظ القرآن».

فمن جمع القرآن ووُفِّق لاستحضار نصوصه عند الاستدلال به بحيث يتكلَّم في تفسيره ومعانيه وأحكامه جامعًا لكلّ النُّصوص ذات المسألة الواحدة فهذا ما أحراه بالصَّواب إذا كان متلقِّيًا لمعاني النُّصوص عن السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين، وأمَّا من لم يكن كذلك وتكلَّم في أحكام القرآن ومعانيه مجتزئًا لنصوصه عن عدم استقراء أو هوًىٰ فما أبعده عن الصَّواب.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو علىٰ حرف واحد، وعدم ضم أطرافه بعضها إلىٰ بعض، فإن مآخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هي علىٰ أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتَّبة عليها، وعامّها المرتب علىٰ خاصها، ومطلقها المحمول علىٰ مقيدها، ومجملها المفسر بمبينها، إلىٰ ما سوىٰ ذلك من مناحيها، فإذا حصل للناظر من جملتها حكم من الأحكام، فذلك هو الذي نطقت به حين استنطقت».





٣- التَّفسير أفضل العلوم

طلب معاني القرآن أفضلُ العلوم بلا ريب؛ دلَّ علىٰ ذلك حديث عثمان بن عفَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»، رواه البخاري.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها، وتعلُّم معانيه وتعليمها، وهو أشرف قسمي علمه وتعليمه؛ فإن المعنىٰ هو المقصود، واللَّفظ وسيلة إليه، فتعلم المعنىٰ وتعليمه تعلمُ الغاية وتعليمها، وتعلم اللَّفظ المجرَّد وتعليمه تعلمُ الوسائل وتعليمها، وبينهما كما بين الغايات والوسائل».

وتدبُّر القرآن وتلقِّي معانيه الصَّحيحة من علماء أهل السُّنَّة؛ صيانة لطالب العلم عن البدع والضَّلالات، فالمتعالمون يقرءونه لكنَّه لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدِّين كما يمرق السَّهم من الرَّميَّة، فهم لا يفهمون، متعالمون، ولذلك لمَّا ناظرهم ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أرشدهم إلىٰ المرجعيَّة في فهم القرآن، وأخذه عن كبار العلماء من طبقة الصَّحابة، وهكذا بالنِّسبة لمن بعدهم، فقال لهم: «أتيتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وهم الذين نزل عليهم القرآن، وهم أعلم بتأويله».

وبداية طلب العلم لو شُغلت عن التَّفسير لطلب العلوم التي تُمكِّنك من

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٧٤).

أخذ علم التَّفسير: كالنَّحو والبلاغة والعقيدة والفقه والحديث؛ فاجعل لنفسك حظًّا من يومك لقراءة التَّفاسير المختصرة، وإذا كان في بلدك معلمٌ حاذقٌ عارفٌ بمعاني القرآن، صاحب سنَّة؛ فتلقَّىٰ عنه التَّفسير بالمشافهة، والعلم يغذِّي بعضه بعضًا، فإذا أخذت حظَّك من العلوم مع الوقت فاقرأ التَّفاسير المتوسِّطة المبسَّطة، سهلة التناول، نقيَّة العلوم والاعتقاد؛ كتفسير ابن كثير، والحافظ عبد الرزَّاق الرسعني - رحمهما الله -، ومع مرور السِّنين وملازمة أخذك عن العلماء مشافهة، وقراءة الكتب عليهم أو بخاصَّة نفسك؛ تضلَّع من قراءة كتب التَّفسير النقيَّة المختصرات والمتوسِّطة والمطوَّلات، وما لم يترجَّح لك من بعض دقيق معانيه أو أحكامه فعليك بتفسير شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنَّه إمام محقِّق.

ومهما تزاحمت عليك العلوم تدريسًا وتصنيفًا، ونصرةً للسُّنَّة، وردًّا علىٰ المبتدعة؛ فارجع إلىٰ تفسير القرآن، فهو الأصل والتمام، ومردُّ العلوم كلّها إليه، فهو مادَّتها وإليه مرجعها.

قال الإمام المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أحسن كتاب، وأعظم كتاب، وأصدق كتاب يجب أن يُقرأ في تعليم العقيدة والأحكام والأخلاق؛ هو كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد».

وقال الإمام ابن باز أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الجدير بطالب العلم أينما كان: أن

---

(١) الفتاوىٰ البازية (٧/ ٧٢).

(٢) الفتاوىٰ البازيَّة (٤/ ٧٤، ٧٥).

يقبل علىٰ كتاب الله، وأن يجعل تدبُّره وتعقُّله من أكبر همِّه، ومن أعظم شواغله، وأن تكون له العناية الكاملة بقراءته، وتدبر ما فيه من المعاني العظيمة، والبراهين الساطعة، علىٰ صحة ما جاءت به الرسل، وعلىٰ صدق ما دل عليه الكتاب، وعلىٰ بطلان ما يقول به أهل السوء، أينما كانوا، وكيفما كانوا.

ومن تدبَّر القرآن طالبًا للهدىٰ؛ أعزَّه الله، وبصَّره وبلَّغه مناه، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

وهكذا السنة المطهرة».





٤- حذار من التَّعالم في التَّفسير

طالب العلم يأخذ العلوم بصفةٍ عامَّة، والتَّفسير بصفة خاصَّة مشافهةً عن العلماء، ويتدرَّج في قراءة كتب التَّفسير مبتدئًا بالمختصرات ثم المتوسِّطات ثم المطوَّلات، ومع مذاكرته للعلم عمومًا والتَّفسير خصوصًا مع زملائه في الطلب ومع شيوخه؛ فإنَّه ينبغي له التوقِّي في العلم عمومًا وفي التَّفسير خصوصًا.

قال ابن أبي مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا سُئل عن آية لو سُئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبىٰ أن يقول فيها».

وقال يزيد بن أبي يزيد: كنَّا نَسأل سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الحلال والحرام، وكان أعلم النَّاس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع[(٢)].

وقال إبراهيم النَّخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «كان أصحابنا يتَّقون التَّفسير ويهابونه».

وقال الشَّعبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنَّها

---

(١) رواه الطَّبري في جامع البيان (١/ ٨٠)، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناده صحيح»، تفسير القرآن (١/ ١٢).

(٢) جامع البيان (١/ ٨٠، ٨١).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٣).

الرِّواية عن الله».

وقال عبيد الله بن عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أدركت فقهاء المدينة، وإنَّهم ليعظِّمون القول في التَّفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيّب، ونافع».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة علىٰ تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب علىٰ كلِّ أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «**من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**»».



=

(١) جامع البيان (١/ ٨١).

(٢) جامع البيان (١/ ٧٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٣، ١٤).



٥- القرآن كله محكم فلا تجعله متشابهًا

البعض يُفسِّر القرآن بمنهجيَّة تُشعر المتلقِّي عنه بصعوبة فهم القرآن واشتباهه، فإذا ذكر أحكامه ومعانيه ذكر ما فيها من الخلاف، وجعله متجاذبًا لدرجة يصعب أو يمتنع معها معرفة الرَّاجح من المرجوح، والصَّواب من الخطأ، وذلك لعدم تحقّقه بالعلم.

وهذه طريقة خاطئة منحرفة تُنفِّر النَّاس عن طلب معاني القرآن وأحكامه؛ لاعتقادهم صعوبة ذلك بسبب العرض الخاطئ لمعانيه من ناقص العلم.

والقرآن كما نعته الله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «أي: سهَّلنا لفظه، ويسَّرنا معناه لمن أراده؛ ليتذكَّر النَّاس».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «ولا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتمَّ من كلام الله سبحانه، ولهذا سمَّاه الله بيانًا، وأخبر أنَّه يسَّره للذِّكر، ويسَّر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال».

وقيل لشيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: ما رأيكم في قول بعض

---

(١) التَّفسير (٤/ ٢٦٤).

(٢) مختصر الصَّواعق (١/ ٥٧).

المعاصرين: إنَّ المحكم الذي تُبنىٰ عليه الأصول والقواعد العامَّة في الشَّرع لا يتجاوز واحدًا في المائة، وإنَّ المتشابه يقدر بتسع وتسعين في المائة، ولذلك نرىٰ هذا الاختلاف الكبير بين الفقهاء؟

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا يدلُّ علىٰ جهله، وأنَّ كل شيء عنده مشتبه؛ لأنَّه لا يعرف، وإلَّا فالمتشابه لا يُمثِّل واحدًا في المائة من أدلَّة الشَّرع، كلّها والحمد لله واضحة وبيِّنة، لكن الله يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]».

والقرآن هدًىٰ وبيان قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهذا دالٌّ علىٰ إحكامه وندرة اشتباهه، ويدلُّ لذلك ما رواه الشَّيخان من حديث النُّعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الحلال بيِّنٌ، وإنَّ الحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من النَّاس**».

فقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**إنَّ الحلال بيِّنٌ، وإنَّ الحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات**»؛ دالٌّ علىٰ قلَّة الاشتباه في النُّصوص، وأنَّ عامَّتها بيِّنة واضحة محكمة.

والبيان الذي في النُّصوص صفةٌ لها لا يُعترض عليها، ولا تُخرج عن هذه الصِّفة لنقصِ علمِ النَّاظر في الأدلَّة، وتفريطه في طلب ما يُمكِّنه من فهم وتدبُّر معاني وأحكام النُّصوص، أو لسلوكه طريق الزَّائغين الذين لا يردون المشتبه إلىٰ المحكم أو لا يردّونه إلىٰ عالمه، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ

---

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ٧).

﴿ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّما هي مشتبهة علىٰ من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر».

وتدبَّر حديث النُّعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فإنَّه دالٌّ علىٰ ما دلَّت عليه آية آل عمران من كثرة العلماء الرَّاسخين الذين يعرفون معنىٰ المتشابه الذي لا يعلمه كثير من الجُهَّال، قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله ﷺ: «**لا يعلمهن كثير من النَّاس**»، يعني: هذه المشتبهات لا يعلمهن كثير من النَّاس، ويعلمهن كثير؛ فكثير لا يعلم، وكثير يعلم، ولم يقل ﷺ: لا يعلمهن أكثر النَّاس. ولو قال: لا يعلمهن أكثر النَّاس. لصار الذين يعلمون قليلًا.

إذن فقوله ﷺ: «**لا يعلمهن كثير من النَّاس**»، إمَّا لقلَّة علمهم، وإمَّا لقلَّة فهمهم، وإما لتقصيرهم في المعرفة».

وقال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ النُّصوص الشَّرعيَّة من الكتاب والسُّنَّة تأتي مركَّبة صريحة في معانيها، لا تحتمل غيره بوجه؛ هذا حالها في نفسها، وقد اتَّفق علىٰ هذا جميع أئمَّة المسلمين، الذين عرفوا مقاصد الشَّارع في مصادره وموارده، وتمرَّنوا علىٰ ألفاظه ومعانيه».

فالقرآن يسَّر الله أسباب فهمه لعموم خلقه، لذلك جعله حُجَّةً عليهم، وتعبَّدهم بما فيه.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٧٨٢).

(٢) شرح الأربعين النَّوويَّة (ص١٣٣).

(٣) توضيح الكافية الشَّافية (ص٧٩).

قال العلَّامة حسين النَّعمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الله أمر بتدبُّر كتابه، ومعرفة أحكامه، وفقه شرائعه، لم يخصَّ الله تعالىٰ به أحدًا دون أحد، ولا من تقدَّم دون من تأخَّر وابتعد».

وقال العلَّامة محمد بن إسماعيل الصَّنعانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ منكرًا علىٰ من زعم صعوبة فهم القرآن[٢]: «فليت شعري ما الذي خصَّ الكتاب والسُّنَّة بالمنع من معرفة معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتىٰ جُعلت معانيها كالمقصورات في الخيام، قد ضُربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلَّا ترديد ألفاظها والحروف، وأن استنباط معانيها قد صار حجرًا محجورًا، وحرمًا محرَّمًا محصورًا؟!».



(١) معارج الألباب في مناهج الحق والصَّواب (ص٧٢).

(٢) إرشاد النُّقَّاد إلىٰ تيسير الاجتهاد (ص٨٥).



٦- التحرز من البدع والذنوب

تقوىٰ الرب ومحاذرة البدع تفتح لك كنوز معاني القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾.

[الواقعة: ٧٩]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلَّت الآية بإشارتها وإيمائها علىٰ أنه لا يُدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام علىٰ القلوب الملوّثة بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي.

قال البخاري في «صحيحه» في هذه الآية: «لا يجد طعمه إلا من آمن به».

وهذا أيضًا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبُّره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلَّم به حقًا، وأنزله علىٰ رسوله وحيًا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه».





٧- اجتناء العلم بزكاء النفس

بذل كنوز العلم عمومًا، وعلم التفسير خصوصًا سبب لنماء العلم وزيادته، فإن العلم يزكو، وقاعدة الشرع والفضل الإلهي ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فلا تكن ممن يبخل بدرر الفوائد ويشح عن إفادتها لعموم الناس، فما هذه أخلاق النبلاء، وما قيمة العلم إذا كتمته؟

فكن طيب النفس ببذل الفوائد للناس، وتأسىٰ بسلفك الصالح، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا[١]: «إني لأمر بالآية من القرآن فأفهمها فأودُّ أن الناس كلهم فهموا منها ما أفهم».

فبعض طلبة العلم يغويه الشيطان ويجعله يتكتم فرائد الفوائد حُبًّا في التفرد عن عامة طلبة العلم، فهذا من تلبيس إبليس، وهو داخل في المباهاة المذمومة، وهو من أسباب الحرمان من بركة العلم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «فأما حبُّ التفرد من الناس بفعل ديني أو دنيوي: فهو مذموم، قال تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ

(١) فتح الباري لابن رجب (١/ ٤٦).

(٢) فتح الباري لابن رجب (١/ ٤٦).

عُلُوًّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادًاۚ﴾ [القصص: ٨٣]، وقد قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره: هو أن لا يُحبَّ أن يكون نعله خيرًا من نعل غيره، ولا ثوبه خيرًا من ثوبه.

وفي الحديث المشهور في «السنن»: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوأ مقعده من النار».

ومن ينشر علمه وهو عالم بشرع الله لا شك أنه حاضر البال من قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فالعلم يزكو ببذله، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والعجب! أن العلم كما قال القائل:

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفا شددتا

فكلما علّمت غيرك ازداد علمك، وكلما أمسكت العلم نقص علمك، والمال بالعكس، ولولا أن الله ينزل البركة فيمن تصدق حتىٰ لا تنقصه الصدقة لانتهىٰ المال عن قرب».

والبخل بالعلم وعدم أدائه لا يليق بورثة الأنبياء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ [التكوير: ٢٤]، فإنَّ الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين:

١- أدائها من غير كتمان.

٢- وأدائها علىٰ وجهها من غير زيادة ولا نقصان.

والقراءتان كالآيتين؛ فتضمَّنت إحداهما - وهي قراءة الضاد - تنزيهَه عن البخل، فإن «الضَّنِين»: البخيل، يقال: ضَنِنْتُ به أَضَنُّ، بوزن (بَخِلْتُ به أبخل)،

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ٢١٤).

(٢) التِّبيان في أيمان القرآن (ص١٩٧، ١٩٨).

ومعناه. ومنه قول جميل بن مَعْمَر:

أجــود بمضْـــنُونِ الـــتلَادِ وإننـــي   بِســـرِّك عمَّـــن ســـالني لَضَـــنينُ

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «ليس ببخيل بما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال مجاهد رَحِمَهُٱللَّهُ: «لا يضن عليهم بما يُعَلِّم».

وأجمع المفسِّرون علىٰ أن الغيب هاهنا القرآن والوحي.

وقال الفراء رَحِمَهُٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضِنُّ به عليكم». وهذا معنًىٰ حسن جدًّا؛ فإن عادة النفوس، الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدْرَه، ويذمُّه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول ﷺ لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

وقال أبو علي الفارسي: «المعنىٰ: يأتيه الغيب فيبيِّنه ويخبر به، ويظهره ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتىٰ يأخذ عليه حلوانًا».

وفيه معنًىٰ آخر، وهو أنه علىٰ ثقة من الغيب الذي يخبر به، فلا يخاف أن ينتقض ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقع للكهان وغيرهم ممَّن يخبر بالغيب؛ فإن كَذِبهم أضعاف صِدْقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن علىٰ ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه؛ فإقدام هذا الرسول ﷺ علىٰ الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب، واثقًا به مقيمًا عليه، مبديًا له - في كل مَجْمَع - ومعيدًا، مناديًا به علىٰ صدقه، مستجلبًا به لأعدائه؛ من أعظم الأدلة علىٰ صدقه.

وأما قراءة من قرأ ﴿بظنين﴾ بالظاء، فمعناه: المُتَّهَم، يقال: ظننت زيدًا، بمعنىٰ: اتهمته، وليس من «الظَّنِّ» الذي هو الشعور والإدراك؛ فإن ذلك يتعدَّىٰ

إلىٰ مفعولين، ومنه ما أنشد أبو عبيدة:

أَمَـا وكتـاب الله لا عـن شَـناءةٍ هُجِـرْتُ ولكـنَّ المُحِـبَّ ظَنِـينُ

والمعنىٰ: وما هذا الرسول علىٰ القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص، وهذا يدلُّ علىٰ أن الضمير يرجع إلىٰ محمد ﷺ».





٨- القرآن ميسر للفهم

البعض ألقىٰ في أسماع الناس صعوبة فهم معاني القرآن، وصار هذا اعتقادًا راسخًا في أذهان البعض ما أوجب لهم الانصراف عن الأسباب التي توجب لهم فهمه وطلب تفسيره.

قال العلامة الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليت شعري! ما الذي خصّ الكتاب والسُّنَّة بالمنع من معرفة معانيها؛ وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتىٰ جُعلت معانيها كالمقصورات في الخيام قد ضُربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وإن استنباط معانيها قد صار حجْرًا محجورًا وحرمًا محرّمًا محصورا».

فهؤلاء الذين رسّخوا في أذهان الناس صعوبة فهم القرآن، هم في الحقيقة صادون عن شريعة الله، فمن استصعب شيئًا ترك طلبه إلا من شاء الله.

ومن اعتقد سهولة أمر ما سعىٰ في تحصيله وطلبه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قوله إنه إذا لم يقف علىٰ المقصود مع معرفته بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقىٰ قلبه ملتفتًا إليه أبدًا، ومتفكرًا فيه أبدًا.

يقال: هذا صحيح إذا كان يرجو فهمه، وكان فهمه ممكنًا عنده، أما إذا جزم بأن أحدًا من الخلق لا يفهمه صار ذلك مأيوسًا منه، فلا يلتفت قلبه إلىٰ ما لا يطمع فيه، ولا يتفكر فيه، بل تبقىٰ همته مصروفة إلىٰ لفظه دون معناه، واللفظ تابع للمعنىٰ، فإذا لم يكن ثمّ معنىٰ يُطلب يبقىٰ لفظ مجرد فأفضىٰ به إلىٰ ما يفسد القلب

من التشدق والتفيهق وقسوة القلب وغفلته عن الله».

والحقيقة الواضحة هو سهولة فهم معاني القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

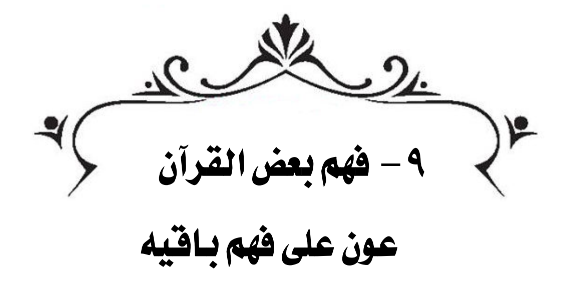
قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: سهَّلْنا لفظه، ويسَّرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا، ولا أتم من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه الله بيانًا، وأخبر أنه يسَّره للذكر، ويسَّر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، تأتي مركبة صريحة في معانيها، لا تحتمل غيره بوجه، هذا حالها في نفسها، وقد اتفق علىٰ هذا جميع أئمة المسلمين، الذين عرفوا مقاصد الشرع في مصادره وموارده، وتمرَّنوا علىٰ ألفاظه ومعانيه، فكما لا يستريبون في نصوصه في الأحكام الفروعية، فلا يستريبون أيضًا في نصوصه في الأصول، بل يرون هذا النوع أكثر بيانًا وأبلغ وضوحًا، لشدة الحاجة والضرورة إليه».

وتكلم أيضًا العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أسباب استصعاب البعض لمعاني القرآن فقال: «وذلك لعدم إقبالهم التام، واعتناءهم بكلام الشارع».

صحيح هناك بعض الآيات متشابهة المعنىٰ، وبعض الآيات يدق فهم معناها إلا من العلماء، لكن الناس يتفاوتون في طلب ما يُشكل عليهم فهمه، فمنهم من همّته عليّة يستجمع همّته وفكره لطلب ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا يفكر الإنسان فيما أشكل عليه، فتكون فكرته فيه سببًا لجمع همّته، وإقباله علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ عبادته، واشتغاله بذلك عما تهواه الأنفس ومن الأهواء الرديئة».



٩ - فهم بعض القرآن عون على فهم باقيه

اطلب تفسير ما تحتاجه، وما تعتقد أنه أيسر عليك في الفهم، فإن فهم بعض القرآن عون علىٰ فهم باقيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا فهم بعض الحق وجد فيه حلاوة، وذلك يدعوه إلىٰ طلب الباقي، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]»[(١)].

وهذا الذي قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حق، ويجده الإنسان في نفسه، سواء في حفظ القرآن أو تفسيره، أو طلب العلم عمومًا، فحفظ بعض القرآن ومعرفة معانيه يورّث اعتقادًا راسخًا لصاحبه بإمكانية حفظ وفهم باقيه، وقد فعل، ووجد ذلك واقعًا، ولا يزال يطلب حفظ وفهم بقيته، ويجد في قلبه فرحًا وحلاوة ونورًا فيما حفظه وعلم معناه، فيكون ذلك سببًا آخر يزيد من أسباب طلبه حفظ القرآن وفهمه.

ومعلوم لدىٰ الناس أن من شرع في الشيء ليس كمن لم يبدأ فيه، فاجمع همتك علىٰ حفظ القرآن وفهمه إن لم تبدأ بعد، وإن شرعت فأكمل الطريق، فستجد أنك معان علىٰ ذلك، يُيسّر الله لك أسباب ذلك لأن من أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه،

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٣٣٦).

والله يقول: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].







١٠-أنت المخاطب بهذا القرآن

كل من وقف بين يدي ملك معظّم، لا شك أنه يُصغي بسمعه ويتدبر بعقله لكلام الملك على أكمل ما يكون، وهكذا الشأن ولله المثل الأعلىٰ بالنسبة للقرآن، فهو خطاب الله لخلقه أجمعين، فالخلق كلهم مأمورون بتدبره طاعة لله وإجابة لداعيه، وكل ذلك يحصل مع حضور القلب وإصغاء السمع.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧]، وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إذا قيل يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإما خير تؤمر به أو شر تنهىٰ عنه».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك علىٰ لسان رسوله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧].

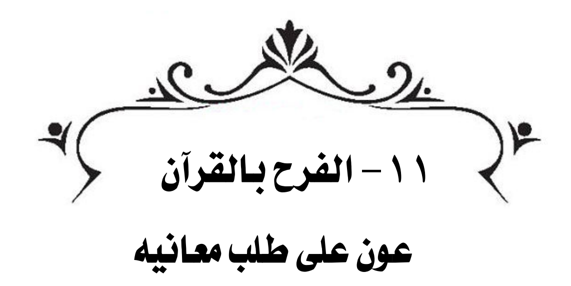
وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا علىٰ مؤثر مقتضٍ، ومحل قابل وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله علىٰ المراد.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾، إشارة إلىٰ ما تقدم من أول السورة - أي سورة قٓ - إلىٰ هاهنا، وهذا هو المؤثر، وقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾،

فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]، أي حي القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، أي وجّه سمعه وأصغىٰ حاسَّة سمعه إلىٰ ما يُقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استمع كتاب الله وهو شاهد الطلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلىٰ المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووُجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفىٰ المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنىٰ الخطاب وانصرافه عنه إلىٰ شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر».





١١ - الفرح بالقرآن عون على طلب معانيه

افرح بهذا القرآن فإنه نور، وهدىٰ، وشفاء، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

فالفرح بالقرآن عون علىٰ طلب معانيه، وفهمه، فكيف تفرح بما لا تفهم معناه؟!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني أعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقرائته»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] الآية، ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه.

فإذا استقر في القلب، وتمكَّن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده،

---

(١) إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب (٦/ ٢٤٥٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٤٩ - ٥٠).

وبرّه به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال مترقيًا في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقرآن: من أعلى مقامات العارفين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الرعد: ٣٦]. فالفرح بالعلم والإيمان والسُّنَّة دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله، ولا يحزنه فواته».

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن في العلم بالأشياء لذة لا توازيها لذة، إذ هو نوع من الاستيلاء على المعلوم والحوز له، ومحبة الاستيلاء قد جبلت عليها النفوس، ومُيِّلت إليها القلوب، وهو مطلب خاص، برهانه التجربة التامة والاستقراء العام»[(١)].

والفرح بالقرآن هو من قبوله والانقياد له، والإيمان به، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧﴾ [البقرة: ٩٧].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ القرآن بشرى للمؤمنين،

---

(١) الموافقات (١/ ٦٧).

(٢) تفسير سورة البقرة (١/ ٣١٧).

وعلامة ذلك أنَّك تنتفع به، فإذا وجدت نفسك منتفعًا به حريصًا عليه تاليًا له حقّ تلاوته، فهذا دليل علىٰ الإيمان، فتناوله البشرىٰ، وكلَّما رأىٰ الإنسان من نفسه كراهة القرآن أو كراهة العمل به أو التَّثاقل في تطبيقه فليعلم أنّه إما فاقد الإيمان بالكليَّة، أو أنّ إيمانه ناقص».





١٢ - تدبّر القرآن

نحن مأمورون بتدبّر القرآن، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، فالله عَزَّوَجَلَّ يريد منا أن نعقل معنىٰ هذا القرآن فنتدين به ظاهرًا وباطنًا، وتقع كلماته ومواعظه في قلوبنا موقعها، فتورث صلاحًا لقارئيه والمؤمنين به.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فإذا كان ذكرًا مباركًا، وجب تلقِّيه بالقبول والانقياد والتَّسليم، وشكر الله علىٰ هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته بتعلم ألفاظه ومعانيه».

كما إن الله عَزَّوَجَلَّ يريد منا أن نستضيء بنور وحيه في سيرنا في هذه الحياة الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأما التأمّل في القرآن فهو تحديق نظر القلب إلىٰ معانيه، وجمع الفكر علىٰ تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٠٧٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٦٣ - ٣٦٤)، ط. دار الحديث - القاهرة.

[محمد: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبّر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملًا. فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلىٰ نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر فيه علىٰ معاني آياته، فإنها تُطلع العبد علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتُحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصِّره مواقع العبر، وتُشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يُحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرىٰ: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتىٰ كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتىٰ كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًا، والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدىٰ والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياةً وسَعةً وانشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة علىٰ التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما يُنزه عنه من سمات النقص، وعلىٰ الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلىٰ الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلىٰ يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلىٰ الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلىٰ تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلىٰ ربه بالوعد الجميل، وتحذّره وتخوّفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثّه علىٰ التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلىٰ سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طريق البدع والأضاليل وتبعثه علىٰ الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته، وونىٰ في سيره: تقدم الرَّكْبُ وفَاتَكَ الدليلُ، فاللحاق اللحاقَ، والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل. وفي تأمل

القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد، وبالجملة: فهو أعظم الكنوز، طلمسه الغوص بالفكر إلىٰ قرار معانيه».





١٣- تفاضل الناس في الفهم وما ادّخر لك من الفضل

الناس يتفاضلون في فهم القرآن، فهذا نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ امتدحه الله بخصوصية الفهم، فقال سبحانه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾. [الأنبياء: ٧٩]

وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **سُئل**: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن[(١)].

فهذا بيان واضح من علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في تفاضل الناس في فهم القرآن، وهذا يُدركه الناس إدراكًا بيّنًا في اختلاف تعليقات الناس علىٰ آي القرآن واستنباطاتهم الفوائد منها.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «في القرآن كل شيء، والناس إنما يأخذون بقدر استعداد أذهانهم، كل يغرف بحسب فهمه».

وانظر إلىٰ فهم ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وما حباه الله من حسن الفهم، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يدني ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن لنا أبناء مثله، فقال: إنه من حيث تعلم، فسأل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

---

(١) رواه البخاري كتاب الديات باب العاقلة (ص ١١٩٠ - رقم ٦٩٠٣).

(٢) العذب النمير (١/ ١٩٣).

عن هذه الآية ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]، فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم(١).

فاطلب العلم والتفسير، ولا تظن أن الأولين ما تركوا للآخرين شيئًا، بل قد أبقىٰ الله لهم فضلًا، فإن النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع، قال: «**ألا ليبلغ الشاهد الغائب، لعل بعض من يبلغه أن يكون أوعىٰ له من بعض من سمعه**».

قال الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٦٩٩هـ)**(٢):

«فجعل الرجاء في البعض من يبلغه في الواعي له، وذلك هو الخير كما جعل عدم الخير هو ترك الوعي في الأقل ممن سمعه، وجعل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تفضيل من يوعاه في الأخذ وإن بعد علىٰ بعض من سمعه ولم يرعه هم الأقل».



(١) رواه البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته (ص ٧٥٣ - رقم ٤٤٣٠).

(٢) بهجة النفوس (٤/ ١١٤)، ط - دار الجيل.



١٤ - القرآن إمام

القرآن كلام ربِّ العالمين، ووحيه الذي تكلَّم به سبحانه حقيقة، وأمرنا الله بتدبره والتديُّن به، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

والقرآن أفصح الكلام وأبلغه، فألفاظه ملوك الألفاظ وأقواها في الدَّلالة علىٰ معاني ما تكلَّم الله به، وهي حاكمة علىٰ ما سواه من الكلام معنًىٰ ولفظًا وفصاحة وبلاغة، فمنه تُستنبط قواعد النَّحو والبلاغة والإعراب، وبه يُعرف صواب الكلام من باطله، وفصيحه من عَيِيِّه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قواعد الإعراب والتصريف الصحيحة مستفادة منه، مأخوذة من إعرابه وتصريفه، وهو الشاهد علىٰ صحَّة غيرها مما يحتج له بها؛ فهو الحجَّة لها والشاهد، وشواهد الإعراب والمعاني منه أقوىٰ وأصح من الشواهد من غيره، حتىٰ إن فيه من قواعد الإعراب وقواعد علم المعاني والبيان ما لم تشتمل عليه ضوابط النحاة وأهل علم المعاني إلىٰ الآن. كما أن فيه من قواعد البراهين العقلية والأدلة القطعيَّة ووجوهها ما لم تشتمل عليه قواعد الأصوليين والجدليِّين إلىٰ الآن. وفيه من علم الأحكام وفقه القلوب وأعمال الجوارح وطرق الحكم بين العباد ما لم تتضمَّنه قواعد الفقهاء إلىٰ الآن».

---

(١) الصَّواعق المرسلة (٢/ ٧٤٧).

وقد تحدَّىٰ الله فصحاء العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن؛ فعجزوا عن الإتيان بآية واحدة مثله، فضلًا عن أن يأتوا بسورة مثله، أو يأتوا بمثل القرآن.

فالقرآن كلام رب العالمين، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، وكلام الله رب العالمين لا يوازيه كلامُ أحدٍ من المخلوقين في فصاحته وبلاغته وإحكامه، ومعانيه التي تهدي للَّتي هي أقوم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قال الحافظ ابن ناصر الدِّين الدِّمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الكلام إذا اجتمع فيه الفصاحة والجزالة والنَّظم؛ كان كامل البلاغة، وأعلاها بلاغة القرآن؛ لاجتماع هذه الثَّلاثة فيه.

فالفصاحة: دلالة اللَّفظ علىٰ المعنىٰ مع الإفصاح والإيضاح.

والجزالة: دلالة اللَّفظ علىٰ المعنىٰ مع قلَّة حروف الكلم وتناسب مخارجها والاختصار.

والنظمُ: ترتيب الألفاظ وارتباط بعضها ببعض مع تناسب الكلمات وتوازن الحركات والسَّكتات، والدَّلالة علىٰ المعنىٰ المراد. وهذا كلّه في القرآن مع أسلوبه العجيب الذي لم يُعهد نظيره، ونظمه الغريب الذي لم يُسمع لكلام غيره تحريره ولا تحبيره، ولهذا عجز البلغاء كافَّة والفصحاء عامَّة عن الإتيان بسورة من مثله، وانقطعوا عن المعارضة بحديث من شكله، مع تحدِّيهم وتوفُّر دواعيهم إلىٰ المعارضة، ولم يقع ذلك منهم، ولا جاء شيء مثله عنهم؛ قال الله

---

(١) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، (ص٤٥٣).

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]».

فالقرآن (فرقان) فاتخذه ميزانًا تعرف به الحقَّ من الباطل، والقرآن ﴿هُدًى﴾ فَأْتَمَّ به في تلقِّي العقائد والعبادات والأحكام والسِّياسات والأخلاق، ومنه تتلقَّىٰ قواعد وأصول العلوم الدينيَّة والدنيويَّة.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ [الحجرات: ١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «علىٰ كلِّ مؤمنٍ أن لا يتكلَّم في شيءٍ من الدِّين إلَّا تبعًا لما جاء به الرَّسول ﷺ، ولا يتقدَّم بين يديه؛ بل ينظر ما قال فيكون قوله تبعًا لقوله، وعمله تبعًا لأمره، فهكذا كان الصَّحابة ومن سلك سبيلهم من التَّابعين لهم بإحسان وأئمَّة المسلمين؛ فلهذا لم يكن فيهم من يعارض النُّصوص بمعقوله، ولا يؤسِّس دينًا غير ما جاء به الرَّسول؛ فمنه يتعلَّم وبه يتكلَّم، وفيه ينظر ويتفكَّر، وبه يستدلُّ؛ **فهذا أصل أهل السُّنَّة**».



(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٦٢، ٦٣).



١٥ - تهذيب الجوهر

تدبّر كتاب الله يكون مع خشوع القلب وتهذيب النفس، والقلوب القاسية قسوة قلوبهم تمنعهم حسن تدبّر كتاب الله، فضلًا عن ملاحظة لطائف المعاني.

قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

والقلوب القاسية إذا اجتمع معها بلادة الذهن تعطّلت عن الفهم والتدبّر، وتأمل هذا في فرق ما بين أمة محمد ﷺ وأمة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فاليهود لما كانت أذهانهم بليدة وقلوبهم غليظة ناسبهم من معجزات نبيهم ما يناسب حالهم، قال شمس الدين الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أكثر معجزات موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حسية تُدرك بالحس، لبلادة القوم الذين أُرسل إليهم، ولقلة بصيرتهم».

ودواء قسوة القلب ذكر الله، فهو أساس تهذيب الإنسان وحياة قلبه وإشراقه، ومادة معرفته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٥١هـ)**[2]: «إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالىٰ، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالىٰ.

وذكر حماد بن زيد عن المُعلَّىٰ بن زياد أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد**!!** أشكو إليك قسوة قلبي.

قال: أذبه بالذكر.

(١) التيسير في قواعد علم التفسير ص ٢١٠ - ٢١٣.

(٢) الوابل الصيب ص ١٧١.

وهذا لأن القلب كلما اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالىٰ ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ».

وقد تكلم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مطابقة اللفظ للمعنىٰ، وغفلة القاسية قلوبهم عن هذه المطابقة لغلظ أطباعهم، فقال[1]: «... كيف وضعوا للمعنىٰ الثقيل الشديد هذه الحروف الشديدة، ووضعوا للمعنىٰ الخفيف هذه الحروف الهوائية التي هي من أخف الحروف.

وهذا أكثر من أن يحاط به، وإن مد الله في العمر؛ وضعت فيه كتابًا مستقلًا - إن شاء الله تعالىٰ -.

ومثل هذه المعاني يستدعي لطافة ذهن، ورقة طبع، ولا تتأتَّىٰ مع غلظ القلوب، والرضىٰ بأوائل مسائل النحو والتصريف دون تأملها وتدبّرها، والنظر إلىٰ حكمة الواضع، ومطالعة ما في هذه اللغة الباهرة من الأسرار التي تدق علىٰ أكثر العقول، وهذا باب ينبه الفاضل علىٰ ما وراءه ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وانظر إلىٰ تسميتهم الغليظ الجافي (العتل)، و(الجعظري)، و(الجواظ)، كيف تجد هذه الألفاظ تنادي علىٰ ما تحتها من المعاني».



(١) جلاء الأفهام ص ٢٤٤ - ٢٤٥.



١٦ – أنواع كلام الله بحسب الفهم

الناس يتفاضلون في معرفة معاني كلام الله تعالىٰ، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «التفسير علىٰ أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»[١].

وقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «تفسير تعرفه العرب من كلامها»، فهذا مما ينبغي إيضاحه وتبيينه، صحيح أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، لكن للقرآن معانٍ معهودة لا يجوز تقديم المعاني اللغوية عليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا أكثر ما يقع فيه الخطأ في التفسير[٢]: «إحداهما: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها. والثانية: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلىٰ المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه والمخاطب به.

فـ «الأولون» راعوا المعنىٰ الذي رأوه من غير نظر إلىٰ ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

و«الآخرون» راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير

---

(١) جامع البيان (١/ ٧٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٥٥ – ٣٥٦).

نظر إلىٰ ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام. ثم هؤلاء كثيرًا ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنىٰ في اللغة، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيرًا ما يغلطون في صحة المعنىٰ الذي فسروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلىٰ المعنىٰ أسبق، ونظر الآخرين إلىٰ اللفظ أسبق.

والأولون «**صنفان**»: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه علىٰ ما لم يدل عليه ولم يُرد به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنىٰ باطلًا، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقًا فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول».

وأما قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وتفسير لا يعذر أحد بجهالته»، فقد تحدّث العلماء عن معناه، فقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «هو خبرٌ عن أن من تأويله ما لا يجوز لأحد الجهل به».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ **موضحًا ذلك**[٢]: «وهو تفسير ما يجب اعتقاده أو العمل به، كتفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، فيجب علينا أن نعرف معنىٰ إقامة الصلاة التي أمرنا بها، وكذلك ما يجب علينا اعتقاده كالإيمان بالرسل ونحوهم، فإنه لا يعذر أحد بجهالته».

ومع الأسف هذا الذي لا ينبغي لأحد جهله صار مجهولًا عند كثير من الناس لتفريطهم في معرفة معاني كتاب الله، قال العلامة حسين النعمي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «ونحن في خوضنا السابق بمنزلة من يفسر لمن صار الجلي عنده خفيًا».

---

(١) جامع البيان (١/ ٧٠).

(٢) شرح مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ص ١٥٠.

(٣) معارج الألباب ص ٢١٥.

وأما قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وتفسير يعلمه العلماء»، فهذا يُراد به والله أعلم المتشابه النسبي فإنه لا يعرفه إلا العلماء، وكذلك دقيق المعاني.

قال النبي ﷺ: «**إنما نزل كتاب الله ليصدّق بعضه بعضًا، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلىٰ عالمه**»[1].

وقال محمد بن جعفر بن الزبير في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]: «ردوا تأويل المتشابه علىٰ ما عرفوا من تأويل المُحْكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدّق بعضه بعضًا، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر».

فالعلماء لهم اختصاص عمن دونهم في فهم معاني القرآن، والصحابة سادات العلماء في معرفة معاني القرآن، قال أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتىٰ يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله».

وكلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تفسير لا يعلمه إلا العلماء»، هو كقول النبي ﷺ: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس**»[2].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «دلّ علىٰ أن من الناس من يعلمها، وإنما هي مشتبهة علىٰ من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر، فهذا هو

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

السبب المقتضي لاشتباه بعض الأشياء علىٰ كثير من العلماء».

وقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «وتفسير لا يعلمه إلا العلماء»، فهو تذكير لطلبة العلم بعدم المجازفة في الكلام في التفسير، وأنه ينبغي لهم التبيّن والنظر في المنقول عن السلف في معاني الآيات.

قال ابن أبي مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا سئل عن آية لو سُئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبىٰ أن يقول فيها[1].

وإذا نظر الإنسان فيما أخطأ فيه العلماء وطلبة العلم، أوجب له ذلك الاحتياط والتوقي والحذر وعدم المجازفة.

وإذا نظرت إلىٰ أنواع الأحكام التي ذهب إليها جماعة من العلماء وجانبوا فيها الصواب، أوجب لك ذلك مقابلة الأقوال وتحرير معاني الآيات ودلالتها.

فمن ذلك ما ذهب إليه جماعة من العلماء من عدم وجوب صلاة الجماعة لأن النبي ﷺ قال مفاضلًا بينها وبين صلاة المنفرد: «**تفضله بخمس وعشرين درجة**»، فقالوا: «**أفعل**» التفضيل يدل علىٰ الاشتراك في أصل الخيرية مما يدل علىٰ عدم الوجوب، وهو استدلال غير صحيح، فالخيرية قد تكون في أوجب الواجبات كالإيمان بالله.

قال القاضي إسماعيل ابن إسحاق المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٢٨٢هـ)**[2]: «وقد ذكر من يحتج في هذا بأنه غير واجب بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وأنه لما قيل له ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، دلَّ علىٰ الترغيب، فغلط

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان، وصححه ابن كثير (١/ ١٢).

(٢) أحكام القرآن ص ٢٠٨.

غلطًا شديدًا، لأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا نهىٰ عن شيء أو أمر بشيء ففيه الخير للعباد، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٧١]، فيكون هذا خيرًا، فهل يجوز أن يقال فيه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أنه غير واجب؟!

وهذا شيء لا ينبغي أن يُذْهب علىٰ من له علم، لأنه ظاهر كتاب الله، وقول من وصفنا من العلماء، وأنه الحكم الذي لا ينبغي أن يُشْكِل، لأنهم حين أُمروا بالذهاب إلىٰ الجمعة وجب عليهم ألا يفعلوا شيئًا يتشاغلون به عن إدراك الجمعة، وكذلك لو أن رجلًا أخَّر صلاةً من الصلوات بنسيان أو غيره حتىٰ لم يبق من وقتها إلا بمقدار ما يُصلِّيها فيه لوجب عليه ألا يتشاغل عن ذلك بشيء».

وأما قول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «وتفسير لا يعلمه إلا الله»، فقد قال شيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ في بيانه: «مثل العلم بحقائق صفات الله عَزَّوَجَلَّ وكيفيتها، وكذلك العلم بحقائق ما أخبر الله به عن اليوم الآخر، وعن الجنة والنار، وما أشبه ذلك مما لا يمكننا إدراكه، فهذا من ادعىٰ علمه فإنه كاذب لأنه لا يعلمه إلا الله».

وهذا يوجب الكف عن طلب ما لا يعلمه إلا الله، لذلك لما سُئل الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ عن كيفية الاستواء، قال: الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة.

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ: «إن ربنا تعالىٰ أبدىٰ شيئًا وأخفىٰ أشياء، وأن المحفوظين بولاية الإيمان حفظوا ما أبدىٰ وتركوا ما أخفىٰ، وذهب آخرون يطلبون علم ما أخفىٰ فهتكوا فهلكوا، فأداهم الترك لأمره إلىٰ حدود الضلال فكانوا زائغين».

وقال القاسم بن محمد رَحِمَهُٱللَّهُ: «يكفيكم أن تنتهوا إلىٰ ما انتهىٰ الله إليه».

وقال رجل من فقهاء المدينة: «إن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ علم علمًا علَّمه العباد، وعلم

علمًا لم يعلِّمه العباد، فمن يطلب العلم الذي لم يعلمه العباد لم يزدد منه إلا بُعدًا».







١٧ - لا تبخس الآية

أهم معانيها

في تدبرك للقرآن وتبيين معانيه واستنباط فوائده اعتنٍ بأعظم ما في آياته من المعاني والأحكام والدَّلالات والفوائد، وإذا أبرزت تلك المعاني فبقية الفوائد تُذكر تكملة للشرح والبيان.

ومن الهضم لمعاني القرآن؛ أن تُعرض أو تغْفُل عن أهمّ معانيه ثم تطيل البيان في ذكر المعاني البعيدة ، وأعظم من ذلك إذا كان الشرح للآية من حشو الكلام الذي لا فائدة فيه.

والمقصود في تدبّر القرآن: هو فهم معانيه كما أراد الله عَزَّوَجَلَّ، أما الغفلة أو الجهل بأهم معانيه فهذا إعراض عن أهمّ ما أراد الله من عباده فهمه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التَّفكر في القرآن نوعان:

تفكر فيه ليقع علىٰ مراد الربّ تعالىٰ منه، وتفكّر في معاني ما دعا عباده إلىٰ التَّفكُّر فيه.

فالأوَّل تفكر في الدَّليل القرآني، والثَّاني تفكّر في الدَّليل العياني.

الأول تفكر في آياته المسموعة، والثاني تفكر في آياته المشهودة».

وإبراز أهم معاني الآيات هو من إعطاء نصوص القرآن حقّها، وهو من

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٨٧).

أسباب هداية الناس إلىٰ تلك المعاني التي أراد الله أن تكون دين المسلمين وعقيدتهم وهديهم.

مثال (١) قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

والإحسان هو أن يكون عملك حسنًا، وأصل ذلك وأساسه توحيد الله، وبقية الأعمال من لوازمه، وهي من شعبه.

والإحسان نوعان: إحسان في حقّ عبادة الله، وإحسان في حقّ النَّاس.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من فسَّرها بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فلأنَّها أصل الإحسان، وبها تُنال الحسنىٰ.

ومن فسَّرها بالخُلْفِ في الإنفاق فقد هضم المعنىٰ حقّه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخُلْف جزءًا من أجزاء الحسنىٰ».

والزِّيادة هي النَّظر إلىٰ الله تعالىٰ يوم القيامة، فسَّره بذلك النبيُّ ﷺ، رواه مسلم من حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مثال (٢) تفسير ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:٢٦٩] في نصوص القرآن بقصد الدَّعوة علىٰ الرقائق، وهذا هضم لمعنىٰ الحكمة، فأول الحكمة وأساسها توحيد الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٢، ١٣].

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «نبَّه بهذا علىٰ أنَّ الحكمة

---

(١) طريق الهجرتين (ص١٤).

(٢) رموز الكنوز (١/ ٢٥٩).

الأصليَّة توحيد الله سبحانه وتعالىٰ وشكره».

ولقد ضلّ من تواصىٰ بضد الحكمة التي أمر الله بها، ومنع من الدَّعوة للتَّوحيد حتىٰ لا يختلف النَّاس بزعمه، فكأنَّما يزعم أنّه أحكم من «الحكيم» الذي أرسل رسله عليهم الصلاة والسلام بالدَّعوة إلىٰ التَّوحيد، ثم زاد من ضلال فهمه أو مضادته لمعاني القرآن في قَصْر معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] علىٰ المواعظ، وقد بخس هؤلاء القرآن كله معانيه، فإنّ معانيه كلّها في التَّوحيد، وأصل الخير في التَّوحيد، وهو أصل ما تزكو به القلوب.

قال الحافظ عبد الرزاق الرَّسعني: ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ الإسلام[1]، وقال تعالىٰ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «و«المعروف» التَّوحيد، و«المنكر»: الشِّرك».

والتَّوحيد أصل زكاء القلوب والنيَّات والأقوال والأعمال، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلىٰ: ١٤]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «أصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التَّوحيد».

مثال (٣): قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل:٥-٧]، تفسير الإعطاء بالصدقة بالمال فقط هضم لمعنىٰ الآية، فالله

---

(١) رموز الكنوز (١/ ٢٥٩).

(٢) رموز الكنوز (١/ ٢٦٧).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٨).

عَزَّوَجَلَّ حذف معمول «الإعطاء» لإفادة العموم، فلا تبخس هذا العموم المقصود بتخصيصه بالصدقة بالمال فقط.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أي: أعطىٰ ما أُمر به، وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان، والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه، وبدنه، ونيَّته، وقَصْدِه، فتكون نفسه نفسًا مطيعةً باذلةً، لا لئيمة مانعة.

فالنَّفْسُ المُعْطِيةُ هي النفَّاعة المحسنة، التي طَبْعُها الإحسان، وإعطاء الخير اللَّازم والمتعدِّي، فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزل «العَين» التي ينتفع النَّاس بشُرْبهم منها، وسقي دوابِّهم وأنعامهم وزروعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسَّرة لذلك، وهكذا الرَّجل المبارك ميسَّرٌ للنَّفع حيث حَلَّ، فجزاء هذا أن ييسِّره لليُسرىٰ كما كانت نفسه ميسَّرةً للعطاء».

واليسرىٰ التي يجعلها الله للمعطي من معانيها تيسير عمل الخير عليه، وتيسير عوده لأعمال الخير، وهي عامة لكل يسر في أموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «حقيقة (اليسرىٰ) أنَّها الخَلَّةُ والحالة السَّهْلَةُ النَّافعة الواقعة له، وهي ضِدُّ العُسْرَىٰ، وذلك يتضمَّن تيسيره للخير وأسبابه، فيُجْرِي الخير ويُيَسِّرُه علىٰ قلبه، ونيَّته، ولسانه، وجوارحه، فتصير خصال الخير وأسبابه ميسَّرةً عليه، مذلَّلةً له، مُنْقَادَةً لا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنَّه مهيأٌ لها، ميسَّرٌ لفعلها، يسلك سُبُلَها ذُلُلًا، وتنقاد له علمًا وعملًا».

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٨٨، ٨٩).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٩٥، ٩٦).



١٨ - تفسير القرآن بالقرآن

القرآن يُبيّن بعضه بعضًا، فما أُجمل في موضع تجده مفصلًا في موضع آخر، وهكذا السنة تبين القرآن، قال أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن الذي إلىٰ علم تأويله للعباد السبيل، أوضحهم حجة فيما تأوّل وفسَّر، مما كان تأويله إلىٰ رسول الله ﷺ دون سائر أمته، من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أحسن طرق التفسير أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر.

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ١٢٧ - ١٢٨، بشرح شيخنا العثيمين.

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**»، يعني السنة، والسنة أيضًا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن، لا أنها تتلىٰ كما يُتلىٰ.

وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة علىٰ ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضوع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلىٰ اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، قال: فضرب رسول الله ﷺ بصدره، وقال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**»، وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد».





١٩ - تحري المنقول عن الصحابة في التفسير

قد كثرت الأهواء والبدع والضلالات في الناس، وتكلم الناس في معاني القرآن بأهوائهم، وخاض في معانيه أهل الجهل، فطلب تفسير الصحابة ضرورة لفهم الآيات فهمًا صحيحًا بعيدًا عن مآخذ الجاهلين والمبتدعين.

قال عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لقيني ناس من أهل العراق فخاصموني في القرآن فشكوت ذلك إلىٰ أبي، فقال الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن القرآن قد قرأه كل قوم فتأولوه علىٰ أهوائهم وأخطأوا مواضعه، فإن رجعوا إليك فخاصمهم بسنن أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فإنهم لا يجحدون أنهما أعلم بالقرآن منهم، فلما رجعوا فخاصمتهم بسنن أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فوالله ما قاموا ولا قعدوا»(١).

وبهذا التأصيل حاج ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الخوارج، حيث قال لهم: أتيتكم من عند أصحاب محمد ﷺ وهم الذين نزل عليهم القرآن، وهم أعلم بتأويله.

وقال الحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٦١هـ)**(٢): «إن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ حضروا التنزيل، وفهموا كلام الرسول ﷺ، واطلعوا علىٰ قرائن القضايا، وما خرج عليه الكلام من الأسباب والمحامل التي لا تُدرك إلا بالحضور، وخصّهم

---

(١) الإبانة (٢/ ٦٢٠).

(٢) إجمال الإصابة في أقوال الصحابة ص ٦٤.

الله تعالىٰ بالفهم الثاقب، وحدّة القرائح، وحسن التصرف، لما جعل الله فيهم من الخشية والزهد والورع، إلىٰ غير ذلك من المناقب الجليلة، فهم أعرف بالتأويل، وأعلم بالمقاصد».

ونحن مأمورون باتباع الصحابة لأنهم حملة الشرع ونقلته إلينا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٥١هـ)**[١]: «إن الله أثنىٰ علىٰ من اتبعهم، فإذا قالوا قولًا فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم، فيجب أن يكون محمودًا علىٰ ذلك، وأن يستحق الرضوان».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا».

فإذا لم تجد تفسير الآية من القرآن والسنة فابحث عن تفسير الصحابة، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلىٰ أقوال الصحابة، فإنهم أدرىٰ بذلك لما شهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٢٣ - ١٢٤).

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨، ط - مكتبة دار الحياة.

علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا منزلة تفسير الصحابة[1]: «لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم، وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن تفسيرهم في حكم المرفوع، قال أبو عبد الله الحاكم في مستدركه: وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع، ومراده أنه في حكمه في الاستدلال به والاحتجاج، لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولًا فلنا أن نقول هذا القول قول رسول الله ﷺ، أو قال رسول الله ﷺ، وله وجه آخر وهو أن يكون في حكم المرفوع، بمعنىٰ أن النبي ﷺ بيّن لهم معاني القرآن وفسّره لهم كما وصفه تعالىٰ بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيّن لهم القرآن بيانًا شافيًا كافيًا، وكان إذا أشكل علىٰ أحد منهم معنًىٰ سأله عنه فأوضحه له، كما سأله الصّدّيق عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]،، فبيّن له المراد، وكما سأله الصحابة عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فبيّن لهم معناها، وكما سألته أم سلمة عن قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، فبيّن لها أنه العرض، وكما سأله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الكلالة فأحاله علىٰ آية الصيف التي في آخر السورة، وهذا كثير جدًا، فإذا نقلوا لنا تفسير القرآن فتارة ينقلونه عنه بلفظه، وتارة بمعناه، فيكون ما فسروه بألفاظهم من باب الرواية بالمعنىٰ، كما يروون عنه السنة تارةً بلفظها، وتارة بمعناها، وهذا أحسن الوجهين، والله أعلم».



(١) إعلام الموقعين ص ٨٦٥ – ٨٦٦.



٢٠ - التجرد من الهوى عند تدبّر القرآن

أقبل علىٰ القرآن إقبال متجرد من الهوىٰ، إقبال من يتدين بحقائقه، فتكون عقيدتك هي القرآن، ولا تسلط هواك علىٰ آيات القرآن فتتأول نصوص القرآن التي تخالف هواك، فتقع في تحريف القرآن وانتحال البدع.

قال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يقرأ القرآن رجلان: فرجل له فيه هوىٰ ونية، يفليه فلي الرأس، يلتمس أن يجد فيه أمرًا يخرج به علىٰ الناس أولئك شرار أمتهم، أولئك يعمي الله عليهم سبل الهدىٰ، ورجل يقرؤه ليس فيه هوىٰ ولا نية يفليه فلي الرأس فما تبين له منه عمل به، وما اشتبه عليه وكله إلىٰ الله، ليتفقهن فيه فقهًا ما فقهه قوم قط، حتىٰ لو أن أحدهم مكث عشرين سنة، فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه، أو يفهمه إياها من قبل نفسه»(١).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولذلك سُمي أهل البدع: أهل الأهواء، لأنهم اتّبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها، حتىٰ يصدروا عنها، بل قدَّموا أهواءهم واعتمدوا علىٰ آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٣٩٤ - ٣٩٥).

فالمبتدع مستوفز لاقتناص آي القرآن لنصرة بدعه، قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المبتدع ليس له قصد إلا تعريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد، بحيث أنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعًا له فيه أدنى مجال سارع إليه».

وكذلك الكفار مستوفزون لاقتناص الآيات لنصرة أديانهم المبدّلة المحرّفة، فإنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]، قال أهل الكتاب للمسلمين: نحن وأنتم سواء، فنزل قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، إخراج لأهل الكتاب عن تناول الآية لهم، لكفرهم بما لا يتم الإيمان إلا به»[٢].



(١) الإتقان (٢/ ٤٢٠).

(٢) رموز الكنوز (١/ ٦٣٤).



٢١ - اجعل معاني القرآن مكان الخواطر من القلب

من يريد الحياة لقلبه والاستنارة لعقله، والرشد في معتقده، والهداية في دينه ودنياه، فليجعل صولة قلبه تحت سلطان القرآن، فمتىٰ حصل له ذلك كان ذهنه أبدًا حاضرًا في تدبر معاني القرآن وطلب الهداية منه، يزداد في فهم معانيه في كل لحظة ووقت من أيام دهره.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأس مال الأمر في ذلك وعموده في ذلك إنما هو: دوام التفكر، وتدبر آيات القرآن، بحيث يستولي علىٰ الفكر، ويشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وهي الغالبة عليه، بحيث يصير إليها مفزعه وملجؤه، تمكن حينئذ الإيمان من قلبه، وجلس علىٰ كرسيه، وصار له التصرف، وصار هو الآمر المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يباري الريح: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] ».





٢٢- المنهجية في قراءة كتب التفسير

نصح طالب العلم بقراءة المختصرات في تفسير القرآن، فالمبتدئ لا يمكنه أن يهجم أولًا علىٰ المطولات فهذا يُوعّر عليه الطريق، ويطول عليه الوقت ولم يستظهر بعد معاني عامة كتاب الله، كما أن المبتدئ علومه لا تسعفه في فهم دقائق كتب المطولات.

قال العلامة ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالواجب علىٰ من طلب العلم النافع أن يحفظ كتاب الله ويتدبره، وكذلك من السنة ما تيسر له، ويطّلع منها ويتروىٰ، ويأخذ معه من اللغة والنحو ما يصلح به كلامه، ويستعين به علىٰ فهم الكتاب والسنة، وكلام السلف الصالح في معانيها، ثم ينظر في كلام عامة العلماء الصحابة، ثم من بعدهم ما تيسر له من ذلك من غير تخصيص».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أما العلم النافع؛ فهو العلم المُزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين، وهو ما جاء به الرسول الله ﷺ من حديث وتفسير وفقه، وما يعين علىٰ ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال.

---

(١) الاتباع ص ٣٣.

(٢) بهجة قلوب الأبرار ص ٤٤ – ٤٥.

والحالة التقريبية أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه، فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظًا؛ فليكرره كثيرًا متدبرًا لمعانيه، حتىٰ ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامة في معرفتها؛ هانت عليه كتب الفن كلها: صغارها وكبارها، ومن ضيع الأصول حُرم الوصول.

فمن حرص علىٰ هذا الذي ذكرناه، واستعان بالله، أعانه الله، وبارك في علمه وطريقه الذي سلكه.

ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة؛ فاتت عليه الأوقات، ولم يدرك إلا العناء كما هو معروف بالتجربة، والواقع يشهد به، فإن يسر الله له معلمًا يُحسن طريقة التعليم ومسالك التفهيم؛ تم له السبب الموصل إلىٰ العلم».





٢٣ - بذل الجهد في تحصيل التفسير

الرغبة في الشيء سبب لتحصيله، فمعرفة التفسير لا تأتي إلا بتحصيله بمجالسة العلماء ومشافهتهم وسؤالهم، وبقراءة كتب التفسير.

فابذل الجهد في فهم معاني كتاب الله كما فعل الصحابة والتابعون وأئمة الهدىٰ.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «والذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[١].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن عثمان بن عفان وابن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتىٰ يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قال: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا».

وقال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لو أعيتني آية من كتاب الله ولم أجد أحدًا يفتحها عليَّ إلا ببرك الغماد - باليمن - لرحلت إليه».

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عرضت المصحف علىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث عرضات، من فاتحته إلىٰ خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها».

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وقال أبو حامد الإسفراييني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو رحل رجل إلىٰ الصين حتىٰ يُحصل له كتاب (التفسير) لمحمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا».

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يطالع أكثر من مائة تفسير لضرورة التحقق من العلم.

فأقبل علىٰ تدبر كتاب الله فإنه أعظم ما تُعمر فيه الأوقات.





٢٤ - تفسير بلا تكلف

المطّلِع علىٰ كتب التفسير يجد أنواعًا من التكلّف في ذكر أمور لا تعلق لها بمعاني الآيات، وفي بعضها تناسب متكلف غير مرضي عند أهل العلم، فالخوض في معاني الآيات بهذه الصورة المتكلفة غير محمود.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٩٠هـ)**[١]: «إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يخوضوا في هذه الأشياء التي ليس تحتها عمل، مع أنهم كانوا أعلم بمعنىٰ العلم المطلوب؛ بل قد عدّ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذلك في نحو: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، من التكلف الذي نُهي عنه، وتأديبه صبيغًا ظاهر فيما نحن فيه، مع أنه لم يُنكر عليه، ولم يفعلوا ذلك إلا لأن رسول الله ﷺ لم يخض في شيء من ذلك، ولو كان لنُقل، لكنه لم يُنقل فدلّ علىٰ عدمه».

وقال[٢]: «إن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلومًا، فالزيادة علىٰ ذلك تكلف، ويتبين ذلك في مسألة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وذلك أنه لما قرأ ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، توقف في معنىٰ الأبّ، وهو معنىٰ إفرادي لا يقدح عدم العلم به في علم المعنىٰ التركيبي في الآية؛ إذ هو مفهوم من حيث أخبر الله تعالىٰ في شأن طعام الإنسان أنه أنزل من السماء ماء فأخرج به أصنافًا كثيرة مما هو من طعام الإنسان مباشرة، كالحب، والعنب، والزيتون،

(١) الموافقات (١/ ٥٢).

(٢) الموافقات (١/ ٥٣ - ٥٤).

والنخل، ومما هو من طعامه بواسطة مما هو مرعىٰ للأنعام علىٰ الجملة، فبقي التفصيل في كل فرد من تلك الأفراد فضلًا؛ فلا علىٰ الإنسان أن لا يعرفه، فمن هذا الوجه - والله أعلم - عدّ البحث عن معنىٰ الأبّ من التكلف؛ وإلا فلو توقف علىٰ فهم المعنىٰ التركيبي من جهته لما كان من التكلف، بل من المطلوب علمه، لقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [صٓ: ٢٩]».

ومن أكثر ما وقع فيه التكلف في هذا العصر الاحتجاج بآيات القرآن علىٰ حقائق ونظريات الطبيعة، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فقد تكلف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج علىٰ صحة الأخذ في علومهم بآيات من القرآن، وأحاديث عن النبي ﷺ».

وأقبح من ذلك وأخطر صياغة أدلة الشريعة وفق منطق الفلاسفة كما فعل الغزالي، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، لا يدخل فيه من وجوه الاعتبار علوم الفلسفة التي لا عهد للعرب بها، ولا يليق بالأميين الذين بعث فيهم النبي الأمي ﷺ بملة سهلة سمحة؛ والفلسفة - علىٰ فرض أنها جائزة الطلب - صعبة المأخذ، وعرة المسلك، بعيدة الملتمس، لا يليق الخطاب بتعلمها كي تُتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، فكيف وهي مذمومة علىٰ ألسنة أهل الشريعة، منبّه علىٰ ذمها».

والفلاسفة عباد كواكب، قال العلامة عبد القادر بن بدران الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن أين لعباد الكواكب أن يهدونا وما كانوا مهتدين».

---

(١) الموافقات (١/ ٥٤).

(٢) الموافقات (١/ ٥٥ - ٥٦).



٢٥- لا تفنى بإقامة الحروف عن فهم المعنى

بعض الناس شديد العناية بإقامة حروف القرآن وإتقان مخارجه وتجويده، معرض عن تدبر ما يتلوه، فهذا حرم نفسه من تدبر القرآن الذي هو المقصود الأعظم لنزول القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٢٨هـ) في شأن هؤلاء والتحذير منهم**(١): «ولا يجعل همته فيما حُجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك. فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه».

وقال العلامة محمد جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم عن آياتها معرضون؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها إلىٰ أرض ضعتها، كما يصير الماء في شجرة الحنظل مُرًّا. فيقصدها هذا للنغمات، وذلك لقصة بسيطة، وآخر تسلية وتضييعًا للزمن، وآخر يقف عند الألفاظ وإعرابها وصرفها وبلاغتها، ولكن هذا أرقىٰ مما قبله، فقد سار في الطريق وهي الألفاظ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٥٠ - ٥١).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٣٦٣٠ - ٣٦٣١).

إلا إذا أعدَّ تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه!».







٢٦ - احذر القواعد الباطلة

كثير من الخلل الذي دخل في تفسير القرآن والسنة سببه تأصيلات باطلة وقواعد بدعية، وصار أهلها بسبب ذلك يُحرّفون معاني القرآن والسُّنَّة ويتأولونها لتتوافق وقواعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٢٨هـ)**[١]: «إنه ما زال في الأمة قديمًا وحديثًا من يظهر له من آية أو حديث معنىٰ، ويعتقد أن ذلك المعنىٰ باطل، إما لمعارضته لما يرىٰ أنه علمه، أو لمجرد عقله للأمور الموجودة، أو لما يرىٰ أنه علمه لما عقله من كتاب الله، فيحتاج عند ذلك إمّا إلىٰ ردّ الخبر، وإما إلىٰ تأويله».

فالقواعد لا نغلو في إثباتها وإن كانت حقًا، ولا ننفيها، بل إن معرفتها من أسباب تقريب العلم وضبطه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وإذا كان أهل المذاهب جعلوا لهم قواعد يضبطون بها ما يحلُّ ويحرمُ، فالله ورسوله أقدر علىٰ ذلك، وقد قال النبي ﷺ: «**بُعثت بجوامع الكلم**»، فهو يأتي بالكلمة الجامعة، وهي قاعدة عامة وقضية كلية تجمع أنواعًا وأشخاصًا، كقوله لما سُئل عن أنواع الأشربة كالبتع والمِزْر، وكان قد أوتي جوامع الكلم، فقال: «**كل مسكر حرام**».

والكتاب والسنة مليئان من هذا، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتوىٰ الحموية ص ٥٦.

(٢) جامع المسائل المجموعة الثانية ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم: ٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، إلىٰ غير ذلك من النصوص».

فالواجب التمييز بين القواعد الصحيحة فيبنىٰ عليها العلم، والقواعد الباطلة فترد ويلتفت عنها.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وكثيرًا ما تجد في علم الكلام الذي يسمونه «أصول الدِّين»، قاعدة قد تقررت بينهم واشتهرت، وتلقنها الآخر من الأول، وخطوها جسرًا يدفعون بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فإذا كشفت عنها وجدتها في الأصل كلمةً قالها بعض حكماء الكلام زاعمًا أنه يقتضي ذلك العقل ويستحسنه، وليس إلا مجرد الدعوىٰ علىٰ العقل، وهو عنه بريء، فإنه لم يقض بذلك العقل الذي خلقه الله في عباده، بل قضىٰ به عقل قد تدنَّس بالبدع وتكدَّر بالتعصب، وابتلي بالجهل بما جاء به الشرع، وجاء بعده من هو أشد بلاءً منه، وأسخف عقلًا وأقل علمًا، وأبعد عن الشرع، فجعل ذلك قاعدة عقلية ضرورية، فدفع بها جميع ما جاء عن الشارع، عرف هذا من عرفه وجهله من جهله».

فالحاصل أنه لا ينبغي لك التسليم لقبول كل تأصيل لمجرد أنه يُسمىٰ «قاعدة»، بل واجبك التمييز بين القواعد الصحيحة والقواعد الباطلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لمّا وقع في بعض القواعد اللفظية والعقلية نوع توسع - إما في التعبير وإما في الفهم - اقتضىٰ ذلك خللًا إذا بنىٰ

---

(١) أدب الطلب ص ٨٧.

(٢) جامع المسائل المجموعة الثالثة ص ٣١٩.

علىٰ تلك القواعد المحتاجة إلىٰ تتميم، فإذا كان للإنسان فهم صحيح ردَّ الأشياء إلىٰ أصولها، وقرَّر النظر علىٰ معقولها، وبيَّن حكم تلك القواعد وما وقع فيها من تجوُّز أو توسُّع».

وحسبي هنا أن أحذِّر من إحدىٰ القواعد الكلية البدعية التي هي في حقيقتها من التقدم بين يدي الله ورسوله، قال الرازي(١): «الاستدلالات بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلي، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه!!».

وهذا التقديم العقلي ضلال، فالشرع حاكم والعقل محكوم، والعقل قد شهد بصحة الشرع وأنه أعلم منه، والمعلوم أن العقل الصريح يوافق الشرع لا يخالفه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «التعارض لا يقع إلا إذا كان ما سُمي معقولًا فاسدًا، وهذا هو الغالب علىٰ كلام أهل البدع، أو أن يكون ما أضيف إلىٰ الشرع ليس منه: إما حديث موضوع وإما فهم فاسد من نص لا يدل عليه وإما نقل إجماع باطل».

علىٰ كل حال قصدنا بهذا المثال التحذير من القواعد الباطلة، وهي ولله الحمد لا تروج إلا علىٰ الجهال، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «فأما أن يثبت أصلًا يجعله قاعدة بمجرد رأي، فهذا إنما ينفق علىٰ الجهال بالدلائل، الأغشام في المسائل».

❁ ❁ ❁

(١) المطالب العالية بواسطة مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ١٣٩).

(٢) منهاج السنة (٥/ ١٤٢).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٣٩٠).



٢٧- لا تحقر نفسك

لأنك إن اعتقدت النقص من نفسك قُطعت عن كل خير، لذلك قد يُدرك المفضول بعض ما فات الفاضل من أسرار القرآن.

قال عكرمة: قرأ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذه الآية ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فقال: لا أدري أنجا القوم أم هلكوا؟ قال عكرمة: فما زلت أُبيّن له أُبصرُه حتىٰ عرف أنهم قد نجوا، قال: فكساني حُلّةً.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلًا يقول: أيّ أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: ما ندري. قال: والله أنا أدري. قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسىٰ حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله. قال تعالىٰ عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٠].

وسمع أعرابي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرأ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فقال: والله ما أنقذهم منها، وهو يريد أن يوقعهم فيها، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: خذوه من غير فقيه(١).

---

(١) رموز الكنوز (١/ ٢٥٨).



٢٨- لا تكابد العلم

الإنسان لا يولد عالمًا قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ولا بد أن يكون واضحًا في منهجية طالب العلم أنه لا يكون عالمًا بين عشية وضحاها، قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن كان الرجل ليختلف إلىٰ الرجل ثلاثين عامًا يتعلم منه».

وانظر إلىٰ القرآن نفسه كيف أنزله الله علىٰ رسوله في ثلاث وعشرين سنة، ولو شاء الله لأنزله مرة واحدة أو في عام، قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ١٣٧٦هـ)**[٢]: «أي: وأنزلنا هذا القرآن مفَرَّقًا فارقًا بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل، لتقرأه علىٰ الناس علىٰ مكث، أي: علىٰ مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه، و«نزلناه تنزيلا» أي: شيئًا فشيئًا مفرّقًا في ثلاث وعشرين سنة».

وهكذا تلقىٰ الصحابة معاني القرآن علىٰ مهل، قال أبوعبدالرحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلىٰ العشر الأخر حتىٰ يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٣٨.

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٩).

وسيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شُرب الماء لا يجاوز تراقيهم».

وهذه منهجية لابد أن يرتسمها طالب العلم في طلب أنواع العلوم كلها، قال عمر بن عبد الواحد صاحب الأوزاعي: عرضنا علىٰ مالك «الموطأ» في أربعين يومًا، فقال: «كتاب ألّفته في أربعين سنة، أخذتموه في أربعين يومًا، قلما تفقهون فيه»(١).

وقال الزهري ليونس بن يزيد: يا يونس! لا تكابد العلم، فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام(٢).



(١) التمهيد (١/ ٧٧).

(٢) الإلماع للقاضي عياض (٢٢٠).



٢٩ - التفسير لا يدرك بالنظرة العجلى

لا تسارقك النظرة العجلىٰ للآية لتقرير معناها، فتثبّت واطلب المعنىٰ الصحيح للآية من خلال معرفة كل ما يعين علىٰ أسباب تحقيق معناها من أسباب النزول، وتفسير الصحابة، واستعمال اللفظ في المعنىٰ الذي أراده الله.

قال العلامة محمود الطناحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن بعض خطباء الجمعة في زمننا، وكذلك بعض المتحدثين في إذاعة القرآن الكريم يتساهلون كثيرًا، ويجترئون علىٰ تفسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ بما تمليه عليهم النظرة العجلىٰ».

مثال: قال جبير بن نفير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ وإني لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فأقبلوا عليَّ بلسان واحد، وقالوا: أتنزع آية من القرآن لا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها؟

حتىٰ تمنيت أني لم أكن تكلَّمتُ، ثم أقبلوا يتحدثونه، فلما حضر قيامهم، قالوا: إنك غلام حدَثُ السن، وإنك نزعت بآية لا تدري ما هي، وعسىٰ أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شُحًا مطاعًا، وهوىٰ متبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرُّك من ضلَّ إذا اهتديت.

ومن التفسير بالنظرة العجلىٰ ما ذكره أحد الوعاظ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا

ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧]، حيث قال إن شرط التوبة المبادرة إليها بعد الذنب مباشرة لهذه الآية!! وهذا خطأ، صحيح المبادرة أوجب للسلامة من تبعة الذنب، إلا أن وقت التوبة باق ما لم تغرغر روح العبد، أو تطلع الشمس من مغربها.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **في قوله:** ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾: ما بينه وبين أن ينظر إلىٰ ملك الموت[1].

وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب[2].

وقال الحسن البصري: ما لم يُغرغر[3].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «إن من تاب وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة منه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾. فأما متىٰ وقع الإياس من الحياة، عاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]».

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

مثال (٣): قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[الشورىٰ:٢٣]، قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحضرة ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: قربىٰ آل محمد ﷺ؛ فقال له ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: عَجِلْتَ! إنَّ النَّبي ﷺ لم تكن بطن من قريش إلَّا كان له فيهم قرابَة. فقال: إلَّا أنْ تَصلُوا ما بيني وبينكم من القرابة. رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا كان من كبار أهل البيت وأعلمهم بتفسير القرآن، وهذا تفسيره الثابت عنه. ويدل علىٰ ذلك أنه لم يقل: إلا المودة لذوي القربىٰ. ولكن قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾، ألا ترىٰ أنه لما أراد ذوي قرباه قال: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]، ولا يقال: المودة في ذوي القربىٰ. وإنما يقال: المودة لذوي القربىٰ. فكيف وقد قال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾؟!

ويبيِّن ذلك أن الرسول ﷺ لا يسأل أجرًا أصلًا، إنما أجره علىٰ الله، وعلىٰ المسلمين موالاة أهل البيت، لكن بأدلَّة أخرىٰ غير هذه الآية».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وقد ذكر طائفة من المصنفين من أهل السنَّة والجماعة والشيعة، من أصحاب أحمد وغيرهم، حديثًا عن النبي ﷺ؛ أن هذه الآية لما نزلت قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: علي وفاطمة وابناهما رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ. وهذا كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث.

ومما يبيِّن ذلك أن هذه الآية نزلت بمكة باتفاق أهل العلم؛ فإن سورة الشورىٰ جميعها مكية، بل جميع آل «حم» كلهن مكيات، وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ لم

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٥/ ٤٩٤).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٥/ ٤٩٥).

يتزوج فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلا بالمدينة كما تقدَّم، ولم يولد له الحسن والحسين إلا في السنة الثالثة والرابعة من الهجرة، فكيف يمكن أنها لمَّا نزلت بمكة قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: علي وفاطمة وابناهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟!!».







٣٠- التفسير التفصيلي بعد التدبّر الإجمالي

يحسن بطالب العلم أن يتدبّر معنىٰ الآية أولًا بصفة إجمالية، وذلك من خلال معرفة مفردات ألفاظها، ومعنىٰ مجموع الآية بصفة مجملة في ضوء سياق الآيات في وحدتها الموضوعية.

ثم بعد ذلك يعيد النظر والتأمل والتدبّر لمعنىٰ الآية بصفة تفصيلية، فيسبر غورها، ويستنبط معانيها بكل ما تدل عليه الآية، متلمحًا دقيق الفوائد فضلًا عن جليلها، ويستخرج كنوزها، وما اشتملت عليه من أنواع الأحكام والتقريرات العقدية والإرشادات السلوكية.

وهذا المنهج ضرورة، وانظر مثلًا إلىٰ فاتحة الكتاب فهي أم القرآن، ومعاني القرآن كلها ترجع إليها.

وكذلك ذكر الله أم الكتاب من الآيات البينات الواضحات التي يُرد إليها فهم متشابه القرآن، كل ذلك دال علىٰ ضرورة تطلب المعاني الكلية أولًا ثم استخراج ما يتفرع منها من دقيق المعاني.

قال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٠٨هـ)[١]: «سورة أم القرآن قد ذكر الناس كيفية تضمنها مجملًا لما تفصل في الكتاب العزيز

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص ٨٣.

بجملته، وهو أوضح وجه في تقدمها سوره المكرمة».

وهذه طريقة القرآن في عموم سوره، وكثير من آياته ذات الوحدة الموضوعية الواحدة، يأتي مجملًا في تقرير المعاني ثم يأخذ في تفصيل تلك المعاني تفصيلًا يزيد المعنىٰ وضوحًا وتقريرًا، وتتميمًا لكل ما أُجمل في المعاني العامة.

وفائدة ذلك التوطئة لإدراك المعاني المفصلة، لأنها ربما لو وردت من أول سياق لها مفصّلة من غير بيان إجمالي لها، قد يفوت علىٰ الخلق إدراك أكثر المعاني المفصّلة لهجومها عليه دفعة واحدة.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، هذا مجمل، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧]، هذا مفصّل؛ لأنَّ الإجمال ثم التَّفصيل فيه فائدة؛ فإنَّ النَّفس إذا جاء المجمل تترقَّب، وتتشوَّف للتَّفصيل والبيان، فإذا جاء التَّفصيل ورد علىٰ نفس مستعدّة لقبوله متشوّفة إليه».



(١) تفسير سورة الفاتحة، المطبوع مع جزء عم (ص٢٣).



٣١- القرآن سورة واحدة

آيات القرآن كلها متفقة المعاني، لذلك قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن السورة كالقصة الواحدة».

وما يذكره العلماء من أسباب النزول وبيان مفردات الآيات لا يريدون به فهم الآية مجردة عن سياقها وعن ضمها إلىٰ مجموع آي وسور القرآن.

قال العلامة محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عجيب شأن رواة أسباب النزول أنهم يمزقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهي، ويجعلون القرآن عضين متفرقة، بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها من بعض، وبما يفصلون بين الجمل الموثقة في الآية الواحدة، فيجعلون لكل جملة سببًا مستقلًا كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سببًا مستقلًا».

وفي الحقيقة أن المفسرين قصدوا تيسير وتقريب التفسير للناس بتفسيره جملة جملة، والخطأ إنما من بعض القراء الذي استقل بفهم الآيات مقطوعة عن سياقها، وعن معنىٰ القرآن العام.

فالقرآن باعتبار وحدة معانيه ومقاصده سورة واحدة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهىٰ إلىٰ هاتين الكلمتين:

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٦٦)، ط - دار الحديث - القاهرة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وعليهما مدار العبودية والتوحيد.

حتىٰ قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، ومع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني المفصّل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾».

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «معلوم أنّ نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله، وإلا فتدبّر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبَّر لما تدبر».



(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٦/ ٢٨١).



٣٢- التحقق بمقاصد القرآن

حاول ضبط معاني القرآن الكلية من خلال فهم معاني القرآن مجموعًا كأنه سورة واحدة، فإن من استقرأ كتاب الله بعلم قطع بمعرفة معاني الشرع الكلية. وهذا نافع جدًا في تحرير المشتبه من الآيات، وفي الترجيح بمقاصد الشرع في بعض الأحكام، وفي ذكر شواهد الأدلة كلها وتعاضدها لآحاد المسائل.

ومن خلال استقراء معاني القرآن الكلية ترىٰ تشابه أحكامه كلها، وجريان آحادها وفق مقاصد الشريعة بحيث تتعاضد آحاد الأحكام وتأتلف وتتوافق علىٰ المقاصد الكلية للشريعة.

قال الوالد العلامة صالح الفوزان حفظه الله[1]: «التوحيد هو الأصل الذي بُنيت عليه الملة الحنيفية، فالاهتمام به اهتمام بالأصل، وإذا تدبَّرنا القرآن الكريم وجدنا أنه بيَّن التوحيد بيانًا كاملًا، حتىٰ إنه لا تخلو سورة من سور القرآن إلا وفيها تناول التوحيد، وبيان له ونهي عن ضده.

وقد قرَّر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القرآن كله في التوحيد، لأنه إما إخبارٌ عن الله وأسمائه وصفاته، وهذا التوحيد العلمي الذي هو توحيد الربوبية.

وإما أمر بعبادة الله وحده لا شريك له ونهي عن الشرك، وهذا هو التوحيد العملي الطلبي وهو توحيد الألوهية، وإما أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ونهي عن

---

(١) دروس من القرآن الكريم ص ٥ – ٦.

معصية الله ومعصية رسوله ﷺ، وهذا من حقوق التوحيد ومكملاته».

وقال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٦٦٠هـ)**[1]: «ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها نص ولا إجماع ولا قياس خاص، فإن فَهْمَ نفس الشرع يوجب ذلك.

ومَثَلُ ذلك أن من عاشر إنسانًا من الفضلاء الحكماء العقلاء، وفهم ما يؤثره ويكرهه في كل وِرْدٍ وصَدْرٍ، ثم سنحت له مصلحة أو مفسدة، لم يعْرف قوله فيها، فإنه يَعْرفُ بمجموع ما عهده من طريقته وأَلِفَهُ من عادته أنه يُؤْثر تلك المصلحة، ويكره تلك المفسدة. ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسُّنَّة لعلمنا أن الله أمر بكل خير، دِقِّهِ وجِلِّه، وزجر عن كل شر، دِقِّهِ وجِلِّهِ، فإن الخير يُعبَّر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يُعبَّر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وهذا ظاهر في الخير الخالص والشر المحض، وإنما الإشكال إذا لم نفهم خيْر الخيرين وشر الشرين، أولم نعرف ترجُّح المصلحة علىٰ المفسدة، أو ترجُّح المفسدة علىٰ المصلحة، أو جهلنا المصلحة والمفسدة. ومن المصالح والمفاسد ما لا يعرفُه إلا كل ذي فهم سليم وطبْع مستقيم، يعرف بهما دِقَّ المصالح والمفاسد وجِلَّهما، وراجحهما من مرجوحهما، ويتفاوت الناس في ذلك علىٰ قدر تفاوتهم فيما ذكرته».

---

(١) قواعد الأحكام (٢/ ٣١٤ - ٣١٥).

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن القرآن أنزله الله تعالىٰ كتابًا لصلاح أمر الناس كافة رحمةً لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فكان المقصد الأعلىٰ منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولًا من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد علىٰ ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض علىٰ وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوىٰ النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض علىٰ وجه يحفظ مصالح الجميع، ورَعْيُ المصالح الكلية الإسلامية، وحفظُ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمىٰ هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع. فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلىٰ حفظ مقاصد الدين، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابًا بيِّنًا وتعبَّدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صٓ: ٢٩]».

وقاعدة الشرع فيما يعتبر مصلحة أو مفسدة معلومة باستقراء ما أحله الله، وما

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨ - ٣٩).

حرَّمه، قال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٦٠هـ)[١]: «ومعظم المفاسد والمصالح المعتبرة شرعًا واضحة لائحة لا تخفىٰ علىٰ معظم الخلق. فإن العدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ معلوم حسنه لكل إنسان، وكذلك الفحشاء والمنكر والبغي معلوم قبحه عند كل إنسان. وكذلك تحريم الدماء والأبضاع والأموال والأعراض، لا يخفىٰ علىٰ أحد من أولي الألباب حسن تحريمه وقبح الإقدام عليه.

وإنما طال النزاع وكثر الخلاف فيما خفي من المصالح أو من المفاسد، والناس مختلفون في إدراكهما وفي إدراك راجحهما ومتساويهما علىٰ اختلاف فطنهم وقرائحهم، والله يؤتي فضله من يشاء».

والدُّنيا كلها موضوعة للاستمتاع بنعم الله وشكرها وأداء حقها عبودية الله، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٩٠هـ)[٢]: «لمّا كانت الدنيا مخلوقة ليظهر فيها أثر القبضتين، ومبنية علىٰ بذل النعم للعباد لينالوها ويتمتعوا بها، وليشكروا الله عليها فيجازيهم في الدار الآخرة، حسبما بيّن لنا الكتاب والسنة، اقتضىٰ ذلك أن تكون الشريعة التي عرّفتنا بهذين مبنية علىٰ بيان وجه الشكر في كل نعمة، وبيان وجه الاستمتاع بالنعم المبذولة مطلقًا.

وهذان القصدان أظهر في الشريعة من أن يستدل عليهما، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ

---

(١) قواعد الأحكام (٢/ ١٩٤).

(٢) الموافقات (٢/ ٣٢١).

أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] الآية! والشكر هو صرف ما أُنعم عليك في مرضاة المنعم، وهو معنىٰ قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»».

والمصالح بأنواعها العبادات منها أو المعاملات، الدنيوية والأخروية كلها يرتبط بعضها ببعض، قال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٦٠هـ)(١): «واعلم أن مصالح الآخرة لا تتمُّ إلا بمعظم مصالح الدنيا، كالمآكل والمشارب والملابس والمناكح وكثير من المنافع، فلذلك انقسمت الشريعة إلىٰ العبادات المحضة في جلب المصالح الأخروية، وإلىٰ العبادات المتعلقة بمصالح الدنيا والآخرة، وإلىٰ ما يغلب عليه مصالح الدنيا كالزكوات، وإلىٰ ما يغلب عليه مصالح الأخرىٰ كالصلوات. وكذلك انقسمت المعاملات إلىٰ ما يغلب عليه مصالح الدنيا كالبياعات والإجارات، وإلىٰ ما يغلب عليه مصالح الآخرة كالإجارة بالطاعات علىٰ الطاعات، وإلىٰ ما تجتمع فيه المصلحتان: أما مصالح الأخرىٰ فلباذليه، وأما مصالح الدنيا فلآخذيه وقابليه، وإلىٰ ما يتخير باذلوه بين أن يجعلوه لدنياهم أو أخراهم، أو أن يُشركوا فيه بين دنياهم وأخراهم».



(١) قواعد الأحكام (٢/ ١٣٠).



٣٣- طلب أنواع العلوم اللازمة للتفسير

القرآن هو مشكاة العلوم كلها، وأساسها، فكل علم شرعي فإنما يستمد حقيقته من القرآن، والسُّنَّة بيان للقرآن.

فمن أجل هذا ينبغي لطالب العلم أن يطلب أنواع العلوم التي تمكّنه من التحقق بمعاني القرآن وعلومه، فيدرس علم أصول الفقه، والقواعد الفقهية، والعقيدة، والنحو، والبلاغة، وهكذا...

قال أبو نعيم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٣٠هـ) مبينًا مراتب أنواع العلوم، وما ينبغي أن يقدّم تعلمه منها، فذكر الفقه وأورد عليه ما أورد، ثم قال: «ثم يتلو الفقه من العلوم علم العربية والنحو، لأنه آلة لجميع العلوم، لا يجد أحد منه بُدًّا، ليقيم به تلاوة كتاب الله، ورواية كلام رسول الله ﷺ، لكي لا يخرجه جهل الإعراب إلىٰ إسقاط المعاني»[1].

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فيحتاج الناظر في علم القرآن إلىٰ حفظ الآثار ودرس النحو، وعلم العربية واللغة».

(١) رياضة المتعلمين بواسطة الصعقة الغضبية ص ٢٤١.

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ١٩٨).

وقال العلامة محمد بن علي الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ١٢٥٠هـ)**[١]: «وينبغي أن يُقدَّم علىٰ قراءة التفاسير: الاطلاع علىٰ علوم الأداء وكل ما كان له مدخل في التلاوة، وسائر العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز».

ومتىٰ ما جمع طالب العلم أنواع العلوم، فهم من معاني وبلاغة وأحكام وإعجاز القرآن ما لم يفهمه من لم يجمع تلك العلوم. قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الإنسان إذا ربط العلوم بعضها مع بعض ينتفع، ويكون عنده قدرة علىٰ تأليف الفكر، ولهذا تجد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرن الأشياء التي تظنها بعيدة لكنها قريبة، ويجمعها أصل واحد».



---

(١) أدب الطلب ص ٢٠١.

(٢) تفسير سورة النساء (١/ ٤٩٨).



٣٤- تكرار قراءة الآية والسورة بتدبّر

وهذا واضح بداهة فمن يمر بالآية سريعًا، أو يستنبط فوائد الآية من أول تأمل ليس كمن يكرر النظر بتدبّر.

ولا أدل علىٰ أن تكرار قراءة الآية بتدبر عون علىٰ فهم العلم من أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتكرار النظر والتدبر لآية الكلالة لما سأله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنها.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة، حتىٰ طعن بأصبعه في صدري، وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء» رواه مسلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أرشده النبي ﷺ إلىٰ تفهمها، فإن فيها كفاية».

وقال ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «اعلم أن المتصدي لحل معاني القرآن يحتاج إلىٰ كثرة الدرس، فإنه كلما ديم علىٰ درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل، وهذا شيء جربته وخبرته، فإني كنت آخذ سورة من السور وأتلوها، وكلما مرَّ بي معنىً أثبته في ورقة مفردة، حتىٰ أنتهي إلىٰ آخرها، ثم آخذ في حل تلك المعاني التي أثبتها واحدًا بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتىٰ أعاود تلك السورة،

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ١٢٧).

وأفعل مثل ما فعلته أولًا، وكلما صقلْتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر لي في كل مرة من المعاني ما لم يظهر لي في المرة التي قبلها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والإنسان يقرأ السورة مرات، حتىٰ سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتىٰ كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأ مع الغفلة، ثم كلما فعل شيئًا مما أُمر به، استحضر أنه أُمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلًا عنه وإن لم يكن مكذبًا».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّه بالتدبُّر فيه، والتأمُّل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرَّة بعد مرَّة تُدرك بركته وخيره، وهذا يدلُّ علىٰ الحثّ علىٰ تدبُّر القرآن، وأنَّه من أفضل الأعمال».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «اقرأ القرآن وتدبره، كلما قرأته وتدبَّرته حصل لك من معانيه ما لم يكن يحصل لك من قبل، كل هذا لأنَّه فَصْل وليس بالهزل».



(١) الإيمان ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٤٩٣).

(٣) xxx.

٣٥- اصرف همّتك للعناية بتفسير أئمة الشأن

معاني القرآن أخذها الصَّحابة عن النبي ﷺ، وأعلم الصَّحابة الخلفاء الأربعة بعده، وفضل أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فهمه للقرآن واستنباط معانيه سبق به الصَّحابة، وهذا معلوم من فهمه لمعاني قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر:١-٣]، وكذلك حضور معاني القرآن في قلبه عند وقوع الحوادث فاق به كل الصَّحابة حيث تلا عند وفاة النبي ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وعِلْمُ الفاروقِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه عنه مولاه أسلم الذي أدَّاه إلينا ابنه زيد، وتفسير عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلقاه سادات التَّابعين، قال أبو عبد الرحمن السّلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدّثنا الذين كانوا يُقْرِئوننا القرآن، أنَّهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتىٰ يتعلَّموا ما فيها من العلم والعمل»، وكان ممَّن أقرأهم كما قال: عثمان، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت»، وغيرهم.

وعليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من علماء التَّفسير، وقد تلقَّىٰ عنه معانيه ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما تلقَّاها عن الفاروق أيضًا.

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ولقد علم أصحاب محمد ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله»[١].

وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ترجمان القرآن، وأعلم الناس به مجاهد وعطاء ابن أبي رباح، وعكرمة، وطاووس.

ومن علماء التفسير زيد بن أسلم، وقتادة وأبو العالية، والحسن، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيّب، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين.

قال العلامة محمد بن سليمان الكافيجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن صدر المفسرين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ما أخذت من تفسير القرآن فهو عن علي بن أبي طالب، ويتلوه ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، كفاه فضيلة أن رسول الله ﷺ قال فيه: «**اللهم فقهه في الدين**». وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كأنما ينظر إلىٰ الغيب من وراء ستر رقيق)، ولهذا قالوا: (إن المحفوظ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)، وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: (نعم ترجمان القرآن عبد الله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا)، ويتلوه عبد الله بن مسعود وأبي ابن كعب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو بن العاص، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

ثم إن جماعة من التابعين كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعلقمة تبعوا ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قرأ مجاهد علىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قراءة فهم ووقوف عند كل آية، ويتلوهم عكرمة والضحاك، ثم حمل تفسير كتاب الله العزيز عدول كل

---

(١) متفق عليه.

(٢) التيسير في قواعد علم التفسير ص ٢٤٦ – ٢٥٤.

خلف، وألّف الناس فيه كعبدالرزاق والمفضل، وعلي بن أبي طلحة وغيرهم.

ثم إن محمد بن جرير الطبري جمع علىٰ الناس أشتات التفسير، وقرّب البعيد منها، ومن المبرزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علي الفارسي، وأبو عباس المهدوي، وغيرهم، وكلهم متقن مأجور، جزاهم الله عن أهل العلم خيرًا».

فالمقصود: أن يطلبَ المسلم معاني القرآن ممَّن أخذها مشافهةً عن النبي ﷺ وعمَّن أخذها عنهم من علماء التَّابعين، ويبقىٰ هذا العلم محفوظًا تتوارثه الأمَّة وتؤدِّيه للخلق كافَّة كما تؤدِّي ألفاظ القرآن.





٣٦- التحقق من صحة النقل عن أئمة التفسير

فبعد أن أرشدنا إلىٰ ضرورة العناية بتفسير أئمة الشأن، فهنا لا بد من التنبيه إلىٰ ضرورة تمييز المرويات عنهم، فيُفرّق بين ما يُرویٰ عنهم وما يصح عنهم.

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير».

قال أبو بكر الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٤٦٣ هـ) مبينًا معنىٰ عبارة الإمام أحمد**[(٢)]: «هذا الكلام محمول علىٰ وجه، وهو أن المراد به كتبٌ مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير مُعْتمد عليها، ولا موثوق بصحتها، لسوء أحوال مصنِّفيها، وعدم عدالة ناقليها، وزيادات القُصّاص فيها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «وفي التفسير من الموضوعات قطعة كبيرة مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم.

والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٦٢).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٦٢).

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص٩١، بشرح شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة والموضوعات في كتب التفسير كثيرة».







٣٧- معرفة أسباب النزول

معرفة أسباب النُّزول من العلوم المهمَّة في علم القرآن والحديث؛ لأنَّها تُعين علىٰ فهم النُّصوص، وقد اشتدَّت عناية الصَّحابة والتَّابعين بذلك، فقد قال يهودي للفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نزلت عليكم معشر المسلمين آية لو نزلت علينا لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣]، فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنَّا أعلم أي يوم نزلت، نزلت يوم عرفة في حجَّة الوداع» رواه البخاري.

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما من آية إلَّا وأنا أعلم متىٰ نزلت وفيم أُنزلت»، رواه البخاري.

وقال ثابت البُناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: كنا إذا قعدنا إلىٰ عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال لرجل: أقرأ القرآن، فيقول: نزلت هذه الآية في كذا، وهذه الآية في كذا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»، مع ملاحظة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وأكثر آي القرآن نزلت ابتداءًا، وبعضه له سبب نزول، قال الجعبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نزول القرآن علىٰ قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة، أو سؤال».

وصيغ أسباب النزول نوعان: صريحة، ومحتملة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٣).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقولهم (نزلت هذه الآية في كذا)، فيُراد به تارة أنه سبب النزول، ويُراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب».

ومن فوائد معرفة أسباب النزول:

١- الوقوف علىٰ المعنىٰ.

٢- معرفة الحكمة الباعثة علىٰ تشريع الحكم.

٣- تمييز العام الذي أُريد به الخصوص، والعام المحكم، والعام المخصص.





٣٨- تعدد أسباب النزول

تعدد أسباب النزول كثير في روايات المفسرين، وتتأرجح الأقوال بقبول التعدد أو ردّه حسب القرائن التي غالبها يرجع إلىٰ معنىٰ الآية.

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

فقد قال الحسن وقتادة رحمهما الله: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله هذه الآية.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن الله ذكر آلهة المشركين، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٧٣]، وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أرأيت حيث ذكر الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن علىٰ محمد أي شيء كان يصنع بهذا، فنزلت الآية.

فهنا رجح الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عدم التعدد، حيث قال[1]: «والأرجح نسبة القول لأهل النفاق، لأن كتب أهل الكتاب ممتلئة بضرب الأمثال، فيبعد أن

---

(١) العجاب في بيان الأسباب (١/ ٢٤٧).

ينكروا ما في كتبهم مثله».

وما قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ غير قطعي، فأهل الكتاب أنكروا نبينا ﷺ المبشر في كتبهم بغاية الوضوح، فجدالهم من جملة عنادهم وتكذيبهم للحق.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾ [البقرة: ١١٤]، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «نزلت في النصارىٰ، حملهم بغض اليهود علىٰ أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي علىٰ تخريب بيت المقدس».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هم المشركون حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة، حتىٰ نحر هديه بذي طوىٰ وهادنهم، بعد أن قال لهم: ما أحد يرد أحدًا عن هذا البيت، فقد كان الرجل يلقىٰ قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعدو عليه، قالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق».

ورجح الطبري لمعنىٰ في الآية أن سبب النزول في النصارىٰ، حيث قال: «كان معلومًا أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله ﷺ وأصحابه من الصلاة فيه، صح وثبت أن الذين وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم الله بعمارتها، إذ كان مشركو قريش هم بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارتهم كان

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٢).

افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم علىٰ غير الوجه الذي يرضاه الله منهم»[١].

وقد اعترض علىٰ هذا الترجيح الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٧٤هـ)،[٢] فقال: «الذي يظهر - والله أعلم - القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، لأن النصارىٰ إذا منعت اليهود الصلاة في بيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولًا إذ ذاك، لأنهم لُعنوا من قبل علىٰ لسان داود وعيسىٰ ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وأيضًا فإنه تعالىٰ لما وجّه الذم في حق اليهود والنصارىٰ، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده علىٰ أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم».

وحيث يتعدد سبب النزول ويحتمله عموم الآية، ولا تضاد ولا تعارض بين أسباب النزول، فإن عموم الآية يشمل الجميع، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فقد ذكر أبو أيوب الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنها نزلت فيهم معشر الأنصار، فإنهم قالوا لما أعز الله نبيه، وكثر ناصريه، إن أموالنا قد ضاعت فلو أنا أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فنزلت الآية[٣].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤٤٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٩٢).

(٣) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة البقرة (ص ٦٦٨ - رقم ٢٩٧٢)، وقال: حسن صحيح غريب، وأبو داود كتاب الجهاد باب في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى =

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: نزلت في النفقة[1]، يعني في ترك النفقة في سبيل الله[2].

وقد جمع بين القولين الضحاك رَحِمَهُ اللَّهُ **فقال**[3]: «التهلكة أن يمسك الرجل نفسه وماله عن النفقة في الجهاد في سبيل الله».

وهناك قول ثالث في سبب النزول، فقد قال أبو إسحاق السبيعي رَحِمَهُ اللَّهُ سمعت البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسأله رجل، فقال: يا أبا عمارة، أرأيت قول الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: أهو الرجل يتقدم فيقاتل حتىٰ يُقتل؟ قال: لا، ولكنه يعمل بالمعاصي ثم يُلقي بيده ولا يتوب[4].

وعليه فتكون النفقة في سبيل الله من أسباب تكفير السيئات، وهو لا يتعارض مع الجهاد بالنفس في سبيل الله، فإن تعريض العبد رقبته للقتل في سبيل الله من أعظم أسباب تكفير الذنوب.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ[5]: «فمن ترك إنفاق ما لزمه من ذلك في سبيل الله علىٰ ما لزمه كان للهلكة مستسلمًا، وبيديه للتهلكة مُلقيًا، وكذلك الآيس من رحمة الله لذنب سلف منه ملقٍ بيديه إلىٰ التهلكة، لأن الله قد نهىٰ عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا

=

التهلكة﴾ (ص ٣٦٤ - رقم ـ٥١٢).

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (ص٧٦٧ - رقم ٤٥١٦).

(٢) جامع البيان (٣/ ٣١٣).

(٣) جامع البيان (٣/ ٣١٧).

(٤) جامع البيان (٣/ ٣٢٠).

(٥) جامع البيان (٣/ ٣٢٤ - ٣٢٥).

تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وكذلك التارك غزو المشركين وجهادهم في حال وجوب ذلك عليه في حال حاجة المسلمين إليه، مضيع فرضًا فملق بيده إلىٰ التهلكة، فإذا كانت هذه المعاني كلها يحتملها قوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، ولم يكن الله عَزَّوَجَلَّ خص منها شيئًا دون شيء، فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالىٰ ذكره نهىٰ عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكنا والاستسلام للهلكة وهي العذاب - بترك ما لزمنا من فرائضه، فغير جائز لأحد منا الدخول في شيء يكرهه الله منا مما نستوجب بدخولنا فيه عذابه، غير أن الأمر وإن كان كذلك، فإن الأغلب من تأويل الآية: وأنفقوا أيها المؤمنون في سبيل الله، ولا تتركوا النفقة فيها فتهلكوا باستحقاقكم بترككم ذلك عذابي».

وترجيح الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حسن، ولكن يُعكر عليه اعتراض الصحابة علىٰ حمله علىٰ العموم، فقد قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمُسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلىٰ التهلكة[1].

وكذلك اعترض علىٰ حملها علىٰ العموم الصحابي أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال: «إنكم لتتأولون هذه الآية علىٰ غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار»[2].

فالجواب أن قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقابله اعتراض أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فحمله علىٰ العموم فيه إعمال للقولين النفقة، والجهاد، والحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيّن أن النفقة من الجهاد في سبيل الله، وأن ذم أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُحمل في حق من داوم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٣٣).

(٢) رواه أبو داود (رقم ٢٥١٢).

علىٰ ترك الجهاد وركن للدنيا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «والإخبار عن ترك ذلك بأنه هلاك ودمار إن لزمه واعتاده»، وكذلك يكون هلكة من نكل عن الجهاد إذا تعيّن عليه.



(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٣٤).



٣٩- محاذرة أسباب النزول الضعيفة وطرق معرفتها

ومما ينبغي التنبيه عليه أن أسباب النزول وقع فيها غلط كثير، وهذا الغلط يُعرف تارة من جهة الإسناد، وتارة من جهة المتن، وتارة منهما. مثال: قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

قال ابن زيد: هو عبد الله بن سلام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأين كان عبد الله بن سلام وقت نزول هذه الآية؟! فإن السورة مكية، وابن سلام إذ ذاك علىٰ دين قومه، وكيف يؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد علىٰ منكري نبوتة بأتباعه؟».

وعلىٰ كلٍّ فالمقصود التثبت من أسباب النزول فإن كثيرًا مما يروىٰ في ذلك ضعيف، قال العلامة عبد القادر بن بدران الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ١٣٤٦هـ)[٢]: «وأكثر ما يذكرونه في أسباب النزول متعارض، وضعيف الإسناد، فلا ينبغي أن يقبل منه إلا ما صح، وقد صنّف الواحدي وغيره في ذلك كتبًا لا يعول علىٰ ما ذكروه فيها إلا علىٰ الصحيح منه».

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ١٣).

(٢) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار ص ٣٢٤.



٤٠ – صورة سبب النزول قطعية الدخول

صورة سبب النزول قطعية الدخول في عموم الآية، وهذا واضح لأن الآية إنما نزلت بسببها، وهذا لا يمنع أن يدخل في عموم الآية كل ما شمله عموم النص ما لم يقم دليل يمنع من ذلك.

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فإن دخول صورة السبب قطعي، وإخراجها بالاجتهاد ممنوع، كما حكىٰ الإجماع عليه القاضي أبو بكر في التقريب».

وتجد المفسرين يذكرون هذا الأمر في تنكيتهم علىٰ آيات القرآن، حتىٰ لا يُجرّد اللفظ من آكد معانيه، من ذلك ما جاء في سورة النور من ذكر قصة الإفك، قال تعالىٰ بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام، شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث:

الأولىٰ: أنه آيات مبيّنات: أي واضحات في أنفسهن أو موضحات، فتدخل الآيات المذكورة في هذه الصورة دخولًا أوليًا.

والصفة الثانية: كونه مثلًا من الذين خلوا من قبل هؤلاء: أي مثلًا كائنًا من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم في الكتب

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٦١).

(٢) فتح القدير ص ١٢٢٢ – ١٢٢٣.

السابقة، فإن العجب من قصة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، هو كالعجب من قصة يوسف ومريم وما اتّهما به، ثم تبين بطلانه وبراءتهما سلام الله عليهما.

والصفة الثالثة: كونه موعظة ينتفع بها المتّقون خاصة، فيقتدون بما فيه من الأوامر، وينزجرون عمّا فيه من النواهي».

ومع وضوح هذا التأصيل، إلا أن البعض وقع في أغلاط في بعض معاني الآيات، بسبب غفلته أو تغافله عن هذا الأصل.

مثال: قول البعض: إن أزواجه ﷺ لا يدخلن في أهل بيته في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ثم قال في نفس خطابه لهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، ثم قال بعده: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤] الآية. وقد أجمع جمهور علماء الأصول علىٰ أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، فلا يصح إخراجها بمخصص[(١)].

وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **وهو من سادات آل البيت قال في الآية:** نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

وورَّث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ذلك لتلاميذه، وهو عندهم من العلم المقطوع به، حتىٰ قال مولاه عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ[(٢)].

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٨٤).

(٢) فتح القدير ص ١٤٠٤.



٤١ - لا تفسير بلا سلف

فالتفسير شديد لا بد فيه من الورع التام أن يُقال في كتاب الله بالرأي والأقوال المبتدعة.

قال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا تكلم أحد من المتأخرين في معنىٰ آية من القرآن، قد تقدم كلام المتقدمين فيها فخرج عن قولهم، لم يلتفت إلىٰ قوله».

وبهذا يتبين ضرورة أن يعتني طالب العلم بتفسير الصحابة، ومن أخذ عنهم من التابعين، وكلامهم كله مدون حفظه لنا أئمة التفسير والمصنفات، وساقوه بأسانيده، لكن الشأن في تمييز الصحيح من مروياتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلىٰ ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا».

والتابعون تلقوا جميع معاني القرآن من الصحابة، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عرضت المصحف علىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث عرضات، من فاتحته إلىٰ خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها».

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا».

وهذا كله من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، فمن يعقل القرآن إذا لم يعقله الصحابة؟!

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما التفسير الثابت عن الصحابة والتابعين فذلك إنما قبلوه لأنهم قد علموا أن الصحابة بلّغوا عن النبي ﷺ لفظ القرآن ومعانيه جميعًا، كما ثبت ذلك عنهم، مع أن هذا مما يعلم بالضرورة من عادتهم، فإن الرجل لو صنف كتاب علم في طب وحساب أو غير ذلك وحفظه تلامذته لكان يعلم بالاضطرار أن هممهم تشوق إلىٰ فهم كلامه ومعرفة مراده، وإن مجرد حفظ الحروف لا تكتفي به القلوب، فكيف بكتاب الله الذي أمر ببيانه لهم، وهو عصمتهم، وهداهم، وبه فرَّق الله بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والرشاد والغي، وقد أمرهم بالإيمان بما أخبر به فيه، والعمل بما فيه، وهم يتلقونه شيئًا بعد شيء؟ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وهل يتوهم عاقل أنهم كانوا إنما يأخذون منه مجرد حروفه وهم لا يفقهون ما يتلوه عليهم، ولا ما يقرؤونه، ولا تشتاق نفوسهم إلىٰ فهم هذا القول، لا يسألونه عن ذلك، ولا يبتدئ هو بيانه لهم؟ هذا مما يعلم بطلانه أعظم مما يعلم بطلان كتمانهم ما تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقله».





٤٢ - ضع الآيات مواضعها

من أسباب انحراف أهل البدع في فهم القرآن وضع الآيات في غير مواضعها، وهذا الزلل لما ظهرت أوائله في عهد الصحابة أنكروه، قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]: «إنما هذا القرآن كلام، فضعوه علىٰ مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم».

قال الشاطبي رَحِمَهُٱللَّهُ **شارحًا**[٢]: «أي: فضعوه علىٰ مواضع الكلام، ولا تُخرجوه عن ذلك؛ فإنه خروج عن طريقه المستقيم إلىٰ اتِّباع الهوىٰ».

وقال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **في الخوارج**: «عمدوا إلىٰ آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المسلمين».

وقد استدل بعض الجهال بعدم رفع اليدين في الصلاة بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ[٣]: «هذه الآية إنما نزلت في الجهاد، لا في رفع الأيدي في الصلاة بالكلية، فالتمسك بها في هذا المقام إغراق في النَّزع، وإبعاد في النجعة، فإنها لم تنزل في هذا بالكلية.

ثم هي دالة علىٰ عدم الرفع مطلقًا، في الابتداء وغيره، فإن قال: خرج الابتداء بما ورد فيه من الأحاديث الصحيحة، قلنا: وكذلك يخرج رفع اليدين عند الركوع والرفع منه بما ثبت فيه من الأحاديث الصحيحة».

---

(١) الاعتصام (٢/ ٤١).

(٢) الاعتصام (٢/ ٤١).

(٣) الأحكام الكبير (٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧).

وقال أبو بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها علىٰ غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله** عَزَّوَجَلَّ **أن يُعمَّهم بعقابه**»(١).

وقال أبو العالية: كنا عند عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جلوسًا، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتىٰ قام كل واحد منهما إلىٰ صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟

فقال آخر إلىٰ جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ الآية، قال: فسمعها ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: مَهْ: لم يجئ تأويل هذه بعد، إن القرآن أنزل حيث أُنزل، ومنه آي قد مضىٰ تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة علىٰ ما ذكر من الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب علىٰ ما ذُكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعًا، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل الآية(٢).

وقال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ معيّنًا صواب تفسير أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «ومن التعاون علىٰ البر والتقوىٰ الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥)، وأبو داود (ص ٦٠٩ - رقم ٤٣٣٨)، والترمذي (ص٤٩٨ - رقم ٢١٦٨)، وصححه ابن حبان.

(٢) جامع البيان (٩/ ٤٧).

(٣) جامع البيان (٩/ ٥٤ - ٥٥).

عن المنكر، ولو كان للناس ترك ذلك لم يكن للأمر به معنىٰ إلا في الحال التي رخَّص فيه رسول الله ﷺ، وهي حال العجز عن القيام به بالجوارح الظاهرة، فيكون مرخَّصًا له تركه، إذا قام حينئذ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه».

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، يستعملها المتتبعون للرخص في ركوب المحرمات، قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأرىٰ كثيرًا من الناس يحملون هذا الخبر غير محله، ويتناولونه علىٰ غير جهته، فيرون أن الرخص المذكورة عن أهل العلم داخلة في الخبر وليس كذلك، لأن رسول الله ﷺ أضاف الرخص إلىٰ الله جل وعز فقال: [إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه]، ورخصه غير رخص غيره، إذ لا يمكن إضافتها إليه، إلا ما بيَّن منها في كتابه، أو شهد بها جماعة الأمة عليها، أو أضيف بظاهر خبر الثقات إليه، ورخص العلماء محتاجة إلىٰ حجج تشهد بصحتها، فمن سمىٰ رخص العلماء رخصة فقد افترىٰ علىٰ الله الكذب، وإن أمكن أن تكون في أنفسها حقًا»[1].

وليس معنىٰ أن تكون في أنفسها حقًا هو تحريم الحلال أو تحليل الحرام، هذا غير مراد قطعًا من كلام الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإلا ما أنكره في أول كلامه، ورخص العلماء تكون حقًا بشروطها الشرعية، وقد زجر الصحابة والأخيار عن المغالطة في الرخص حتىٰ لا يركب الناس المحظورات ويضيّعوا المأمورات بالمغالطات، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لو أرخصنا لهم في هذا لأوشك أحدهم إذا وجد البرد أن يتيمم»، فالتيمم رخصة إذا خاف المسلم الضرر، لكن ليس كل برد رخصة.

---

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (٢/ ٥٠٠ - ٥٠١).



٤٣ - آيات القرآن وفقه الواقع

القرآن هدىٰ ونور، يستضيء به المؤمنون في عقائدهم وأخلاقهم ومعاملاتهم، وتتجدد للمؤمنين حوادث يحتاجون معها إلىٰ الرجوع إلىٰ كتاب ربهم ليسلكوا طرق الهداية والسلامة.

وهذا شأن الصحابة والتابعين، وعموم سلف الأمة، جعلوا حياتهم وفق أمر الله وحكمه وشرعه، وتديّنوا بخطاب القرآن لهم، وجعلوا نصوصه عيارًا علىٰ الحق والخلق، واستضاءوا بآياته في النوازل التي عرضت لهم، فسعدوا وسلموا ووُفقوا وهُدوا إلىٰ الأقوم.

والناس في زماننا هذا طرفان ووسط، طرف جاف يفسر معاني القرآن تفسيرًا يتعلق ببيان مفرداته، وتراكيب ألفاظه في جمله، مبرزًا واضح عقائده وأحكامه، معرضًا عن معاني القرآن في تقويم المسلمين في أحوالهم المعاصرة، كأن القرآن أُنزل في قوم قد مضوا، ناسيًا أنه خطاب الله لخلقه إلىٰ يوم الدين.

ويقابله صنف غال في إنزال الآيات في واقعنا علىٰ جهة التكفير للمسلمين وسوء الظن بهم، كسيد قطب في نعته لمجتمعات المسلمين بالجاهلية.

وقد كان سلفنا الصالح يُعملون نصوص القرآن في النوازل التي تنزل فيهم، فهذا الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا رأىٰ يوم الجمل ما رأىٰ، قال: ما علمت أن هذه الآية

نزلت فينا أصحاب رسول الله ﷺ حتىٰ كان هذا اليوم. ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥][١].

ومن أمثلة الوسطية في إنزال الآيات في الواقع إنزالًا صحيحًا يتفق مع الواقع ويتطابق مع دلالات الآيات ما أشار إليه بعض السلف في شأن إسلام سحرة فرعون لما شاهدوا معجزات موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «عجبًا لقوم كافرين سحرة من أشد الناس كفرًا، رسخ الإيمان في قلوبهم حين قالوا ما قالوا، ولم يبالوا بعذاب فرعون، وترىٰ الرجل من هؤلاء يصحب الإيمان ستين سنة، ثم يبيعه بثمن يسير».

ومن تلك التطبيقات الجميلة لآيات القرآن في واقعنا تعليق العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ [الحج: ٤٠]، حيث قال[٣]: «نرىٰ المساجد التي تحت ولايتهم - الكفار - وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولا تهم من الكفار علىٰ هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهُدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعًا؟

أجيب بأن جواب هذا السؤال والاستشكال داخل في عموم الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس

---

(١) تفسير السمعاني (٢/ ٢٥٨).

(٢) تفسير القرآن للسمعاني (٣/ ٣٤٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٢٧ - ٦٢٨.

تحت ولايتها، وداخل في حكمها، تعتبره عضوًا من أعضاء المملكة وجزءًا من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرةً بعددها أو عُددها أو مالها أو علمها أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينيَّة والدنيويَّة، وتخشىٰ إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصًا المساجد، فإنها ولله الحمد في غاية الانتظام، حتىٰ في عواصم الدول الكبار، وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظرًا لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارىٰ، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلىٰ يوم القيامة، فتبقىٰ الحكومة المسلمة التي لا تقدرُ تدافع عن نفسها سالمة من كثير ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمدَّ يده عليها، خوفًا من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالىٰ لا بدَّ أن يُري عباده من نصر الإسلام والمسلمين ما قد وعد به في كتابه، وقد ظهرت ولله الحمد أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلىٰ دينهم، والشعور مبدأ العمل، فنحمده ونسأله أن يُتمَّ نعمته».

ومن التطبيقات الجميلة أيضًا في إنزال آيات القرآن علىٰ واقع المسلمين لإصلاح أحوالهم ما ذكره العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن مشاكل المسلمين في الوقت الحاضر[1]: «المشكلة الأولىٰ: هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعُدد عن مقاومة الكفار، وقد هدىٰ القرآن العظيم إلىٰ حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها: فبين أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلىٰ الله تعالىٰ، وقوة الإيمان به والتوكل عليه، لأن الله قوي عزيز، قاهر لكل شيء، فمن كان من حزبه علىٰ الحقيقة لا يمكن أن يغلبه

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١٢ - ٤١٤).

الكفار، ولو بلغوا من القوة ما بلغوا.

فمن الأدلة المبينة لذلك أن الكفار لما ضربوا علىٰ المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة الأحزاب المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١]، كان علاج ذلك هو ما ذكرنا؛ فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة أثره في المسلمين، مع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت مقاطعوهم سياسة واقتصادًا؛ فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج الذي قابلوا به هذا الأمر العظيم وحلوا به هذه المشكلة العظمىٰ هو ما بيَّنه جَلَّ وَعَلَا في سورة الأحزاب بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهذا الإيمان الكامل، وهذا التسليم العظيم لله جَلَّ وَعَلَا، ثقةً به وتوكلًا عليه هو سبب حل هذه المشكلة العظمىٰ.

وقد صرَّح نتيجة هذا العلاج بقوله تعالىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧].

وهذا الذي نصرهم الله به علىٰ عدوهم ما كانوا يظنونه، ولا يحسبون أنهم ينصرون به وهو الملائكة والريح، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزاب: ٩]، ولما علم

جَلَّ وَعَلَا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، ونوه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، أي من الإيمان والإخلاص كان من نتائج ذلك ما ذكره الله جَلَّ وَعَلَا في قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١] فصرح جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية بأنهم لم يقدروا عليها، وأن الله جَلَّ وَعَلَا أحاط بها فأقدرهم عليها، وذلك من نتائج قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

فدلت الآية علىٰ أن الإخلاص لله وقوة الإيمان به، هو السبب لقدرة الضعيف علىٰ القوي وغلبته له: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالىٰ في هذه الآية: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [الفتح: ٢١] فعل في سياق النفي، والفعل في سياق النفي من صيغ العموم علىٰ التحقيق».

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أيضًا**: «فقوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ في معنىٰ لا قدرة لكم عليها، وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة، لأن النكرة في سياق النفي تدل علىٰ عموم السلب وشموله لجميع الأفراد الداخلة تحت العنوان، كما هو معروف في محله.

وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا أحاط بها فأقدرهم عليها، لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لو أن الأمة الإسلامية عندها تأخر في السلاح وفي العَدَد والعُدد أيضًا، والأمم ضدها أقوىٰ منها سلاحًا

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ١٠٠).

وأكثر عددًا، فليس من المستحسن أن نقاتل، ولهذا لم يوجب الله القتال علىٰ الأمة الإسلامية إلا حين كانت مستعدة وقادرة، وأمر بالاستعداد فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وأما قوله تعالىٰ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فإن هذه المسألة خاصة في بدر، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فأجاز للناس أن يفروا من عدوهم إذا كانوا أكثر من مثليهم».

ومن جميل تطبيقات آيات القرآن علىٰ فقه الواقع، ما علّقه الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: ٦٧]، حيث قال[(١)]: «ولا شك أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون علىٰ اقتصاد يجيزه خالق السموات والأرض، علىٰ لسان رسوله ﷺ، ويكون كفيلًا بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعًا لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم، لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئًا منها يجوز شرعًا[(٢)]، لأنها إما مشتملة علىٰ زيادات ربوية، أو علىٰ غرر، لا تجوز معه المعاملة كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا[(٣)]، فإنك لا تكاد تجد شيئًا منها سالمًا من الغرر، وتحريم الغرر ثابت عن النبي ﷺ، ومن المعلوم أن من يدعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات من المعاصرين أنه مخطئ في ذلك،

---

(١) أضواء البيان (٤/ ١٧٩)، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) في الغالب.

(٣) ومع ظهور التأمين التكافلي والتعاوني، فقد كان يفتي شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتحريمه.

ولأنه لا دليل معه، بل الأدلة الصحيحة علىٰ خلاف ما يقول، والعلم عند الله».

ومما هو قريب من فقه الواقع وملحق به استعمال آيات القرآن في فنون كلامنا وكتاباتنا، قال ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المُودعة في تأليف القرآن اتخذه بحْرًا يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوي كلامه».

وعلىٰ هذا عمل المسلمين عمومًا، والعلماء خصوصًا، لا يكاد يخلو لهم كتاب ولا خطاب إلا وهو مُضمّن آيات من القرآن.



(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٤٧).



٤٤ - آيات القرآن وتهذيب السلوك

لا يجوز لأحد أن يتعاطىٰ تفسير القرآن تفسيرًا جافًّا، يفسر ألفاظ القرآن ويبيّن معانيه مقتصرًا علىٰ بيانه العلمي والفقهي المحض، ويلتفت عن معانيه التربويَّة، فإنّ من أعظم ما أُنزل من أجله القرآن تهذيب السلوك، وتتميم مكارم الأخلاق، لذلك قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا في وصف نبينا محمد ﷺ: «**كان خلقه القرآن**»(١)، قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «أي: كان موافقًا لما نزل به القرآن»، وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ(٣): «أنه تأدب بآدابه، وتخلّق بأخلاقه».

قال ابن القيّم رَحِمَهُٱللَّهُ(٤): «قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]، وهذه من أعظم آيات نبوَّته ورسالته، لمن منحه الله فهمها، ولقد سُئلت أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنهَا عن خلقه ﷺ، فأجابت بما شفىٰ وكفىٰ، فقالت: «كان خُلقه القرآن». فَهَمَّ سائلها أن يقوم ولا يسألها شيئًا بعد ذلك، وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا وغيره: «أي: علىٰ دين عظيم». وسمَّىٰ «الدِّين» خُلُقًا؛ لأن الخُلُق

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (ص٣٠١، رقم: ١٧٣٩).

(٢) تفسير القرآن (٦/ ١٨).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧٠).

(٤) التِّبيان في أيمان القرآن (ص٣١٧، ٣١٨).

هيئة مركَّبةٌ من علوم صادقة وإرادات زاكية، وأعمال - ظاهرة وباطنة - موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقةٍ للحقِّ، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقًا هي أزكىٰ الأخلاق وأشرفها وأفضلها؛ فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن؛ فكان كلامه مطابقًا للقرآن، تفصيلًا له وتبيينًا، وعلومه علوم القرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغَّب فيه، وزُهده فيما زهَّد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبَّته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد في إقامته.

فترجمت أمُّ المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: «كان خُلُقه القرآن». وفَهِمَ السائل عنها هذا المعنىٰ، فاكتفىٰ به واشتفىٰ».

فالقرآن هو المعيار في تقويم الأخلاق وتهذيب السلوك، فهو يهدي للأقوم في كل شيء، قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لم يزل لله نصّاحًا من خلقه في أرضه، يعرضون أعمال العباد علىٰ القرآن، فبالقرآن يعرفون هدي من اهتدىٰ، وضلالة من ضلَّ، أولئك خلفاء الله عَزَّوَجَلَّ في أرضه».

وكل من تحقق بمعاني آيات القرآن، واستقرأ نصوصه أمكنه ذلك من استخراج أصول الأخلاق والتربية من هذا القرآن، وجعله مقررًا وحده في هداية البشرية، فعجبًا لمن ضيّع هذا المورد العظيم، ونهل من كتب الكافرين، يستمد منهم صلاح البشرية في أخلاقهم وسلوكهم.

---

(١) الحجة علىٰ تارك المحجة (٢/ ٥١٠).

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فَمَنْ أولىٰ بحسن الخلق من قارئ القرآن، ومَنْ أولىٰ بالنصفة من نفسه من قارئ القرآن، ومَنْ أولىٰ ببر الوالدين من قارئ القرآن، ومن أولىٰ بأداء الفرائض كلها من قارئ القرآن؟ لأن الدليل معه، فإن قبل منه لم يخطئه باب الجنة، ويوشك أن لا يفعل؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، قال: هذا أريد، أنظر إلىٰ هذا أزدري به، وأنظر إلىٰ هذا أستعظمه، وأنظر إلىٰ محارم المسلمين فأتلذذ بالنظر، فإذا فعل فقد عصىٰ الدليل».

فواجب علىٰ الجميع تدبر دلالات آيات القرآن في كل معانيه التربوية، والسلوكية، والعقدية، والفقهية، والاقتصادية، والسياسية، وهكذا في كل شيء، تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ولا ريب أن كل نقص دخل علىٰ المسلمين سببه تضييع بعض القرآن أو أكثره، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فلو أننا رجعنا إلىٰ الإيمان حقًّا في العقيدة والقول والعمل والأخلاق والآداب وجميع ما يتعلق بالشريعة الإسلامية لكان الكفار أمامنا مغلوبين، ويشهد لهذا الواقع الذي حصل في سلف هذه الأمة، حيث ملكوا مشارق الأرض ومغاربها».

والغفلة عن ملاحظة معاني النصوص التربوية والسلوكية تضييع لأغلب معاني القرآن خصوصًا ما يتعلق بأسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، وتلك والله غفلة

---

(١) الحجة علىٰ تارك المحجة (٢/ ٥٠٩).

(٢) تفسير سورة آل عمران (١/ ٧٥).

وحرمان، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه الأسماء التي تختم بها الآيات ينبغي للإنسان ألا يكون جامدًا فيفهم منها المعنىٰ فقط، بل ينبغي أن يربىٰ عليها، ويكون مسلكه علىٰ حسب ما تقتضيه هذه الأسماء، فمثلًا: إذا علمت أن الله علام الغيوب، ليس معناه أن تدرك بأن الله يعلم بكل شيء فقط، فهذا الإدراك يستوي فيه الكافر والمسلم، حتىٰ الكفار الذين يعرفون اللغة العربية يعرفون مثل هذا اللفظ، لكن المهم هو التربي بمقتضىٰ هذا الوصف وهو علم الغيب، وهذه مسألة مهمة لا يفطن لها كثير من الناس».

وانظر إلىٰ مثال آخر كيف تحقق علماؤنا بمعانيه وأدركوا من الخير ما حُرمه غيرهم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا معنىٰ اسم الله «الأول»[2]: «فعبوديته باسمه «الأوَّل»، تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف عندها والالتفات إليها، وتجريد النظر إلىٰ مجرد سبق فضله ورحمته وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأي وسيلة كانت هناك! وإنما هو عدم محض، وقد أتىٰ عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا. فمنه الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق علىٰ الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرىٰ، فمن نزَّل اسمه الأوَّل علىٰ هذا المعنىٰ أوجب له ذلك فقرًا خاصًّا وعبودية خاصة».

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير سورة النساء (١/ ٢٨٦ - ٢٨٧).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ٣٦ - ٣٧).



٤٥ - مجانبة الإسرائيليات

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الأمة ليست بحاجة إلىٰ حرف واحد مما عندهم».

والإسرائيليات ثلاثة أنواع:

١- نوع شهد شرعنا ببطلانه فهذا يجب تكذيبه.

٢- نوع شهد شرعنا بصحته فهذا نقره.

٣- نوع سكت عنه شرعنا فهذا لا نصدقهم ولا نكذبهم.

من ذلك قوله تعالىٰ عن ذي القرنين: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

[الكهف: ٨٤ – ٨٥]

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما به يستعين علىٰ قهر البلدان وسهولة الوصول إلىٰ أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها علىٰ وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادرًا علىٰ السبب، فإذا اجتمع القدرة علىٰ السبب الحقيقي والعمل به، حصل المقصود، وإن عُدما أو أحدهما لم يحصل، وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار علىٰ وجه يفيد العلم، فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة داخلية وخارجية بها صار له جند عظيم ذو

عدد ونظام، وبه تمكّن من قهر الأعداء ومن تسهيل الوصول إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها».

مثال (٢) قوله تعالىٰ في أمره لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين سأل ربه معاينة إحياء الموتىٰ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُهتَّم لنص عليه القرآن».

فلا تبادر إلىٰ تلقي الإسرائيليات بالقبول، لأن مرتبتها الشكوك كما قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]، والمحققون من المفسرين ينقدون الإسرائيليات بالمرجحات التي تدل علىٰ صدقها أو كذبها، فانظر مثلًا إلىٰ ما اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن «أنطاكية» هي قرية أصحاب «يس» في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣ - ١٤]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا القول ضعيف جدًا، لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت»[٣].

فبهذا يتبين أنه لا يُسلم بقبول ما ينقله كعب الأحبار ووهبه ابن منبه وغيرهم عن الأنبياء السابقين هكذا مرسلًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «فكيف بما ينقله كعب الأحبار وأمثاله عن الأنبياء؟ وبين كعب، وبين النبي الذي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٩٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦.

(٣) البداية والنهاية (قصص الأنبياء) ص ٢٧٢.

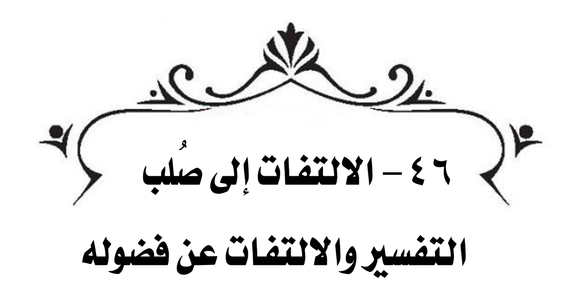
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٥٠ - ٣٥١).

ينقل عنه ألف سنة، وأكثر وأقل، وهو لم يسند ذلك عن ثقة بعد ثقة، بل غايته أن ينقل عن بعض الكتب التي كتبها شيوخ اليهود، وقد أخبر الله بتبديلهم وتحريفهم، فكيف يحل للمسلم أن يصدّق شيئًا من ذلك، بمجرد هذا النقل؟

بل الواجب أن لا يصدق ذلك، ولا يكذبه أيضًا إلا بدليل يدل علىٰ كذبه، وهكذا أمرنا النبي ﷺ.

وفي هذه الإسرائيليات مما هو كذب علىٰ الأنبياء، أو ما هو منسوخ في شريعتنا ما لا يعلمه إلا الله».





٤٦ - الالتفات إلى صُلب التفسير والالتفات عن فضوله

والدليل علىٰ هذا التأصيل قوله تعالىٰ في عدد أصحاب الكهف: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]، يعني التعمق في عدتهم لا طائل تحته.

والمقادير التي يطْلُب المفسرون معرفتها إن كان يدلُّ عليها دليل صحيح من ألفاظ القرآن من غير تكلُّف فهذا استنباطه من تدبّر القرآن، ولا يجوز الرُّجوع للإسرائيليات في ذلك ولا في شيء من معاني القرآن.

مثال: مقدار لُبْث يونس عليه السلام في بطن الحوت؟

فبعضهم قال: يومًا، وبعضهم قال: ثلاثة، وآخرون قالوا: سبعة، وغيرهم قال: عشرين، ومنهم من قال: أربعين يومًا.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه أقاويل كلها ليس عليها دليل».

وقال الشيخ محققًا[٢]: «قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٥]، يدلُّ بظاهره علىٰ أنَّ يونس بقي في بطن الحوت مدَّة أدَّت إلىٰ سقمه».

---

(١) تفسير سورة الصافات (ص٣٠٠).

(٢) تفسير سورة الصافات (ص٣٠١).

ومن اللطائف والعجائب في تعيين المهاجر في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ﴾ [النساء: ١٠٠].

فقد ذكر الحكم بن أبان عن عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال:** اسم الذي خرج من بيته مهاجرًا إلىٰ الله ورسوله (ضمرة بن العيص)، وقال أيضًا: طلبت اسمه أربع عشرة سنة حتىٰ وقفت عليه[1].

فالفضلة الجهل بها لا يضر، والعلم بها لا ينفع، فهذا لا ينبغي أن يلتفت إليه طالب العلم، ولا أن يزاحم به وقته وجهده في طلب صلب العلم، فمراعاة الأولويات من سلامة المنهج في طلب العلم، أما من أحاط بصلب العلم، وأتقن التفسير، فلا حرج أحيانًا، خصوصًا في وقت إجمام النفس أن يقرأ بعض هذه المباحث.



---

(١) عمدة القاري (١١/ ٣٣٦).



٤٧ - المفسِّرون والأخذ ببعض معاني الآية

مع تنبيه طالب العلم إلىٰ ضرورة الاهتمام بصُلب التَّفسير والالتفات عن فضوله، فننبّه طالب العلم أيضًا بضرورة ملاحظة اقتصار جماعة من المفسِّرين علىٰ بعض معاني الآية، ويذكر غيره كذلك بعض معاني الآية غير ما ذكره، وتكون في كثير من الأحيان كل هذه المعاني صحيحة، ومن صُلب التَّفسير، وليست من الأقوال المبتدعة ولا من التَّحريفات الضَّالة، ولا من التأويلات المخترعة، فحينئذ لا ينبغي توهُّم المعارضة بين الأقوال، ولا التَّعويل علىٰ بعضها وإهدار بقيَّة المعاني الصحيحة، خصوصًا إذا كانت الأقوال كلُّها صادرة عن المتقدِّمين من الصَّحابة والتَّابعين.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]، البحر للمفسِّرين فيه قولان، قول: أنَّه البحر الذي عليه العرش، وهذا قول عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقيل: هو بحر الأرض.

واختلف المفسِّرون في «المسجور» إلى أقوال:

١ - المملوء، وهو قول ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وجميع أهل اللُّغة.

٢ - المُوقد، قال كعب الأحبار: «البحر يُسْجَر فيُزاد في جهنم»، وهو قول مجاهد، والضَّحَّاك. وحُكي عن عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وابن القيِّم جعل معنىٰ «الموقد» يرجع إلىٰ «المملوء»، قال[١]: «لأنَّك تقول: سَجَرْتُ التنُّور؛ إذا ملأته حطبًا».

٣- الذي ليس فيه شيء، هكذا قال من جعل «المسجور» من الأضداد، ويُنسب هذا إلىٰ ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، رواه عنه ذو الرُّمَّةِ، قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «ليس لذي الرُّمَّة عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا غير هذا الحرف، وهذا القول اختيار أبي العالية».

٤- المحبوس، روي هذا عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ[٣]: «والمعنىٰ علىٰ هذا: أنَّه محبوس بقدرة الله أن يفيض علىٰ الأرض فيُغْرِقها».

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[٤]: «وأقوىٰ الأقوال في «المسجور» أنه المُوقد - وهذا هو المعروف في اللغة - من السَّجْر، ويدلُّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]؛ قال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أوقدت فصارت نارًا». ومن قال: «يبست وذهب ماؤها» فلا يناقض كونها نارًا موقدة، وكذا من قال: «مُلئت» فإنها تُمْلأ نارًا.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل علىٰ ذلك كله؛ فإن البحر محبوس بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ومملوء ماءً، ويذهب ماؤه يوم القيامة ويصير نارًا. فكلٌّ من المفسرين أخذ معنًىٰ من هذه المعاني، والله أعلم».

---

(١) التِّبيان في أيمان القرآن (ص٤٠٨).

(٢) التِّبيان في أيمان القرآن (ص٤٠٨).

(٣) التِّبيان في أيمان القرآن (ص٤٠٩).

(٤) التِّبيان في أيمان القرآن (ص٤١٠).



٤٨ - تلمّح التناسب بين الألفاظ والمعاني

معاني الآيات في ألفاظها، فمن تدبَّر ما في الألفاظ من الدَّلالات استخرج منها ما تتضمَّنه من المعاني والفوائد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الأصل هو المعنىٰ المفرد، وأن يكون اللفظ الدال عليه مفردًا، لأن اللفظ قالب المعنىٰ ولباسه يحتذي حذوه، والمناسبة الحقيقية ثابتة بين اللفظ والمعنىٰ طولًا وقصرًا، وخفة وثقلًا، وكثرة وقلة، وحركة وسكونا، وشدة ولينًا، فإن كان المعنىٰ مفردًا أفردوا لفظه، وإن كان مركبًا ركبوا اللفظ».

فاللفظ قالب المعنىٰ ولباسه، فالرياح مثلًا في القرآن إذا كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة لأنها مختلفة الصفات، وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردة[١]، لأنها تأتي من وجه واحد وصمام واحد، لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها حتىٰ تنتهي إلىٰ حيث أُمرت.

وانظر ما قاله الله في شأن طوفان الماء الذي أغرق قوم نوح: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شبَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كل موجة بالجبل في عظمها وارتفاعها، يشير إلىٰ شدة اضطراب الماء

---

(١) يستثنىٰ من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وتلاطم أمواجه»[١].





(١) رموز الكنوز (٣/ ١٦٢).



٤٩ - تلمّح بناء الكلمة وما يقع فيها من تغيير

فإنه يوقفك علىٰ معان وأحكام مهمة، مثال: استفيد حكم وجوب غسل المرأة بعد انقطاع دعم حيضها ليَحِلَّ وَطْؤُها من التشديد في كلمة «تطهَّرن»، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

«يطهرن» بدون تشديد انقطاع الدم، و«تطهّرن»، بالتشديد قدر زائد علىٰ انقطاع الدم وهو الاغتسال بالماء.

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله سبحانه علّق الحكم فيها علىٰ شرطين: أحدهما انقطاع الدم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾. والثاني: الاغتسال بالماء، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، أي يفعلن الغسل بالماء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما ذكر الله غايتين علىٰ قراءة الجمهور، لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾ غاية التحريم الحاصل بالحيض، وهو تحريم لا يزول بالاغتسال ولا غيره، فهذا التحريم يزول بانقطاع الدم، ثم يبقىٰ الوطء بعد ذلك جائزًا بشرط الاغتسال».





٥٠- تذوق البيان القرآني

فبتذوق حلاوة البيان القرآني تعرف التفاصيل في تركيب الألفاظ، وتتذوق الحسن الذي لابس آي القرآن في تراكيبها التي سيقت فيها.

فالقرآن بلغ الكمال في البلاغة والإعجاز، فاقرأه قراءة من يلتمس أحسن المعاني في أحسن الألفاظ صياغة وتركيبًا.

والعرب كانوا في جاهليتهم مع كفرهم بالقرآن يذعنون لجماله البلاغي، ويقولون: «إن لألفاظه لحلاوة»، فلا تحرم نفسك من حسن التذوق.

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن القرآن: «صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلىٰ القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال أخرىٰ، ما يخلص منه إليه، قال الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]».

مثال: قال تعالىٰ فيما كان من شأن النملة مع نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض العلماء: الآية من عجائب القرآن، لأنها بلفظة «يا»: نادت، ﴿أيها﴾: نبّهت، ﴿ٱلنَّمْلُ﴾: عيَّنت، ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾:

أمرت، ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾: نصَّتْ، ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾: حذّرت، ﴿سُلَيۡمَٰنُ﴾: خصَّت، ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾: عمَّت، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: عَذَرَت».

ومن ذلك تذوق ما يقع من مقابلة إيجاز وإطناب الجواب بما جووب به، ففي سورة مريم، قال تعالىٰ: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٠]، وفي سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾.

[الفرقان: ٦٨ - ٧٠]

قال الحافظ أحمد بن الزبير الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الآية الأولىٰ ورد قبلها بعد ذكر المنعم عليهم ومن اهتدىٰ بهديهم قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وهذا قول موجز مجمل، فناسبه الإيجاز في قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٠] الآية، فتناسبا في التقابل الإيجازي كما تناسبا أيضًا في الفواصل ومقاطع الآي، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾، وأما قوله في آية الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فإطناب يناسب التفصيل الواقع قبله في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ثم قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ

(١) ملاك التأويل (٢/ ٨٠٣ - ٨٠٤)، باختصار يسير جدًا.

ذَٰلِكَ﴾، يريد ما ذُكِّر المتصف بتقوىٰ الله بتركه والتنزه عن مواقعة شيء منه - ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، ثم فسَّر ما يلقاه بقوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الفرقان: ٦٩]، أي يكثر عليه ويزداد، ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، فحصل بإزاء مضاعفة العذاب لفاعل ذلك تبديل السيئات بالحسنات إلىٰ الغفران والرحمة، فإيجاز بإيجاز وإطناب بإطناب مناسبة بين الجواب وما جووب به، وكل علىٰ ما يجب».





٥١- التذوق الحقيقي للقرآن

التذوق الحقيقي للقرآن ليس هو في جودة تلاوته دون تدبره والتدين به، وهداية الخلق إليه.

قال الحافظ أبو شامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يبق لمعظم من طلب القرآن العزيز همّة إلا في قوة حفظه لكتاب الله وسرعة سرده وتحرير النطق بألفاظه والبحث عن مخارج حروفه والرغبة في حسن الصوت به.

وكل ذلك وإن كان حسنًا، ولكن فوقه ما هو أهم منه وأتم وأولىٰ وأحرىٰ، وهو فهم معانيه والتفكر فيه والعمل بمقتضاه».

وقال العلامة محمد جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فتأمل! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون! فإذا سمعوا صوتًا حسنًا ظنّوا أن هذا هو جمال القرآن، فقالوا للقارئ: سبحان من أعطاك! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة، ولم ينظروا إلىٰ الحكم المودعة فيها!

فقُبح الجهل يترك الرجل أعمىٰ وإن لبس الحلل وارتدىٰ ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع.. كم للإنسان من آيات وعبر في السموات والأرض فيعرض عنها! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا في السموات والأرض مما ذرأ

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٦٣٠).

المبلغ في الكون! وتلا القرآن - وهو كلام مبدع الكون - وتلطف في تصوير المعاني، وألبسها أجمل لباس، فأعرض العقلاء فضلًا عن العامة! فما للعامة لا يتعلمون؟ وما لذوي البصائر لا ينصحون ولا يبينون؟ وما للناس لا يكادون يفقهون؟!».

وقال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولكن سر القرآن ليس في هذا الحفظ الجاف الذي نحفظه، ولا في هذه التلاوة الشلاء التي نتلوها، وليس من المقاصد التي أنزل لتحقيقها تلاوته علىٰ الأموات، ولا اتخاذه مكسبة، والاستشفاء به من الأمراض الجسمانية. وإنما السر كل السر في تدبره وفهمه، وفي اتباعه والتخلق بأخلاقه، ومن آياته ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [صٓ: ٢٩]، ومن آياته ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

هذه هي الطريقة الواحدة التي اتبعها المسلمون الأولون فسعدوا باتباعها والاستقامة عليها، وهذا هو الإسلام متجليًا في آيات القرآن، دين واحد جاء به نبي واحد عن إله واحد، وما ظنك بدين تحفه الوحدة من جميع جهاته؟.

أليس حقيقًا أن يسوق العالم إلىٰ عمل واحد وغاية واحدة واتجاه واحد علىٰ السبيل الجامعة من عقائده وآدابه؟

أليس حقيقًا أن يجمع القلوب التي فرّقت بينها الأهواء، والنفوس التي باعدت بينها النزعات، والعقول التي فرّق بينها تفاوت الاستعداد؟

بلىٰ والله إنه لحقيق بكل ذلك».



٥٢- مُلَح التفسير

مُلح التفسير هو ما ينقدح في ذهن المفسر من معنىٰ يستحسنه للآية وليس فيه دليل صريح يُعين المعنىٰ الذي ذكره، فيذكره فيستحسنه الناس.

مثال: قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حدثني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقري رحمه الله تعالى، قال: سُئل أبو العباس ابن البناء رحمه الله تعالى، وكان رجلًا صالحًا، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، لِمَ لَمْ يعمل «إن» في «هذان»؟ فقال: لما لم يؤثر القول في المقول لم يؤثر العامل في المعمول، فقال له: يا سيدي هذا لا ينهض جوابًا، فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل (إنّ)، فقال له: إن هذا الجواب نوَّارة لا تحتمل أن تُحكّ بين الأكتف».

ومن ذلك ما رواه عبد الرزاق في المصنف بإسناد صحيح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: دعا عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أصحاب رسول الله ﷺ: فسألهم عن ليلة القدر فأجمعوا علىٰ أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: فقلت لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إني لأعلم أو أظن أي ليلة هي؟ قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضىٰ أو سابعة تبقىٰ من العشر الأواخر، فقال: من أين علمت ذلك؟ قلت: خلق الله سبع سموات، وسبعة أرضين، وسبعة أيام، والدهر يدور في سبع، والإنسان خُلق من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد علىٰ سبع،

---

(١) الإفادات والإنشادات بواسطة مقدمة تحقيق القواعد للمقري (١/ ٦٤)، وهو في الموافقات (١/ ٨٥).

والطواف والجمار وأشياء ذكرها، فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لقد فطنت لأمر ما فطنا له.

قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا من مُلح التفسير وليس من متعيّن العلم»[١].

ومن ذلك ما استحسنه القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن البسملة ليست آية من الفاتحة لوقوع الاختلاف فيها، حيث قال[٢]: «ويكفيك أنها ليست بقرآن للاختلاف فيها، والقرآن لا يختلف فيه».



(١) بواسطة طرح التثريب (٤/ ١٥٥).

(٢) أحكام القرآن (١/ ٢).



٥٣- استبعاد الأقوال الضعيفة والتنبيه على الصحيح

كُتُبُ كثير من المفسِّرين تذكر كل ما قيل في معنىٰ الآيات، الصَّحيح منها والضَّعيف، الصَّواب منها والخطأ، السُّنَّة والبدعة، الحقّ والباطل، وبعض المفسِّرين المحقِّقين يذكر الصَّحيح من هذه الأقوال من ضعيفها، وبعضهم إنَّما هو ناقل لكل الأقوال، لا تتجاوز عنايته أكثر من ذلك، وليس له تحقيق في تمييز الأقوال، والنّاصح لكتاب الله هو الذي يُبيِّن المعاني الصَّحيحة للآيات، ويُحذِّر من الأقوال البدعيَّة والخاطئة التي قيلت في الآيات، وينصح للمؤمنين بتعليمهم ذلك.

قال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكثر أقوال المفسرين أضغاث وآثار ضعاف».

فليكن منهجك واضحًا في فهم القرآن بتمييز الصحيح من الضَّعيف من المذكور في تفاسير الآيات.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستبعد الأقوال الضعيفة في ذلك، وأن ينبّه علىٰ الصحيح منها، ويبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته».

وإن أردت أن تعرف معنىٰ هذا فانظر إلىٰ كثرة الأقوال الواردة في تفسير (الروح)، حتىٰ بلغت ثمانمائة وألف قول.

قال العلامة القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أُفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة،

ونقدوها بمحك الكتاب والسنة، فنبذوا ما يخالفها وتمسكوا بما يوافقها».

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فانظر إلىٰ هذا الفضول الفارغ، والتعب العاطل عن النفع بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه، ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته».





٥٤ - اختلاف الروايات عن المفسر الواحد في معنى الآية

يقع في تفسير الآية الواحدة اختلاف عن الإمام الواحد في معناها، وهذا الاختلاف تارة يكون اختلاف تنوع، ويشمل اللفظ كل المعاني المنقولة عن ذلك الإمام، فهذا قوله كله متفق، ولا تعارض.

أما إذا اختلفت الروايات عن الإمام الواحد اختلافًا متضادًا، فحينئذ لابُدَّ من الترجيح بين تلك الروايات، والأخذ بالأصح الذي يقتضيه لفظ الآية، والأصح من روايات المفسر مما يوافق قول عامة الصحابة، وهذا مرجح معتبر عند أهل التحقيق عمومًا من المفسرين والمحدثين والفقهاء، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اختلفت الرواية عن يحيى بن معين في مبارك بن فضالة، والرَّبيع بن صبيح، وأولاهما أن يكون مقبولًا محفوظًا عن يحيىٰ، ما وافق أحمد وسائر نظرائه[(١)].

وكذلك نجد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتعامل في مواضع من تفسيره مع اختلاف الروايات عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا باعتماد الرواية الأصح، والموافقة لمعنىٰ الآية، حيث قال في تعليقه علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:

---

(١) تهذيب الكمال (٢٧/ ١٨٨).

١١][1]: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة ما ذكرنا عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في الخبر لذي رواه أبو بشر عن سعيد عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ لأن ذلك أصح الأسانيد التي روي عن صحابي فيه قول مخرجًا، وأشبه الأقوال بما دل عليه ظاهر التنزيل».

مثال: لنأخذ الآن مثالًا لاختلاف الروايات عن الإمام الواحد في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾. [البقرة: ٢٥٥]

قال أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ **(ت: ٥٩٧هـ)**[2]: «وفي المراد بالكرسي ثلاثة أقوال: **أحدها:** أنه كرسي فوق السماء السابعة دون العرش، قال النبي ﷺ: «**ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة**»، وهذا قول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في رواية عطاء.

والثاني: أن المراد بالكرسي علم الله تعالىٰ. رواه ابن جبير عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

والثالث: أن الكرسي هو العرش، قاله الحسن».

فهذه طريقة ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسيره يحكي الأقوال، ولا يُنقِّح ولا يُحرِّر، ولا يبيّن الصواب من الخطأ، ولا ما يصح وما لا يصح عن الأئمة الذين ينقل أقوالهم.

والقول الذي نسبه ابن الجوزي للحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ لا يصح عنه، فإن في إسناده جويبر بن سعيد الأزدي، وهو ضعيف جدًّا.

وأما اختلاف الروايات عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فهذا يحتاج إلىٰ إعمال

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٣٦).

(٢) زاد المسير ص(١٥٦).

القواعد التي ذكرناها في الترجيح بين روايات ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهنا لا نكتم القارئ قولًا أن ترجيح الطبري في هذا الموضع رواية ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تفسير الكرسي بالعلم مخالف لرواية عامة الصحابة، والصحابة أعلم وأحكم، وكل يؤخذ من قوله ويرد، ويبقىٰ الطبري شيخ المفسرين وإمام من كبار أئمة أهل السنة، وترجيحه هنا خلاف المعهود من ترجيحاته القوية.

وهنا مع اختلاف الروايات عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في بيان معنىٰ الكرسي، فإن الواجب اعتماد الأصح المشهور عنه، وما يقتضيه ظاهر لفظ الآية، قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إن الكلمة إذا كان لها ظاهر معروف وباطن محتمل لم يجز أن تزال عن ظاهرها المعروف إلىٰ باطنها المحتمل إلا بإجماع الأمة أو بنص أو آية أو سنة.

فإن قيل: فليس قد رواه مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قال: علمه.

قيل: هذا حديث فيه وهن إما من مطرف، وإما من جعفر بن أبي المغيرة؛ لأن الصحيح المشهور عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما حدثناه عبد الرحمن بن سلم الرازي قال: حدثنا سهل بن زنجلة الرازي، قال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عمار الذهبي، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الكرسي موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره أحد».

وكيف يكون العلم موضع قدميه؟

وهل يقرون هم بالقدمين؟ حتىٰ لا تكون الرواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ١٨٠ - ١٨٤).

متعارضة.

وهل حكم ما تعارض من الروايات لو استوت الدعاء مناف إلا لأخذ بأظهرها، وكيف ورواية مطرف عن جعفر لا تكافئ رواية مسلم البطين، مع أن الثوري رواه عن مطرف فلم يجاوز به سعيدًا كما تجاوزه ابن إدريس وكلاهما وهم، والله أعلم؛ لأن الكرسي في القرآن مثقل، وهذه الرواية لم ترد علىٰ التخفيف والهمز كما ذهب إليه القوم، ولا نعرف في لغة شاذة ولا معروفة عن عربي أنه سمىٰ العلم بالكرسي المثقل إلا ما جاء في هذه الرواية ويزول به فيها تعارض عن رجل واحد بعينه.

فلا نترك اللغة السائرة المشهورة عند الخاصة والعامة من لباب العرب والدخلاء فيهم في الكرسي المثقل، والمخفف المهموز لا أصل له في شيء من اللغات - واللغة لسان مسلم له لا يدرك بالنظر والمقاييس ولا يمكن فيه التبديل».

ومع ترجيحنا بالأخذ بالمشهور عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، نرجح كذلك بمرجح آخر، وهو أن المشهور عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موافق لقول جماعة من الصحابة.

فقد روىٰ البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال[1]: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والكرسي فوق الماء، والله فوق الكرسي، ويعلم ما أنتم عليه».

---

(١) إسناده صحيح، العلو للذهبي.

فهذا الكرسي الذي بينه وبين السماء السابعة خمسمائة عام واضح في أنه ليس هو العلم، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غير مشهور بالأخذ عن أهل الكتاب.

وكذلك المنقول عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال[1]: «الكرسي موضع القدمين»، وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «الكرسي موضوع قُدَّام العرش».

وأما اختيار الطبري فنجد أن موجبات وتقريرات ترجيحه لا تتفق مع ما رجحه، فإنه قال مقررًا موجبات الترجيح بين الأقوال التي حكاها في تفسير الآية: «لكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب، غير أن الذي هو أولىٰ بتأويل ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ، وهو ما حدثني به عبد الله بن أبي زياد القطواني قال: ثنا عبيد الله بن موسىٰ قال: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة قال: أتت امرأةٌ النبي ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فعظَّم الرب عَزَّوَجَلَّ، ثم قال: «**إن كُرسيَّه وسع السموات والأرض، وإنه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع**»، ثم قال بأصابعه فجمعها: «**وإنَّ له أطيطًا كأطيط الرَّحل الجديد إذا رُكب من ثقله**»»[3].

فهذا التقرير وهذه المقدمة لا تتفق مع ترجيحه حيث قال[4]: «الذي يدل علىٰ صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه، أنه قال: هو علمه»، فعلم الله لا يقعد الله عليه بحيث لا

---

(١) رواه ابن المنذر في تفسيره، وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناد صحيح». فتح الباري (٨/ ٤٧).

(٢) تفسير القرآن للسمعاني (١/ ٢٥٨).

(٣) جامع البيان (٤/ ٥٣٩ - ٥٤٠).

(٤) جامع البيان (٤/ ٥٤٠).

يفضل منه مقدار أربع أصابع.

ومما استدل به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ ضعف تفسير الكرسي بالعلم منطوق الآية، حيث قال[1]: ««الكرسي» ثابت بالكتاب والسنة، وإجماع جمهور السلف، وقد نُقل عن بعضهم: أن «كرسيه» علمه، وهو قول ضعيف، فإن علم الله وسع كل شيء، كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾، والله يعلم نفسه، ويعلم ما كان وما لم يكن، فلو قيل وسع علمه السموات والأرض لم يكن هذا المعنىٰ مناسبًا، لا سيما وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾، أي: لا يثقله ولا يكرثه».

وقال شيخنا العلامة المحقق محمد الصالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: ««والكرسي»، هو موضع قدمي الله عَزَّوَجَلَّ، وهو بين يدي العرش كالمقدمة له، وقد صح ذلك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا موقوفًا، ومثل هذا له حكم الرفع؛ لأنه لا مجال للاجتهاد فيه، وما قيل من أن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا يأخذ عن بني إسرائيل فلا صحة له، بل الذي صح عنه في البخاري أنه كان ينهىٰ عن الأخذ عن بني إسرائيل، فأهل السنة والجماعة عامتهم علىٰ أن الكرسي موضع قدمي الله عَزَّوَجَلَّ، وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم رحمهما الله، وغيرهما من أهل العلم، وأئمة التحقيق، وقد قيل: إن «الكرسي» هو العرش، ولكن ليس بصحيح، فإن «العرش» أعظم، وأوسع، وأبلغ إحاطة من الكرسي.

وروي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا أن ﴿كُرۡسِيُّهُ﴾ علمه، ولكن هذه الرواية

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٨٤).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٥٤ - ٢٥٥).

أظنها لا تصح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنه لا يُعرف هذا المعنىٰ لهذه الكلمة في اللغة العربية، ولا في الحقيقة الشرعية، فهو بعيد جدًّا من أن يصح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فالكرسي موضع القدمين».

والشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أول ما بدأ به تفسير الكرسي هو قول الصحابة حيث قال[1]: «الكرسي الظاهر أنه الجسم الذي وردت الآثار بصفته»، ثم ذكر سائر الأقوال: العلم، وقيل قدرة الله التي يمسك بها السموات والأرض، وقيل: العرش، وقيل: هو عبارة عن الملك، وذكر قول المعتزلة بنفي الكرسي، ثم قال منقحًا[2]: «والحق: القول الأول – يعني الكرسي موضع القدمين –، ولا وجه للعدول عن المعنىٰ الحقيقي إلا مجرد خيالات تسببت عن جهالات وضلالات».

عقيدة السلف في الكرسي:

عقيدة السلف توارثها التابعون عن الصحابة، واتفق عامتهم علىٰ الصحيح المشهور عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وما وافقه عليه عامة الصحابة من أن الكرسي موضع القدمين للرب عَزَّ وَجَلَّ.

قال عباس الدوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **سمعت أبا عبيد القاسم بن سلام يقول:** الكرسي موضع القدمين،...، هذه أحاديث صحاح، حملها أصحاب الحديث، والفقهاء، بعضهم عن بعض، وهي عندنا حق لا شك فيها[3].

---

(١) فتح القدير (١/ ٢٧٢)، ط: دار الفكر.

(٢) فتح القدير (١/ ٢٧٢)، ط: دار الفكر.

(٣) رواه الدارقطني في الصفات (ص١١٤ – رقم: ٥٩)، وإسناده صحيح.

وقال عباس الدوري[١]: سمعت يحيىٰ بن معين يقول: شهدت زكريا بن عدي سأل وكيع بن الجراح فقال: يا أبا سفيان هذه الأحاديث! يعني مثل: «الكرسي موضع القدمين»، فقال: أدركنا إسماعيل بن أبي خالد، وسفيان، ومسعرًا، يحدثون بهذه الأحاديث ولا يفسرون شيئًا[٢].

وقال محمد بن عبد الله بن أبي زمنين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ومن قول أهل السنة أن الكرسي بين يدي العرش، وأنه موضع القدمين».

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات»[٤]: «اتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولًا واحدًا وشرعًا ظاهرًا» إلىٰ أن قال[٥]: «والكرسي موضع القدمين».



(١) ذم التأويل (ص٢٠ – رقم: ٢٧).

(٢) يعني لا يفسرونه تفسير المعتزلة ويمرونها كما جاءت.

(٣) أصول السنة ص(٩٦)، الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ ص(٣٤٧).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٧١).

(٥) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٧٥).



٥٥- الاستظهار بكتب الإعراب واللغة في مواقع الإشكال

القرآن نزل بلسان عربي مبين، وإذا لم يعرف المسلم معاني ألفاظ الآية ضل عن فهمها.

قال الحسن: إن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك.

وقال مكي بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بمعرفة حقائق الإعراب تُعرف أكثر المعاني، وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويُفهم الخطاب، وتصح معرفة حقيقة المراد».

وبسبب نقص علم الناس اليوم بالعربية وتغير ألسنتهم فإنه لا بد لهم من الوقوف علىٰ تفسير الصحابة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلِّغًا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلىٰ هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل إلىٰ ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين».

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربية، فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطًا فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهىٰ إلىٰ درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيهما حجة، كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة».

ومن الأمثلة التي تُظهر أهمية الإعراب الصحيح في فهم الآية فهمًا صحيحًا، قوله

تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، ففي نصب قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول له، أي لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهذا فاسد، فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه، كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة، والمفعول لأجله يجب أن يكون علّة لفعل الفاعل المذكور معه فيتحد السبب والغاية، وفعل الفاعل ها هنا هو «الكتابة» و﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فعلهم، لا فعل الله، فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله، لاختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول «كتبناها»، أي ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهو فاسد أيضًا، إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية، فتكون بدل الشيء من الشيء، ولا بعضها، فتكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتمل علىٰ الآخر، فتكون بدل اشتمال، وليس بدل غلط.

فالصواب أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله، ودلَّ علىٰ هذا قول «ابتدعوها»، ثم ذكر الحامل لهم والباعث علىٰ ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله ثم ذمهم بترك رعايتها»[١].

وهذا من أوضح الأمثلة علىٰ أن المعنىٰ يُعيّن الإعراب، وعلىٰ أن الإعراب عون علىٰ فهم الآية الفهم الصحيح.

---

(١) بدائع التفسير (٤/ ٣٩١ - ٣٩٢).



٥٦ - الاستظهار بديوان العرب لمعرفة معاني المفردات

عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن ابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: إذا تفانيتم في شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربيٌّ، ثم دعا ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أعرابيًا، فقال: ما الحرج؟

قال: الضيق.

قال: صدقت[1].

وقد فزع الصحابة إلىٰ ديوان العرب وألسنتهم في استظهار معاني مفردات القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

عن مجاهد قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا بدأتها، فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بديع السموات والأرض»[2].

قال ابن خالويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٣٧٠هـ)**[3]: «قال الله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي احْكُمْ، حدثنا ابنُ مجاهد عن السِّمَّريّ عن الفراء عن الكسائي أنه سمع أعرابية تقول لزوجها: بيني وبينك الفتَّاح، تُريد القاضي».

(١) جامع البيان (١٦/ ٦٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٢).

(٣) إعراب ثلاثين سورة من القرآن ص ٢٣٤.

وقرأ مسعر بن كدام علىٰ عاصم فلحن، فقال له عاصم: أرغلت يا أبا سلمة، قال شريك بن عبد الله القاضي: فسألت عن الإرغال، فلم أر أحدًا يخبرني عنه حتىٰ لقيت أعرابيًا فصيحًا لم أر أعلم منه باللغة والعربية، فقلت له: ما الإرغال فيكم؟ فقال: الجمل يفطم ثم يرجع فيرضع، فعلمت أنه أراد: رجعت صبيًا لا تفهم(١).

فديوان العرب ملجأ أئمة اللغة في تبيّن معاني مفردات القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

قال الفراء والزجاج: المُقْمح: الغاض بصره بعد رأسه، يقال: أَقْمَحَ البعير رأسه وقَمَحَ؛ إذا رفعه ولم يشرب الماء، وأنشدوا لبشر ابن أبي خازم الأسدي يذكر سفينة كانوا فيها:

ونحن علىٰ جوانبها قعود   نغضُّ الطَّرْف كالإبل القِماح(٢)

وقال تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]، قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الأصمعي سمعت أعرابيًا يقول لآخر: أعطني ما في رهبك، فسألته عن الرهب، فقال: الكمّ، فعلىٰ هذا يكون معناه: اضمم إليك يدك وأخرجها من الكمّ»(٣).

وأدل دليل وأوضحه علىٰ الاستفادة من ألسنة العرب قبل اعوجاجها السبب الباعث علىٰ وضع النحو، فقد قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: من يقرئني شيئًا مما أنزل الله تعالىٰ علىٰ محمد ﷺ؟ فأقرأه رجل (براءة)،

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (٢/ ٤٦٤).

(٢) رموز الكنوز (٦/ ٣١٢ - ٣١٣).

(٣) فتح القدير ص ١٣٢٥.

فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولِهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، بكسر اللام، فقال الأعرابي: أوقدْ برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالىٰ برئ من رسوله فأنا أبرأ منه.

فبلغ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ - مقالة الأعرابي -، فدعاه، فقال: يا أعرابي، أتبْرأ من رسول الله ﷺ؟ قال: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ولا عِلمَ لي بالقرآن، فسألت: من يقرئني، فأقرأني هذه السورة (براءة)، فقال: (أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولِهِ)، فقلت: أوقدْ برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالىٰ بريء من رسوله فأنا أبرأ منه.

فقال له عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ليس هكذا يا أعرابي!

فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟

فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منه.

فأمر عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن لا يُقْرِئَ القرآن إلا عالم باللغة، فأمر أبا الأسود أن يضع النحو[١].

ومما ينبغي التنبيه عليه هو أن الاستعانة بشعر العرب إنما هو في بيان غريب الألفاظ والمفردات، لأن القرآن يجب أن يُحمل علىٰ معانيه المعهودة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٢٨هـ)**[٢]: «إن نقله عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: « [إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر]، لا يدل علىٰ مورد النزاع، فإن هذه الآيات والأحاديث المفهوم معناها الظاهر مدلولها لم يخف علينا حتىٰ نطلبه من الشعر، وإنما قال ذلك في الألفاظ الغريبة المتداولة، مثل قَسْورة، وضيزىٰ، ونحو ذلك من الألفاظ الغريبة».

(١) الصعقة الغضبية في الرد علىٰ منكري العربية ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتوىٰ الحموية ص ١١٢.



٥٧ - الاستظهار بقراءات الآية

فيحصل من ضم قراءات الآية الواحدة بعضها إلىٰ بعض ضبط المعنىٰ ودفع الإيهامات وزيادة الفوائد، ما لا يحصل بقراءة الآية بقراءة واحدة.

قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم أحتج إلىٰ أن أسأل ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن كثير من القرآن مما سألت[(١)].

مثال (١): قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾، قال ابن أبي زمنين رَحِمَهُٱللَّهُ[(٢)]: «من قرأها بالنصب فعلىٰ معنىٰ: قل أنفقوا العفوَ - ما فضل عن نفقتك أو نفقة عيالك -، ومن قرأها بالرفع فعلىٰ معنىٰ: الذي ينفقون العفوُ، والعفوُ في اللغة الفضل والكثرة».

مثال (٢): قال تعالىٰ عن القوم الذين بين السدين: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]، وهناك قراءة (لا يُفْقهُون قولًا).

قال شيخنا العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: «بازدواج القراءتين نعرف أن هؤلاء القوم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم».

مثال (٣): قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

---

(١) جامع الترمذي ص (٦٦٣).

(٢) تفسير القرآن العزيز (١/ ٢٢٠).

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ﴾، قال البخاري في صحيحه: قرأ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «فامضوا»، قلت: وهي قراءة ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، وكان يقول: لو قرأتها «فاسعوا»، لسعيت حتىٰ يسقط ردائي، والمراد بالسعي: المشي».

مثال (٤): قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٢]، فقد قرأ يحيىٰ بن يعمر: «صوغ الملك»، وهذا يدل أن إناء الملك من ذهب أو فضة[١].

مثال (٥): قوله تعالىٰ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، فالنبي ﷺ لا يأمر ربه وهو عبد من عبيده، وإنما يمتثل أمر ربه له، يوضح ذلك ضم القراءات بعضها إلىٰ بعض.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حفص عن عاصم (قل ربِّ)، بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر. وقرأ حفص وحده (قال)، بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الماضي. وقراءة الجمهور تدل علىٰ أنه ﷺ أُمر أن يقول ذلك، وقراءة حفص تدل علىٰ أنه امتثل الأمر بالفعل».

مثال (٦): قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨ - ٢٩].

ففي قراءة عبد الله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ﴿لكي يعلم أهل الكتاب ألَّا يقدرون﴾،

---

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٥٠).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣١٠هـ)(١): «لأن العرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مُصرَّح، كقوله في الجحد السابق الذي لم يُصرِّح به: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

مثال (٧): قال تعالىٰ في مراودة امرأة العزيز ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وفي قراءة أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء، قال الزجاج: هو من الهيئة، كأنها قالت: تهيَّأْتُ لك(٢).

يعني أنها تهيأت وتجمّلت له وراودته وهي في أحلىٰ حُلّة ولم تكن مبتذلة، فكانت فتنتها أعظم.



(١) جامع البيان (٢٢/ ٤٤٤).

(٢) رموز الكنوز (٣/ ٣٠٨).



٥٨- التمييز بين القراءة والتفسير

طالب العلم يجد في كثير من الآيات قراءات متنوعة، وأحيانًا يُذكر مع هذه الآيات كلمات تفسيرية للصحابة، فليتنبه طالب العلم إلىٰ ذلك.

فبعض الصحابة يذكر تفسيره للآية فيغلط عليه البعض وينقله علىٰ أنه قراءة، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يكفي صحة سندها في إثبات كونها قرآنًا، ولاسيما والكثير منها مما يحتمل أن يكون من التأويل الذي قُرن إلىٰ التنزيل فصار يظن أنه منه».

مثال: قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم في مواسم الحج».

فقوله: «في مواسم الحج» تفسير من ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وليس قراءة.

كذلك قرأ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدّث»، في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، فأراد ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بيان أن الشيطان لا سبيل له إلىٰ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كالأنبياء لأنه مُحدّث ملهم للحق، ولأن النبي ﷺ قال فيه: «**ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط، إلا سلك فجًا غير فجك**»[١].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كأن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا زاد فيها [ولا محدّث]».

---

(١) رواه البخاري.

والتمييز بين القراءة وتفسير الصحابة يكون بمراجعة كتب القراءات، وكتب التفسير، فيتحقق طالب العلم من القراءات ويميِّز بين تفسير الآية وقراءتها.







٥٩ - القراءات الغير سبعية يحتج بها في الأحكام

القراء السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، اشتهر أمرهم في المائة الثالثة لما اقتصر أبو بكر ابن مجاهد علىٰ قراءتهم.

وهؤلاء القراء أسانيدهم متصلة بالصحابة، قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥١٦هـ)[1]: «والقراء المعروفون أسندوا قراءتهم إلىٰ الصحابة، فعبدالله بن كثير، ونافع، أسندا إلىٰ أُبَيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعبدالله بن عامر أسند إلىٰ عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأسند عاصم إلىٰ علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وزيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأسند حمزة إلىٰ عثمان وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهؤلاء قرؤوا علىٰ النبي ﷺ، فثبت أن القرآن كان مجموعًا كله في صدور الرجال».

والاقتصار علىٰ القراء السبعة كان غرضه ضبط القراءة بقراءتهم لا تحريم قراءة غيرهم، قال مكي بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الرواة عن الأئمة من القراء كانوا في العصر الثاني والثالث كثيرًا في العدد، كثيرًا في الاختلاف، فأراد الناس في العصر الرابع أن يقتصروا من القراءات التي توافق المصحف علىٰ ما سهل حفظه، وتنضبط القراءة به».

---

(١) شرح السنة (٤/ ٥١٨).

(٢) المرشد الوجيز ص ١٥٦.

وليس معنىٰ هذا أن سائر القراءات مهجورة، كلا، قال مكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولم تترك القراءة برواية غيرهم، واختيار من أتىٰ بعدهم إلىٰ الآن، فهذه قراءة يعقوب الحضرمي غير متروكة، وكذلك قراءة عاصم الجحدري، وقراءة أبي جعفر، وشيبة، إمامي نافع».

وبهذا يتبين أنه تجوز القراءة بغير قراءة السبعة إذا كانت ثابتة عن النبي ﷺ، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا يجب علىٰ الإنسان التقيد بقراءة السبعة المشهورين باتفاق المسلمين، بل إذا وافقت رسم المصحف الإمام وصحّت في العربية وصحَّ سندها جازت القراءة بها، وصحت الصلاة بها اتفاقًا».

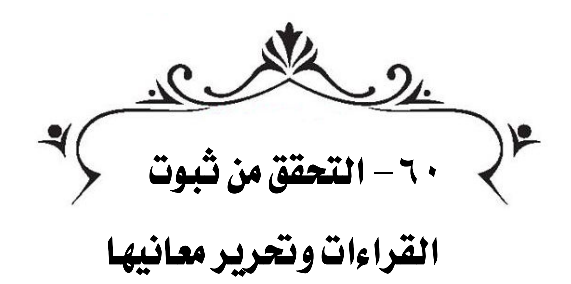
ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام وهو مما يحتاج معرفة حكمه المفسر والفقيه هو أنه في باب الاستدلال الفقهي إذا صحّت القراءة صحَّ الاستدلال بها علىٰ الحكم، لا يشترط أن تكون القراءة متواترة، وقد حكىٰ الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إجماع العلماء علىٰ ذلك[٣].



(١) المرشد الوجيز ص ١٥٧.

(٢) إعلام الموقعين ص ٩٣١ - ٩٣٢.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٣٤/ ٤٢ - ٤٣).



٦٠- التحقق من ثبوت القراءات وتحرير معانيها

ليس كل ما يُذكر علىٰ أنه قراءة يكون صحيحًا، فلذلك لا بد من التحقق من ثبوت القراءة، ثم بعد ذلك يحتاج طالب العلم إلىٰ تحرير معنىٰ القراءة إذا كان في معناها خلاف بين الأئمة.

مثال (١): قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المراد بالخرج والخراج هنا: الأجر والجزاء.

وقرأ هذين الحرفين ابن عامر؛ ﴿خرجا فخرج ربك﴾، بإسكان الراء فيهما معًا، وحذف الألف فيهما، وقرأ حمزة والكسائي: خراجًا فخراج ربك بفتح الراء بعدها ألف فيهما معًا، وقرأ الباقون: خرجًا فخراج ربك بإسكان الراء، وحذف الألف في الأول، وفتح الراء وإثبات الألف في الثاني، والتحقيق: أن معنىٰ الخرج والخراج واحد، وأنهما لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان، خلافًا لمن زعم أن بين معناهما فرقًا زاعمًا أن الخرج ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه، ومعنىٰ الآية: لا يساعد علىٰ هذا الفرق كما ترىٰ».

مثال (٢): قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٨٠٦).

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فقد توهم عروة بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة، وأزالت خالته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عنه هذا الإشكال بأنه لو كان المراد كما فهمه لكانت الآية (فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما)، ونفي الجناح في الآية جاء جوابًا لسؤال الصحابة عما كانوا عليه قبل الإسلام من إهلالهم لمناة الطاغية عند الصفا.

وقد ذكر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جملة قراءات الآية (فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما).

وقد أجاب العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه القراءة بعدة أجوبة:

١- أن هذه القراءة لم تثبت قرآنًا.

٢- أنها مخالفة للقراءة المجمع عليها المتواترة، وما خالف المتواتر المجمع عليه إن لم يمكن الجمع بينهما فهو باطل، والنفي والإثبات لا يمكن الجمع بينهما لأنهما نقيضان.

٣- ما ذكره ابن حجر في الفتح عن الطبري والطحاوي، من أن قراءة: ﴿أن لا يطوف بهما﴾ محمولة على القراءة المشهورة، و«لا» زائدة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في جواب الطبري والطحاوي**: لا يخلو من تكلف[1].



(١) أضواء البيان (٥/ ٢٤٨ - ٢٤٩).



٦١- ضم نص إلى آخر حيث يُكمّل معناه

فيحصل بسبب ذلك فوائد واستنباطات مهمة. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وإن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم عشرة أحكام أو أكثر من ذلك.

ومنهم من يقتصر في الفهم علىٰ مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته، وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلىٰ نص آخر متعلق به فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا علىٰ ذلك اللفظ بمفرده.

وهذا باب عجيب من فهم القرآن: لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، كما فهم ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من قوله تعالىٰ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، مع قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أن المرأة قد تلد لستة أشهر».

وكذلك تأمل اقتران الألفاظ - بعضها ببعض فإن لها معان مقصودة، مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

[الأعراف: ٢٠٥]

---

(١) إعلام الموقعين باختصار الشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ٧٢١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء، مع دلالته علىٰ اقتران الخفية بالدعاء والخيفة بالذكر أيضًا، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء، لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور».

وكذلك استفاد شيخنا العلَّامة المحقِّق المتفنِّن محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ضمِّ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١]، مع قوله تعالىٰ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]: أن الشُّكر هو العمل الصَّالح، حيث قال[(٢)]: «يتفرّع من الجمع بين الآيتين: أن الشكر هو العمل الصالح؛ لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ**»، والذي أمر به المرسلين شيئان:

الأول: الأكل من الطيبات.

الثاني: العمل الصالح.

فليس كل من قال: الشكر لله، والحمد لله. يكون شاكرًا، حتىٰ يعمل صالحًا، ولهذا قال بعض الفقهاء: الشكر طاعة المنعم؛ أي: القيام بطاعته، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١]».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٢١ - ٢٢).

(٢) شرح الأربعين النَّوويَّة (ص١٨٠).



٦٢ - العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

هذه القاعدة من آكد قواعد التفسير، فإن كثيرًا من نصوص القرآن وردت علىٰ أسباب خاصة، ونزلت في أقوام قد مضوا، والقرآن جعله الله خطابًا لخلقه جميعًا إلىٰ يوم القيامة، لا يجوز أن يعتقد في تلك الآيات الواردة علىٰ أسباب خاصة أنها خطاب خاص لهم.

ومن أوضح الأدلة وأصرحها دلالة علىٰ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «موجب أن القرآن منذر به ومخاطب بأحكامه من أدرك رسول الله ﷺ ومن لم يدركه إلىٰ يوم القيامة».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لأن القرآن نزل تشريعًا عامًّا لجميع الأمة، فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه».

وتلك الأسباب الخاصة التي نزل بسببها بعض القرآن نظائرها قائمة في أحوال المسلمين منذ نزل القرآن وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، والأحكام والمعاني التي في تلك الآيات مقصودها هداية الخلق جميعًا للتي هي أقوم.

---

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ٣٣٣).

(٢) أصول في التفسير ص ١٦.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل علىٰ الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد علىٰ سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.

والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرًا ونهيًا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرًا بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضًا».

مثال (١): قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، فهذا خطاب عام للولاة، ولعموم الناس أيضًا، مع أن الآية وردت علىٰ سبب خاص وهو تسليم مفتاح الكعبة للنبي ﷺ الذي أعاده لعثمان بن طلحة الحجبي.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وقد روي عن علي وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب أنها خطاب لولاة المسلمين، والأوّل أظهر، وورودها علىٰ سبب كما سيأتي لا ينافي ما فيها من العموم، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتدخل الولاة في هذا الخطاب دخولًا أوليًا، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات ورد الظلامات، وتحري العدل في أحكامهم، ويدخل غيرهم من الناس

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢٣٩).

(٢) فتح القدير ص ٣٩١.

في الخطاب».

مثال (٢): قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يدخل في عمومه أيضًا أن من عليه دين لا يُطالب به مع إعساره، بل يُنظر إلىٰ حال يساره». ثم قال: «وعلىٰ هذا جمهور العلماء خلافًا لشريح في قوله: إن الآية مختصة بديون الربا في الجاهلية».

وقد وجدنا السلف يُنزلون كثيرًا من النصوص في الكفار علىٰ أهل البدع، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فسر سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في رواية سعيد بن منصور أن ذلك بسبب الزيغ الحاصل فيهم، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ وهو راجع إلىٰ آية آل عمران، فكأنه - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - أدخل الحرورية في الآيتين بالمعنىٰ، وهو الزيغ في إحداهما، والأوصاف المذكورة في الأخرىٰ، لأنها فيهم موجودة.

فآية الوعيد تشتمل بلفظها، لأن اللفظ فيها يقتضي العموم لغة، وإن حملناها علىٰ الكفار خصوصًا، فهي تعطي أيضًا فيهم حكمًا من جهة ترتيب الجزاء علىٰ الأوصاف المذكورة، حسبما هو مبيَّن في الأصول.

وكذلك آية الصف، لأنها خاصة بقوم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن هنا كان سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يسميهم الفاسقين - أعني: الحرورية، لأن معنىٰ الآية واقع عليهم، وقد جاء فيها ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، ومن هنا يفهم أنها لا تختصُّ

---

(١) الاعتصام (١/ ٩٢ - ٩٣).

(٢) جامع العلوم والكم (٢/ ٢٥٥).

من أهل البدعة بالحرورية، بل تعمُّ كلَّ من اتصف بتلك الأوصاف التي أصلها الزيغ، وهو الميل عن الحق اتباعًا للهوىٰ.

وإنما فسَّرها سعد رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ بالحرورية، لأنه إنما سُئل عنهم، وإنما سُئل عنهم علىٰ الخصوص، والله أعلم، لأنهم أول من ابتدع في دين الله، فلا يقتضي ذلك تخصيصًا».





٦٣ - التمييز بين اللفظ الوارد على معنى خاص، وبين العام الوارد على سبب معيّن

فالأول يدل علىٰ الخصوص، بخلاف الثاني، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالأول مثل: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فهذا عام المراد به الخصوص من غير الكتابيات. وكذلك قوله ﷺ: «**ليس من البر الصوم في السفر**»، فهذا وارد علىٰ من أجهده الصوم، وهو مسافر.

وقد وقع بسبب الغلط في هذا النوع أقبح البدع ومنها بدعة التكفير بالكبيرة.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

ف «السيئة» هنا هي الشرك كما فسرها ابن عباس وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعكرمة، وأبو وائل، وأبو العالية، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعًا.

ومجاهد عنه رواية أخرىٰ أنها الذنوب تحيط بالقلب كلما عمل ذنبًا ارتفعت حتىٰ تغشىٰ القلب.

ووجهها **أبو علي الفارسي** رَحِمَهُ اللَّهُ: أن المعنىٰ: أحاطت بحسنته خطيئته، أي

أحطبتها من حيث أن المحيط أكثر من المحاط به[١].

ومجاهد قطعًا لا يقول إنهم لا يخرجون من النار، لا بشفاعة ولا غيرها[٢].

وأما الخوارج فحملوا «السيئة» علىٰ عمومها والعياذ بالله وكفّروا بالكبيرة، وغلاتهم يكفرون بالصغيرة، وهذا لا شك أنه باطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «علىٰ تفسير الأكثرين: فالسيئة: الشرك، وهذا أظهر الأقوال، لأنه سبحانه غاير بين لفظ المكسوب، والمحيط. فقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]، فلو كان المراد بهذا هذا لم يغاير بين اللفظين، فعلم أن المراد بالسيئة: الشرك، والمشرك له خطايا أخر غير الشرك، فذكر أن خطاياه أحاطت به، فلم يتب منها. وعلىٰ هذا فيكون الخلود في الآية خلود الكفار، ولهذا قابله بخلود المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]، وأيضًا فقوله: «سيئة» نكرة، وليس المراد جنس السيئات بالاتفاق، فلو كسب شيئًا من السيئات الصغائر ومات مُصرًّا علىٰ ذلك مع إيمانه وكثرة حسناته لم يستحق هذا الوعيد بالكتاب والسُّنَّة والإجماع.

وأيضًا فلفظ[٤]: « «السيئة» قد جاء في غير موضع وأريد به الشرك». وقال: ««فالسيئة»، هي في نفسها قبيحة خبيثة، وهي تسوء صاحبها أي: تضره، كما أن الحسنة تسر وتحسن صاحبها، والذي هو سيئةً مطلقًا لا تمحوه حسنته هو الكفر،

(١) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٨٥).

(٢) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٧٨).

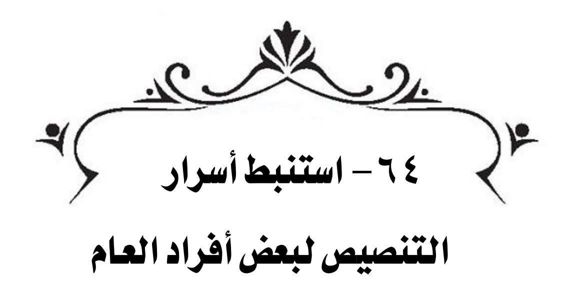
(٣) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٨٨).

(٤) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٨٩ - ٣٩٠).

فكان وصف السوء لازمًا له، أي: هو في نفسه سيئ ويسوء صاحبه، وأما ما دون الكفر فقد يغفر لصاحبه فلا يسوؤه.

ولما قال: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ دلَّ علىٰ أن السيئة ساءته ودخلت في الخطايا التي أحاطت به، فلا يمكنه الخروج منها لا بحسنات أخر ولا بغيرها، فإن الكفر لا يقابله شيء من الحسنات إلا التوبة منه بالإيمان».





٦٤- استنبط أسرار التنصيص لبعض أفراد العام

النص العام يجب المحافظة علىٰ عمومه ما لم يدخله التخصيص، وطالب العلم ينبغي عليه أن يُميز بين تخصيص العام، وذكر العام ببعض أفراده، فإن هذا الأخير لا يقتضي التخصيص.

ومع هذا ينبغي علىٰ طالب العلم أن يتدبّر المعاني التي من أجلها نصّ الله علىٰ بعض أفراد العام دون سائر أنواعه، فإن الله لم يذكر ذلك عبثًا.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إذا كانت المعاملات بغير قصد التجارة أكثر من التجارة، فلماذا لم يذكرها؟

فقيل: إنها لم تذكر لأن الغالب في تعامل الناس هو التجارة، وهي التي يقع فيها المشاحة، وأما غيرها: فالإهداء يصدر عن طيب نفس من المهدي، وكذلك العارية، وكذلك الرهن، وما اشتري للحاجة فالغالب أنه لا يحصل فيه تشاحن، لأن الإنسان يقصد به دفع الحاجة لا حصول الربح، فلهذا ذُكرت التجارة، وإلا

(١) تفسير سورة النساء (١/ ٢٥٢ - ٢٥٣).

فمن المعلوم أن العقود التي تقع عن تراض أكثر من عقود التجارة».







٦٥- ملاحظة ما اتفق معناه على اختلاف لفظه

فهذا ليس باختلاف محقق، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٩٠هـ)[١]: «يذكر في التفسير عن النبي ﷺ في ذلك شيء أو عن أحد من الصحابة أو غيرهم، ويكون ذلك المنقول بعض ما يشمله اللفظ، ثم يذكر غير ذلك القائل أشياء أخر مما يشمله اللفظ أيضًا، فينصّهما المفسرون علىٰ نصهما، فيظن أنه خلاف، كما نقلوا في المنّ أنه خبز رقاق، وقيل زنجبيل، وقيل الترنجبين، وقيل: شراب مزجوه بالماء، فهذا كله يشمله اللفظ، لأن الله منّ به عليهم، ولذلك جاء في الحديث: «الكمأة من المنّ الذي أنزل الله علىٰ بني إسرائيل»، فيكون المن جملة نِعم ذكر الناس منها آحادًا. و(الثاني) أن يذكر في النقل أشياء تتفق في المعنىٰ بحيث ترجع إلىٰ معنىٰ واحد، فيكون التفسير فيها علىٰ قول واحد، ويُوهم نقلها علىٰ اختلاف اللفظ أنه خلاف محقق، كما قالوا في السَّلوَىٰ أنه طير يشبه السُّماني، وقيل: طير أحمر صفته كذا، وقيل: طير بالهند أكبر من العصفور، وكذلك قالوا في المن شيء يسقط علىٰ الشجر فيؤكل، وقيل: صمغة حلوة، وقيل: الترنجبين، وقيل: مثل رُبّ غليظ، وقيل: عسل جامد، فمثل هذا يصح حمله علىٰ الموافقة وهو الظاهر فيها».

---

(١) الموافقات (٤/ ٢١٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الخلاف بين السلف قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلىٰ اختلاف تنوُّع لا اختلاف تضاد، كأن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل علىٰ معنىٰ في المسمىٰ غير المعنىٰ الآخر مع اتحاد المسمىٰ.

مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو القرآن – أي اتباعه – لقول النبي ﷺ في حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي رواه الترمذي ورواه أبو نعيم من طرق متعددة: «هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم». وقال بعضهم هو الإسلام لقوله ﷺ في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره: «**ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو من فوق الصراط، وداع يدعو علىٰ رأس الصراط، قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي علىٰ رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن**».

فهذان القولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبَّه علىٰ وصف غير الوصف الآخر، كما أن لفظ «صراط» يشعر بوصف ثالث، وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق العبودية، وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله ﷺ.

فهؤلاء كلهم أشاروا إلىٰ ذات واحدة، لكن وصفها كلٌّ بصفة من صفاتها.

الصنف الثاني: أن يذكر كلٌّ منهم من الاسم العام بعض أنواعه علىٰ سبيل التمثيل،

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ١١ – ١٥، باختصار.

وتنبيه المستمع علىٰ النوع لا علىٰ سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه.

مثال ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فقالوا السابق: الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلىٰ الاصفرار، وقالوا: السابق: المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع.

فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية وإنما ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به علىٰ نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطابق».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن أكثر أقوال السلف في التفسير متفقة غير مختلفة، مثال ذلك قول بعضهم في: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: إنه الإسلام، وقول آخر: إنه القرآن، وقول آخر: إنه السنة والجماعة، وقول آخر: إنه طريق العبودية، فهذه كلها صفات له متلازمة، لا متباينة، وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن والرسول بأسمائه».



(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٣٩١).



٦٦- استنباط الأحكام والفوائد من أحوال النظم القرآني

ملاحظة أحوال نظم الآية يوقفك علىٰ جملة من الفوائد والأحكام، فمثلًا: استنبط العلماء وجوب ترتيب غسل أعضاء الوضوء من خلال نظم آية الوضوء، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

فتأمل نظم الآية، كيف أدخل ممسوحًا بين مغسولات، وقطع النظير عن نظيره، والعرب لا تفعل مثل ذلك إلا لفائدة، ولا فائدة هنا سوىٰ الترتيب.

قالوا: وذلك لأن نظم الكلام المطابق للحكم أن تعْطف المغسول بعضه علىٰ بعض، فتقول: اغسلوا وجوهكم وأيديكم إلىٰ المرافق، وأرجلكم إلىٰ الكعبين، وامسحوا برؤوسكم. إذ ذلك عادة أهل اللغة في قولهم: رأيتُ الأمير ضرب زيدًا وعَمْرًا وخلع علىٰ بكرٍ. ولا يقولون: ضرب زيدًا وخلع علىٰ بكرٍ وضرب عمرًا، إلا أن يقصدوا حكاية الأفعال علىٰ ترتيب وجودها(١).

واستنبط العلماء كذلك عدم اشتراط استيعاب أصناف مصارف الزكاة الثمانية بالصدقة من نظم الآية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠]،

(١) الصعقة الغضبية في الرد علىٰ منكري العربية ص ٤٢٨ - ٤٢٩، تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٣.

قال الحافظ محمد ابن علي الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «دليل علىٰ أن هذه الأصناف مواضع للصدقات، لا أنهم مشتركون فيها حتىٰ يكون توزيعها علىٰ جميعهم فرضًا لا يجزئ غيره، ألا تراه جل وتعالىٰ يقول: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ فغيّر لفظ النسق علىٰ لام الفقراء، وليس يُعرف في معنىٰ الاشتراك أن يقال: هذا لفلان وفلان، وفي كذا».

ومن أمثلة الاستفادة من نظم الآية في الأحكام قوله تعالىٰ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩ - ٢٣٠].

فالضمير في قوله سبحانه ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾، أي إن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له بعدها، وهو مفهوم من قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾، فلا يكون عامًا في كل مطلق لما فيه من عود الضمير المطلق فيه إلىٰ غير موجود في الكلام قبله، ولا قائل به، مع أن قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾، جملة نكرة في سياق شرط ونفي، لكننا لا نقول إنها تفيد العموم لأننا لو قلنا به لأفضىٰ إلىٰ إلغاء الرد في الطلاق، وهذا مناقض لدين الإسلام، ولا قائل به. فتعين أن يكون قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾ إتمامًا لما قبله متصلًا به، فيكون الضمير عائدًا إلىٰ قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾، وهو في نظم الكلام متعين له شرعًا[(٢)].

---

(١) نكت القرآن (١/ ٥٤٣ - ٥٤٤).

(٢) سير الحاث إلىٰ علم الطلاق الثلاث ص ٥٢ - ٥٣.

واستنبط العلماء من نظم الآية: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]، علىٰ أنَّ المراد باللَّمس: الجماع، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين[1]: «لو حملناها علىٰ أن المراد بذلك المس باليد لكان الله تعالىٰ ذكر موجبين للطَّهارة من جنس واحد، مع أنَّه في طهارة الماء ذكر موجبتين من جنسين».



(١) تفسير سورة المائدة (١/ ٩٥).



٦٧- تأمل ما يقع في صيغ الخطاب من الالتفات

الالتفات في الخطاب هو نقل الكلام من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر[١].

أنواعه:

أ- الالتفات من التكلم إلىٰ الخطاب. مثاله: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

ب- الالتفات من التكلم إلىٰ الغيبة. مثاله: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ١ - ٢].

جـ- الالتفات من الخطاب إلىٰ التكلم. مثاله: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه: ٧٢ - ٧٣].

د- الالتفات من الخطاب إلىٰ الغيبة. مثاله: قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

هـ- الالتفات من الغيبة إلىٰ التكلم. مثاله: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ [مريم: ٨٨ - ٨٩].

و- الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب. مثاله: قوله تعالىٰ: ﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٨٢٠.

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ ﴾ [التوبة: ٣٥][1].

وفوائد الالتفات العامة:

١- استدرار السامع.

٢- تجديد نشاط السامع.

٣- دفع الملال عن السامع بدوام الأسلوب الواحد[2].

وكل التفات في موضعه من الآيات له فوائده الخاصة.

قال ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلىٰ الغيبة، أو من الغيبة إلىٰ الخطاب؛ لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك لفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلىٰ أسلوب، غير أنها لا تُحَدُّ بحدٍّ، ولا تُضْبَط بضابط، لكن يشار إلىٰ مواضع منها ليقاس عليها غيرها؛ فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلىٰ الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأولىٰ قد استُعمل في الانتقال من الخطاب إلىٰ الغيبة، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري علىٰ وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور علىٰ العناية بالمعنىٰ المقصود، وذلك المعنىٰ يتشعب شُعبًا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتىٰ بها علىٰ حسب الموضع الذي ترد فيه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «الالتفات له فائدة، وهي تنبيه المخاطب بما سيأتي بعد؛ لأنه إذا تغير نسق الكلام فلا بد أن يتوقف الإنسان

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٨٢٠ - ٨٢٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ص ٨٢٠.

(٣) المثل السائر (٢/ ٤).

(٤) تفسير سورة النساء (٢/ ٤٧٢).

متسائلًا: ما هو السبب الذي تغير به الكلام؟ وحينئذ ينتبه إلىٰ المعنىٰ أكثر.

أما الفوائد الأخرىٰ التي تتفرع علىٰ الالتفات، فكل مقام يذكر له بما يناسبه».

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣].

فتأمل قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ كيف ابتدأ الله خطابهم ثم التفت إلىٰ الإخبار عنهم ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «عدول عن خطابهم إلىٰ الإخبار عنهم، تذكيرًا لغيرهم وتعجيبًا له من مثل حالهم».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلىٰ ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلىٰ الإفضاء إلىٰ ما يخص المشركين فقال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ علىٰ طريقة الالتفات، أي وجرين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلىٰ أن قال: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾، فإن هذا ليس من شيم المؤمنين، فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أخرج من الخبر من عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلًا علىٰ القرينة لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين.

---

(١) رموز الكنوز (٣/ ٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٣٥).

وهذا ضرب من الالتفات لم ينبه عليه أهل المعاني، وهو كالتخصيص بطريق الرمز».

مثال آخر: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

قال ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «صرف الكلام عن خطاب نفسه إلىٰ خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم، لأن ذلك داخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم!



(١) المثل السائر (٢/ ٧).



٦٨ - التفصيل بعد الإجمال والعكس

القرآن غاية في الجمال، فصاحة وبلاغة، ومن جماله تنوّع أساليبه في عرض أحكامه وأخباره، وفيما يتعلق بالبيان نجده تارة يُجمل ثم يُفصّل، وأخرىٰ يُفصّل ثم يُجمل.

أما تفصيله بعد الإجمال ففائدته التشويق لإزالة الإجمال ومعرفة البيان، قال ابن النجار الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الكلام إذا ورد مجملًا ثم بُيّن وفُصِّل أوقع عند النفس من ذكره مبيّنًا ابتداء».

مثال: قال تعالىٰ: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٠].
وقد اختلف العلماء في بيان المجمل في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٦١هـ)[2]: «﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: إلا ما يقرأ عليكم تحريمه، وهو ما ذكره في سورة المائدة في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ...﴾ الآية [المائدة: ٣].

وقيل المعنىٰ: وأُحلت لكم الأنعام في حال إحرامكم، إلا ما يتلىٰ عليكم في

(١) شرح الكوكب المنير (٣/ ٤١٥).

(٢) رموز الكنوز (٥/ ٥٠).

الصيد فإنه حرام».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لم يبين هنا هذا الذي يتلىٰ عليهم المستثنىٰ من حلية الأنعام، ولكنه بيَّنه بقوله في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وهذا الذي ذكرنا هو الصواب، أما ما قاله جماعات من أهل التفسير من أن الآية التي بينت الإجمال في قوله تعالىٰ هنا: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أنها قوله تعالىٰ في المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ...﴾ الآية [المائدة: ٣]. فهو غلط، لأن المائدة من آخر ما نزل من القرآن، وآية الحج هذه نازلة قبل نزول المائدة بكثير، فلا يصح أن يحال البيان عليها في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، بل المبين لذلك الإجمال آية الأنعام التي ذكرنا، لأنها نازلة بمكة، فيصح أن تكون مبينة لآية الحج المذكورة كما نبه عليه غير واحد».

وأما إجماله بعد البيان ففائدته أن يذهب الذهن كل مذهب في معرفة ما هو مندرج في المجمل لاسيما وقد انتهىٰ بيان الشرع من تفصيل بعضه.

مثاله: قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧ - ١٨].

قال العلامة محمد بن علي الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ١٢٥٠هـ)**[٢]: «ذكر منافع

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٠٨).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٦٢).

العصا، ثم عقبه بالإجمال».

وأعظم ما حصل من انتفاع موسى من عصاه وهو مما أُجمل في لفظ الآية إبطالها لسحر سحرة فرعون.

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الظاهر أن قوله ﴿مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾، حكاية لقول موسىٰ بمماثله، فيكون إيجازًا بعد الإطناب، وكان يستطيع أن يزيد من ذكر فوائد العصا، ويجوز أن يكون حكاية لقول موسىٰ بحاصل معناه، أي عدّ منافع أخرىٰ، فالإيجاز من نظم القرآن لا من كلام موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٧٤هـ)**[(٢)]: «وقد تكلّف بعضهم بذكر شيء من تلك المآرب التي أُبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسىٰ صيرورتها ثعبانًا، فما كان يفر منها هاربًا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية».



(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٦ - ٢٠٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٩).



٦٩ - تلمّح ما في مفردات كلمات القرآن من المعاني

فهذا يأخذ بيديك إلىٰ كنوز عظيمة، قال تعالىٰ عن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

فما وقع من موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان من غير قصد، لأن الوكزة وهي الضرب بجمع الكف لا تقتل غالبًا.

وتأمل قوله تعالىٰ عن أصحاب الأعراف: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]، قال معمر: إن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، وقال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم.

وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع[١].

ومن ذلك قوله تعالىٰ عن يحيىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥]، قال العلماء: سلّمه الله في أوحش وأضعف المواطن حيث يكون الإنسان في غاية الضعف وقلة الحيلة والفقر إلىٰ الله، يوم يُولد فيرىٰ نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرىٰ قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٢).

فيرىٰ نفسه في محشر عظيم[١].

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]، قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، فإن قال قائل: الإنسان لا يقول قولًا إلا بفمه، فكيف يكون معنىٰ هذا الكلام؟ الجواب: أن معناه: أنهم قالوا هذا القول بلا حجة ولا بيان ولا برهان، وإنما كان مجرد قول بلا أصل»[٢].

ومن ذلك ما تلمحه العلماء من درجة تعاظم أفعال الخضر، فإنه في خرق السفينة قال له موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، وفي قتل الغلام قال له موسىٰ: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نُكرا: أي فظيعًا لا يُعرف في شريعة، وقيل: معناه جئت شيئًا أنكر من الأول، لأن خرق السفينة كان بسبيل من تداركه بالسَّدِّ والإصلاح. وقيل: النُّكر أقل من الإِمْر، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة». ورجح شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (نكرًا) أشد من (إمرًا)، لأن خرق السفينة قد يكون به الغرق وقد لا يكون، وهذا هو الذي حصل، لم تغرق السفينة، أما قتل النفس فهو منكر حادث لا احتمال فيه[٣].

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دلالة (وطرًا): «يدل علىٰ أن زيدًا قضىٰ وطره منها، ولم

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٤٥٥).

(٢) تفسير القرآن (٢/ ٣٠٢).

(٣) رموز الكنوز (٤/ ٣٣١).

تبق له بها حاجة، فطلقها باختياره»[١].

وتأمل قول النملة عن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، حيث استنبط العلماء منه تقوىٰ ورحمة وشفقة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجنوده بحيث أنهم لا يؤذون النملة ولا يحطمونها - يكسرونها - إلا خطأً حيث لم يشعروا بها[٢].

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١]، قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾، يقتضي أنهم غازون لا مغزوّون».

وكذلك تأمل قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾، فإنه يدل علىٰ أن السكران لا يعلم ما يقول، وإذا كان لا يعلم ما يقول صار قوله لغوًا لا عبرة به، وهذا هو القول الراجح، حتىٰ لو طلّق فإنه لا يقع طلاقه، ولو أعتق فإنه لا ينفذ عتقه، ولو وقف لا ينفذ إيقافه، وأيّ قول يقوله فإنه لا عبرة به؛ لأنه لا يعلم ما يقول».

وتأمل قوله تعالىٰ عن استطالة كفار قريش علىٰ المستضعفين من المؤمنين: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٨٧).

(٢) رموز الكنوز (٥/ ٤٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١١٧).

(٤) تفسير سورة النساء (١/ ٣٥٠).

[النساء: ٧٥]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي ذكر الولدان تسجيل علىٰ الكفرة بالإفراط في التعدي والبغي، حيث تعدىٰ ظلمهم وأذاهم إلىٰ الأطفال»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «جعل الخوف والجوع مذوقًا، وأضاف إليهما اللباس ليُشْعِر أنه لَبِسَ الجائعَ والخائفَ فشمله وأحاط به إحاطة اللِّباس باللَّابس».

وقال(٣): «الجوع والخوف إذا لبس البدن كان أعظم في الألم، بخلاف القليل منه، فهذه المعاني تدلُّ عليها هذه الألفاظ دون ما إذا قيل جاعت وخافت، فإنَّه يدلُّ علىٰ جنسٍ لا علىٰ عِظَمِ كيفيته وكميَّته، فهذا من كمال البيان الذي يعرف به الإنسان بعض قدر القرآن».



---

(١) رموز الكنوز (١/ ٥٦٠).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ١٨٨).

(٣) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ١٨٨) مختصرًا.



٧٠- احذر التفاسير المنقصة للمعاني

ألفاظ القرآن أقوىٰ وأفصح وأبلغ الألفاظ، فأحسن الكلام كلام الله، فاحرص أن تبرز جمال ألفاظه وبلاغة معانيه، وما تضمنته من درر وكنوز، فإن هذا من تعظيم القرآن وإعطائه حقه.

وتأمل ما سطره المفسرون أو بعضهم من معاني الآيات في ضوء هذا التقرير، فلا تقبل التفسير الذي ينقص معنىٰ الآية، فالذي ينبغي أن يسير عليه المفسرون تعظيم كلام الله، وإبراز قوة معانيه.

ولقد كان شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقظًا لهذا المنهج غاية اليقظة، يُحرر ما يذكره بعض المفسرين، ويُحذر من التفسيرات المنتقصة لمعاني ألفاظ القرآن.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المراد بالجنات هنا ما أعده الله عَزَّوَجَلَّ في الدار الآخرة لهؤلاء المؤمنين، ولا يحسن هنا أن نقول: الجنات جمع جنة، وهي البستان الكثير الأشجار؛ لأن هذا ينقص من شأن الجنة، إذ لا ينصرف إلا إلىٰ بساتيننا في الدنيا، وهي مرة تيبس ومرة تخضر، ومرة تصيبها الرياح، ومرة

(١) تفسير سورة النساء (١/ ٤٣٣).

تستقيم، لكن إذا قلت: الجنات: جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله سبحانه للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، حينئذ يبتهج القلب ويسر».







٧١- تأمل ما في انتقاء الألفاظ القرآنية من الدلالات البلاغية

إذا كنت حاضر الذهن من أن اللفظة القرآنية في تركيبها في آياتها لم تأت عبثًا، وإنما تكلم بها رب العالمين، أورثك ذلك التيقظ والملاحظة الشديدة لبلاغة تلك الألفاظ وجميل معانيها.

فتأمل مثلًا للتعبير القرآني كيف نعت الله «الشمس» بالضياء، و«القمر» بالنور، فهذا التخصيص في النعت لم يأت عبثًا.

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: ٥].

قال العلامة عبد القاهر الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٤٧١هـ)**: «(ضياء) مصدر كالبناء، والضياء أغلب من النور، لأنه يتعدىٰ إلىٰ غير ذاته أبدًا، والنور قد يتعدىٰ وقد لا يتعدىٰ».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل الشمس ضياء لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما تهمهم مشاهدته بما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم.

وجعل القمر نورًا للانتفاع بنوره انتفاعًا مناسبًا للحاجة التي قد تعرض إلىٰ طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة وهو الليل. ولذلك جُعل نوره أضعف ليُنتفع به بقدر ضرورة المنتفع، فمن لم يضطر إلىٰ الانتفاع به لا يشعرُ بنوره ولا يصرفه ذلك عن سكونه الذي جُعل ظلام الليل لحصوله، ولو جعلت الشمس دائمة

الظهور للناس لاستووا في استدامة الانتفاع بضيائها فيشغلهم ذلك عن السكون الذي يستجدون به ما فتر من قواهم العصبية التي بها نشاطهم وكمال حياتهم.

والضياء: النور الساطع القوي، لأنه يضيء للرائي. وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذي يوضح الأشياء، فالضياء أقوىٰ من الضوء».

ثم قال[1]: «والنور: الشعاع، وهو مشتق من اسم النار، وهو أعم من الضياء، يصدق علىٰ الشعاع الضعيف والشعاع القوي، فضياء الشمس نور، ونور القمر ليس بضياء».

وتأمل قوله تعالىٰ في رد فرية الكفار في وصفهم النبي ﷺ بالجنون: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٦٦١هـ)**[2]: «عدل عن اسمه العلم، وهو محمد، أو صفته العالية وهي الرسول، وأضافه إليهم باسم الصحبة، فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾، ليبقي عليهم قبيح ما أقدموا عليه من نسبتهم الجنون إلىٰ من صاحبوه دهرًا طويلًا ولازموه عمرًا مديدًا، وعلموا ما طُبع عليه من الأخلاق الكريمة والأوصاف الجميلة، والفطرة السليمة، وخلّوه من النقائص الظاهرة والباطنة، فأفاد قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ ذمّهم علىٰ كذبهم وظلمهم بنسبتهم الجنون إلىٰ من صحبوه وعرفوا راجح عقله، وتذكيرهم باسم الصحبة ما يجب للصاحب علىٰ صاحبه من المعاضدة والمناصرة، وترقيقهم عليه، وتهييج طباعهم علىٰ الإحسان إليه، وهذا من الرموز التي لا يهتدي إليها إلا غوّاص علىٰ معاني كتاب الله تعالىٰ، بحّاث عن غوامضه وأسراره».

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٩٤).

(٢) رموز الكنوز (٢/ ٣٢٩ - ٣٣٠).



٧٢- تأمل ما في اقتران الألفاظ من المعاني

القرآن كلام الله غاية في الفصاحة والبلاغة والبيان، واقتران الألفاظ بعضها ببعض له دلالات ومعاني جميلة، قرن الله بينها ليحصل المعنىٰ البديع الذي أوجبه ذلك الاقتران الذي لم يأت عبثًا.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء، مع دلالته علىٰ اقتران الخفية بالدعاء، والخيفة بالذكر أيضًا، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء، لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور».



---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٢١ - ٢٢).



٧٣- استعمال اللفظ المشترك في معانيه حيث لا تتنافى

اللفظ الدائر بين احتمالين فصاعدًا بسبب الوضع هو المشترك[١]، ومن خلال استقراء نصوص الشريعة نجد أحيانًا أن اللفظ المشترك لا بد من تعيين أحد معانيه حيث يتعذر حمله على كل معانيه، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، حيث يتعذر حمل «القرء» على الحيض والطهارة معًا، لذلك لا بد من الترجيح بالمرجحات الموجبة لتعيين أحد المعنيين، قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المعهود في لسان الشرع استعمال القرء بمعنى الحيض».

وأحيانًا أخرى نجد أن اللفظ المشترك في القرآن يمكن حمله على كل معانيه، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: ١٥٣]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: قوله: ﴿مُّبِينًا﴾ من أبان، وهو صالح لأن يكون من «أبان» اللازم، أو «أبان» المتعدي؛ لأن كلمة «أبان» رباعية تكون لازمة، كما يقال: أبان الصبح، فهذه لازمة يعني: بان، وتكون متعدية كما تقول: أبان لي هذا الرجل ما أشكل علي، فهذا السلطان الذي أوتيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مبين مظهر للحق، وهو بيّن بنفسه، وهذا مبني على القول الراجح وهو جواز

(١) شرح تنقيح الفصول ص(٢٧٤).

(٢) المغني (١١/ ٢١٠).

(٣) تفسير سورة النساء (٢/ ٤١١).

استعمال المشترك في معنيين، والمشترك: هو ما تعدد معناه واتحد لفظه، فلفظه لفظًا واحدًا يصلح للمعنيين فأكثر، مثل كلمة «العين»، فإنها تكون للعين الباصرة، وتكون للذهب، فيسمىٰ عينًا، وتكون للشمس، تسمىٰ عينًا، وتكون للماء الجاري، تسمىٰ عينًا، فهذا المشترك، فهل يمكن أن يستعمل المشترك في جميع المعاني التي يصلح لها؟ الجواب: نقول: يمكن، لكن لا بد من قرينة، ولا بد من أن لا يتنافىٰ المعنيان، فقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير: ١٧]، قال العلماء: ﴿عَسۡعَسَ﴾، كلمة تصلح للإقبال والإدبار، أي: إذا أقبل وأدبر؛ لأنهما لا يتنافيان، فيقسم الله بالليل حين إقباله، وذلك عند غروب الشمس، ويقسم بالليل حين إدباره، وذلك عند طلوع الفجر أو طلوع الشمس».





٧٤- حذف المعمول يفيد العموم

حذف متعلق الفعل وما في معناه يفيد العموم، وملاحظة ذلك يوقفك علىٰ ما في الآيات من عموم المعاني والفوائد الجميلة.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الفعل أو ما هو في معناه متىٰ قُيِّد بشيء تقيَّد به، فإذا أطلقه الله تعالىٰ وحذَف المُتعلَّق فعمم ذلك المعنىٰ، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيرًا من التصريح بالمتعلَّقات، وأجمع للمعاني النافعة».

مثال: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فهنا حُذف المعمول ليفيد العموم، فهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في العقيدة والأخلاق والعبادات والاقتصاد وكل شيء.

قال ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الاقتصار علىٰ أقوم ولم يذكر من كذا إيجاز، والمعنىٰ مفهوم، أي للتي هي أقوم من كل ما غايرها فهي النهاية في القوام».

وقال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أي للحالة التي هي أقوم الحالات، أو إلىٰ الملة، أو للطريقة التي هي أقوم وأمثل، من توحيد الله تعالىٰ وطاعته، وتصديق رسله، والعمل بالمعروف، ومكارم الأخلاق».

---

(١) القواعد الحسان ص ٤١.

(٢) المحرر الوجيز ص ٢٦٥.

(٣) رموز الكنوز (٤/ ١٣٤).

وقال **الزمخشري**[(١)]: «أينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه، من فخامة تفقد مع إيضاحه».



(١) محاسن التأويل (١٠/ ٣٩٠٧).



٧٥- التحرز مما توارد الخطأ في نقله وتفسيره

كتب التفسير قارئها يحتاج إلىٰ حذر تام في قبول ما سطَّره المفسرون، فبعض الأقوال الضعيفة فاشية في كتب التفسير، فلا تظن أن ورودها في أكثر من كتاب دليل صحتها، بل تثبت، وتحقق من صحتها بعرضها علىٰ الصحيح من تفاسير الصحابة والتابعين، وما يحرره المحققون من المفسرين كابن جرير الطبري، وابن كثير، وابن سعدي، والشنقيطي، وغيرهم رَحِمَهُمُٱللَّهُ.

فما أكثر ما يتوارد المفسرون علىٰ نقل أقوال ضعيفة، لاسيما إذا استشعرت أن غرض بعض المفسرين نقل كل ما قيل في الآية.

قال الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي في شأن ما تداوله المفسرون في قصة زواج النبي ﷺ من زينب رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «وقد تسامح المفسرون هنا، وتبع آخرهم أولهم في نقل ما كان الواجب تركه»[١].

وقال الشوكاني رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «كثيرًا ما يقع لأهل العلم الوهم الباطل، ثم يبْنىٰ عليه ما هو أبطل منه، وينقله عنه من يهاب الرد عليه، فيحرر في كتب التفسير ونحوها من زائف الأقوال، وباطل الآراء، ما يضحك منه تارة، ويُبكىٰ منه أخرىٰ».

---

(١) ملاك التأويل (٢/ ٩٥١).

(٢) النشر لفوائد سورة العصر ص ٧٦.

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التحذير من نقل الأقوال الضعيفة من غير تحقيق[١]: «ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها علىٰ الأقوال، ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلمًا للمتقدم، حتىٰ يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفسير ما يقع».

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفاسير المتأخرين**[٢]: «أَلَّف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال تترىٰ، فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظانًا أن له أصلًا غير ملتفت إلىٰ تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير».



(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٠٣.

(٢) الإتقان (٢/ ١٨ - ٤٢٠).



٧٦- لا يُقال في القرآن بالرأي

يجب علىٰ المسلم أن يحاذر تفسير القرآن برأيه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال النبي ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»(١).

وكان الصحابة يعظمون القول في القرآن برأيهم، قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ **فيمن يفسر القرآن برأيه**: «لو أن لي سلطانًا علىٰ من يفسر القرآن لضربت عنقه».

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويحرم تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواجب علىٰ المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالىٰ، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون معظمًا لهذه الشهادة خائفًا من أن يقول علىٰ الله بلا علم، فيقع فيما حرَّم الله فيخزىٰ بذلك يوم القيامة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن

---

(١) رواه الطبري والنسائي والترمذي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

﴿تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] ».

والقول في القرآن بالرأي حرام ولو وافق صاحبه الحق، لأن إصابته الحق كانت تخرصًا، قال النبي ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أُمر به، فلو أنه أصاب المعنىٰ في نفس الأمر لكان قد أخطأ، لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس علىٰ جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر».

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ١٢٥٤ - رقم ٨٠٣٢)، وأبو داود كتاب العلم باب الكلام في كتاب الله بلا علم (ص ٥٢٤ - رقم ٣٦٥٢)، والترمذي (ص ٦٦٣ - رقم ٢٩٥٢)، وقال: هذا حديث غريب، وصححه العلامة الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٦٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١١).



٧٧- لا تتأوَّل القرآن بالمعقول وكتب الأدب

النبي ﷺ بعثه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لإبلاغ القرآن ومعانيه، قال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، والنَّبي ﷺ بلَّغ البلاغ المبين، وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين أخذوا عنه بلَّغوا معاني القرآن وأحكامه، وكذلك من أخذ عنهم العلم من خيار التَّابعين، فالعدول عن سبيلهم والقول في القرآن بسوانح الخواطر وبالمعقول غير الصَّريح؛ مشاقَّة ومحادَّة لله ورسوله ﷺ، ومن أسباب ضلال الاعتقاد والفقه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «طريقة سائر أئمَّة المسلمين: لا يعدلون عن بيان الرَّسول ﷺ إذا وجدوا إلىٰ ذلك سبيلًا؛ ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع الَّتي مضمونها أنَّه يقول علىٰ الله ورسوله ما لا يعلم، أو غير الحقِّ، وهذا ممَّا حرَّمه الله ورسوله ﷺ. وقال تعالىٰ في الشَّيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩]».

ولسنا نمنع استنباط الأحكام من دلالة ألفاظ القرآن، ولا إظهار مكنون

---

(١) الإيمان (ص٢٨٠)، ط: دار الحديث - القاهرة.

بلاغته ومعانيه الذي تضمَّنته ألفاظه، حاشا وكلَّا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لو أراد أحد أن يفسِّرها – الآية – بغير ما بيَّنه النَّبي ﷺ لم يُقبل منه، وأمَّا الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذلك من جنس علم البيان، وتحليل الأحكام هو زيادة في العلم، وبيان حكمة ألفاظ القرآن».

وكتب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناصحًا إلىٰ أبي عبد الرحيم الجوزجاني[٢]: «اعلم – رحمك الله – أنَّ الخصومة في الدِّين ليست من طريق أهل السُّنَّة، وأنَّ تأويل من تأوَّل القرآن بلا سنَّةٍ تدلُّ علىٰ معنىٰ ما أراد الله منه، أو أثرٍ عن أصحاب رسول الله ﷺ ويُعرف ذلك بما جاء عن النَّبيِّ ﷺ أو عن أصحابه، فهم شاهدوا النَّبيَّ ﷺ وشهدوا تنزيله، وما قصَّه الله له في القرآن وما عنىٰ به، وما أراد به أخاصٌّ هو أو عامٌّ؟ فأمَّا من تأوَّله علىٰ ظاهره بلا دلالةٍ من رسول الله ﷺ ولا أحدٍ من الصَّحابة؛ فهذا تأويل أهل البدع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «المعتزلة والمرجئة والرَّافضة وغيرهم من أهل البدع يُفسِّرون القرآن برأيهم ومعقولهم وما تأوَّلوا من اللُّغة؛ ولهذا تجدهم لا يعتمدون علىٰ أحاديث النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة المسلمين؛ فلا يعتمدون لا علىٰ السُّنَّة ولا علىٰ إجماع السَّلف وآثارهم؛ وإنَّما يعتمدون علىٰ العقل واللُّغة، وتجدهم لا يعتمدون علىٰ كتب التَّفسير المأثورة والحديث وآثار السَّلف، وإنَّما يعتمدون علىٰ كتب الأدب وكتب الكلام الَّتي

---

(١) الإيمان (ص٢٧٨).

(٢) بواسطة الإيمان لشيخ الإسلام (ص٣٧٦، ٣٧٧).

(٣) الإيمان (ص١٢٣).

وضعتها رءوسهم، وهذه طريقة الملاحدة أيضًا؛ إنَّما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللُّغة، وأمَّا كتب القرآن والحديث والآثار؛ فلا يلتفتون إليها. هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء؛ إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأوَّلون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثارٍ عن النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة أهل البدع».





٧٨- الغوص على الدرر

الناس يتفاضلون في فهم القرآن، فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهم من قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣]، قرب وفاة النبي ﷺ.

فكن لمّاحًا مستكشفًا لدقائق معاني الألفاظ، اقرأ ألفاظ القرآن بتدبر تام وتلمّح شديد فإن ذلك يأخذ بيديك إلىٰ كنوز عظيمة، وفوائد دقيقة وأحكام محررة، ومعاني جميلة.

ومن أمثلة الدرر القرآنية التي التقطها العلماء، ما ذكره طاووس عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: صلاة الضحىٰ في القرآن، ولكن لا يغوص عليها إلا غائص، ثم قرأ ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

ومن أمثلة الدرر القرآنية التي التقطها غواص ما أشار إليه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، أنه تعالىٰ أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصىٰ الوالدين بأولادهم، فعُلم أنه أرحم بهم منهم».

ومن الدرر من تفاسير السلف ما انتبه إليه حذاق التابعين، من قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ

﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، حيث فهموا أن هذا السن أكثر عزمًا مما دونه، قال القاسم بن عبد الرحمن: قلت لمسروق: متىٰ يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك»[1].



(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٨١).



٧٩- حمل ألفاظ القرآن على المعهود من كلام العرب

لغتنا العرفيَّة إذا كانت موافقة للفصيح من لسان العرب فإنَّ ذلك من أسباب حسن الفهم لمعاني القرآن العربي المبين، وإن كان كلامنا العرفي أو الألفاظ العلميَّة الحادثة في عصرنا مخالفة للمعهود من خطاب الشَّرع للنَّاس الذين خوطبوا به فإنَّه من الخطأ مخالفة معاني القرآن للألفاظ الحادثة.

قال العلامة ابن الزبير الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنما خوطبنا على أحوالنا، وبما نتعاهده ونتعارفه من المعاني والصفات».

وقال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]: تينكم الذي تأكلون، وزيتكم الذي تعصرون[2].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، قال ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الذرة نملة صغيرة حمراء رقيقة لا يرجح لها ميزان».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «المراد بالذرة: صغار النمل كما هو معروف، وليس المراد بالذرة: الذرة المتعارف عليها اليوم كما ادّعاه

(١) ملاك التأويل (١/ ٦٢٨).

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن ص ٣٤٧.

(٣) المحرر الوجيز (١٦/ ٣٥١).

(٤) تفسير جزء عم ص ٢٨٧.

بعضهم، لأن هذه الذرة اليوم ليست معروفة في ذلك الوقت، والله عَزَّوَجَلَّ لا يخاطب الناس إلا بما يفهمون، وإنما ذكر الذرة لأنها مضرب المثل في القلة».







٨٠- التفسير باللفظ والتفسير بالمراد

التفسير باللفظ والتفسير بالمراد متلازمان، فاللفظ وضع للدلالة علىٰ معنىٰ، والمعنىٰ هو المقصود، وعَمَلُ المفسرين علىٰ تفسير اللفظ وبيان معناه، ومن المفسرين من يبادر مباشرة إلىٰ بيان المعنىٰ إذا كان اللفظ ظاهرًا لا غموض فيه.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قوله: ﴿عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾، أي: في القرآن، وإذا فسرنا الكتاب بالقرآن فهذا تفسير بالمراد، وإذا فسرنا الكتاب بالمكتوب فهذا تفسير باللفظ، فالتفسير باللفظ هو الذي يفسر اللفظ بما يوافق اشتقاقه، والتفسير بالمراد هو الذي يفسر اللفظ فيه بما أريد به بقطع النظر عن الاشتقاق، فإذا قلت: الكتاب بمعنىٰ المكتوب فهذا تفسير لفظي باللفظ، وإذا قلت: المراد به القرآن فهذا تفسير بالمراد، وهذا يقع كثيرًا في القرآن الكريم، فتارة تفسر الكلمة بمرادها، وتارة تفسر بما يوافق اشتقاقها.

وعلىٰ كل حال فالكتاب هنا: فِعال بمعنىٰ مفعول، أي: مكتوب، وسُمي

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

مكتوبًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ ولأنه مكتوب في المصاحف التي بين أيدينا؛ ولأنه مكتوب بأيدي السفرة الكرام البررة».





٨١- حمل عموم اللفظ على كل معانيه

يجب حمل اللفظ علىٰ كل معانيه الدال عليه ما لم يمنع من ذلك مانع من دليل في النص نفسه، أو نص آخر، لأن كلمات القرآن جوامع.

وقد كان النبي ﷺ يدل صحابته إلىٰ عموم معاني القرآن، فقد سُئل ﷺ عن زكاة الحُمر، فقال: «لم ينزل عليَّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]»[١].

وقام الصحابة كذلك بحمل اللفظ علىٰ كل معانيه حيث يقتضيه اللفظ، فهذا عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين لم يغتسل بالماء لما أجنب في غزوة ذات السلاسل، استدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩][٢].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «متىٰ ذُكر في الآية قولان لا تضاد بينهما، والآية تحتملها وجب حملها علىٰ المعنيين جميعًا».

من أجل هذا ذهب العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **إلىٰ حمل قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾ [البقرة: ١٢٥] علىٰ عموم مقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الحج لا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) فتح القدير ص ٣٧٣.

(٣) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٤١).

المكان المعهود الخاص، فقال[١]: «يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جُعل الآن مقابل الكعبة، وأن المراد بهذا ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفردًا مضافًا فيعم جميع مقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الحج، وهي المشاعر كلها من الطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار والنحر وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنىٰ قوله: «مصلىٰ»: أي معبدًا، أي اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنىٰ أولىٰ لدخول المعنىٰ الأول فيه واحتمال اللفظ له».

ومن أمثلة حمل النص علىٰ العموم قوله تعالىٰ في قتال النبي ﷺ يهود خيبر ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، فقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾، قال الحسن: فارس والروم، وقال قتادة: مكة، وقال السدي: خيبر، وقال عكرمة: ما ظهر عليه المسلمون إلىٰ يوم القيامة[٢].

وقد حمله علىٰ العموم شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال[٣]: «وذلك كله داخل في قوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾؛ لأنه تعالىٰ ذكره لم يخصص من ذلك بعضًا دون بعض».



(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٠.

(٢) رموز الكنوز (٦/ ١٣٢ - ١٣٣).

(٣) جامع البيان (١٩/ ٨٣).



٨٢- تبيّن المحكم من المنسوخ من القراءات

فإن كثيرًا من الأحكام وقع فيها خلاف بين العلماء بسبب عمل الفقهاء بقراءات منسوخة.

مثال ذلك: ذهب جماعة من العلماء إلىٰ اشتراط التتابع في الصيام في كفارة اليمين، لقراءة: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». والصحيح عدم اشتراط التتابع كما قال بذلك مالك، والشافعي في أحد قوليه، لأن الأمر بالصوم مطلق، فيبقىٰ علىٰ إطلاقه.

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، قرأها ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «متتابعات»، فيقيد بها المطلق، وبه قال أبو حنيفة والثوري، وهو أحد قولي الشافعي واختاره المزني قياسًا علىٰ الصوم في كفارة الظِّهار، واعتبارًا بقراءة عبد الله.

وقال مالك والشافعي في قوله الآخر يجزئه التفريق؛ لأن التتابع صفة لا تجب إلا بنص أو قياس علىٰ منصوص، وقد عُدما».

وعدم النص يريد به أن القراءة منسوخة، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: نزلت (متتابعات) ثم سقطت - يعني نُسخت -[2].

(١) أحكام القرآن (٦/ ٢٨٣).

(٢) رواه عبدالرزاق.



٨٣- كتب غريب ألفاظ القرآن وحدها لا تكفي

يكتفي البعض في فهم كتاب الله بشراء مختصر صغير في غريب ألفاظ ومفردات القرآن، ويظن أنه بمجرد هذا يحصل له معرفة معنىٰ القرآن وآياته.

وهذا جهل ونقص وتضييع، فبمجرد قراءة غريب ألفاظ القرآن لا يتبين معاني كثير من الآيات، فمثلًا: من يقتصر علىٰ مجرد قراءة مختصر في مفردات ألفاظ القرآن إذا قرأ قوله تعالىٰ عن الكفار يوم القيامة: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، ماذا يفيده إذا عرف أن الهواء في اللغة: المجوف الخالي الذي لم تشغله الأجرام؟ لا شيء!

فإذا جالس العلماء وشافههم، أو قرأ كتب التفسير إذا كان يملك آلة ذلك، قالوا له: المعنىٰ: أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوىٰ مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان قلبه هواء: أي لا رأي فيه ولا قوة، وقيل: معنىٰ الآية: أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر، وقيل المعنىٰ: إن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير، وقيل المعنىٰ: وأفئدتهم ذات هواء، ومما يقارب معنىٰ هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠]، أي خاليًا من كل شيء إلا من همّ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

(١) فتح القدير ص ٩١٥.



٨٤- جبر نقص السليقة العربية بالقراءة

ألسنتنا اليوم ليست كألسنة السابقين، فلذلك نقص فهمنا لمعاني القرآن تبعًا لهذا النقص.

وأضرب بمثال يبيّن فرق ما بين إدراكنا لمعاني الآيات وألفاظها وما بين إدراك الأولين.

فبعض الأعراب أرسل ابنه، حين سمع بمبعث النبي ﷺ يسمع ما يقول، فجاء والنبي ﷺ يقرأ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١]، فرجع إلىٰ أبيه، فقال: ما سمعته يقول يا بني؟

فقال سمعته: يُقسم علىٰ ربه بخيل تضبح خواصرها، فتقدح الحصا بسنابكها، فتغير علىٰ الأحياء غلسًا، فتثير قَسْطَلَ القتام، فتتوسط بالفارس الجمع، وغضون القصة: إن الإنسان لربه لمعاند. فقال: هذا الكلام بعينه يا بني، قال: بل معناه[(١)].

ونقص السليقة يجبر بعضه بقراءة كتب التفسير واللغة، قال العلامة مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نقص السليقة المكتسبة يجبره ما كتبه أئمة التفسير»[(٢)].

---

(١) رموز الكنوز (٨/ ٧١٣).

(٢) الشرك ومظاهره ص ٥٦ - ٥٧.



٨٥- ملاحظة تراكيب الحروف في الجمل

فالقرآن غاية في البيان، ووضع حروفه في الجمل له دلالات مهمة، وتلمّح ذلك يوقفك علىٰ نكت جميلة ومعانٍ بديعة وتحريرات فقهية.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

قال العلامة نجم الدين الطوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فعلىٰ للاستعلاء، وفي للظرفية، فشبّه المهدي بالمستعلي، لاستعلائه حالًا ومآلًا، والضال بالمغمور المغموس في ظلمة، أو المظروف في الجبّة».

ونحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠]، أضاف الصدقة إلىٰ هؤلاء باللام، وإلىٰ الأربعة بعدهم بـ «في»، حيث قال: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ تنبيهًا علىٰ أن هؤلاء أثبت وأرسخ في استحقاق الصدقة؛ لدلالة «في» علىٰ الثبوت الوعائي، والاستقرار الظرفي، وتكرير «في» في قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، تنبيه علىٰ رجحانه وقوته، فينبغي تحري مثل هذه النكت[٢].

وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ عن صيد الكلب: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]،

---

(١) الإكسير في علم التفسير ص (٢٤٢ – ٢٤٣).

(٢) الإكسير في علم التفسير ص (٢٤٣).

حيث اشترط الله تعالىٰ لحل أكل صيد الكلب أن لا يأكل الكلب من الصيد؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فقوله ﴿عَلَيْكُمْ﴾، دليل علىٰ أن ما أمسكن لأنفسهن لا يحل».

ودلالة السنة مطابقة لمعنىٰ الآية كما ذكر العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما جاء في الصحيحين من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**فإن أكل الكلب فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك علىٰ نفسه**».

وانظر قوله تعالىٰ في المقربين: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فإنه تعالىٰ قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، ولم يقل: يشرب منها؛ لأنه ضمّن ذلك قوله يشرب يعني يروىٰ بها، فإن الشارب قد يشرب ولا يروىٰ، فإذا قيل: يشربون منها. لم يدل علىٰ الرِي، فإذا قيل: يشربون بها. كان المعنىٰ يروون بها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلىٰ ما دونها، فلهذا يشربون منها صرفًا، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجًا، وهو كما قال تعالىٰ في سورة الإنسان: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾».



(١) شرح عمدة الأحكام (٣/ ١٣٧١)

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ١٧٨).



٨٦- ملاحظة خواتيم الآيات

فإن ذلك يوقفك علىٰ جملة من الأحكام والمعاني والفوائد، ذلك أن خاتمة الآية تدل علىٰ الآية وتبين معانيها وأحكامها.

فتأمل مثلًا قوله تعالىٰ في أهل الأعراف، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها منهم».

وكذلك تأمل ما ذكره الله من أحوال من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وختم الآية باسم الغفور الرحيم، فهو دال علىٰ أن الله سيغفر لهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه الآية دالة علىٰ أن المخلط المعترف النادم الذي لم يتب توبة نصوحًا، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلىٰ السلامة أقرب».

وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ في ولاية الرجل علىٰ المرأة: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، فختم الآية باسمي الله «العلي»

و«الكبير»، لتذكير الزوج بعلو الله عليه حتىٰ لا يتعسف الزوج في قوامته وعلوه علىٰ زوجه بمقتضىٰ الدرجة التي أعطاه الله إياها، فالله فوق الزوجين وأعلىٰ وأكبر من الزوج الذي خوّله الله ولايته علىٰ زوجه.

قال الحافظة عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المعنىٰ: إن الله كان كبيرًا فاحذروه، أيها الأقوياء الأشداء المستطيلون علىٰ مَن في قبضتهم، وتحت تصرفهم».

مثال (٤): قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «في هذه الآية إرشاد إلىٰ التفقُّه في معاني أسماء الله وصفاته، وأنَّ الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلِّل الأحكام بالأسماء الحسنىٰ كما في هذه الآية، لمّا ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء؛ رتَّب علىٰ ذلك بأنْ أحالنا علىٰ معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص».



(١) رموز الكنوز (١/ ٤٩٧ - ٤٩٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٧).



٨٧- ملاحظة التناسب بين فواتح السور وخواتمها

فإن ملاحظة ذلك يوقفك علىٰ فهم مجموع السورة، وتحقق معاني مفردات آياتها ضمن معنىٰ السورة الكلي، وهذا فيما كان مجموع آيات السورة وفق نزولها الزمني، أو ترتيبها التوقيفي الذي صنعه الصحابة بأمر النبي ﷺ.

مثال: فواتح وخواتم سورتي البقرة وآل عمران، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «فواتح السور تناسب خواتمها، وذلك تناسب مضمون، كما أن سورة «البقرة»، افتتحت بذكر الكتاب وأنه هدىٰ للمتقين، وذكر في ذلك الإيمان بما أُنزل إلينا، وما أُنزل علىٰ من قبلنا، ووُسطت بمثل ذلك، وخُتمت بمثل ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إلىٰ آخر السورة، وكان في سورة «البقرة» مخاطبة لجميع الخلق حتىٰ يدخل فيه من لم يؤمن بالرسل عمومًا، ومن أقر بهم خصوصًا، وللمؤمنين بالجميع خصوص الخصوص، ففيها خطاب الأصناف الثلاثة.

وأما «آل عمران»، فافتتحها سبحانه بذكر وحدانيته ردًّا علىٰ المشركين من النصارىٰ وغيرهم، وذكر تنزيل الكتاب، وذكر ضلال من اتبع المتشابه، ووسّطها بمثل ذلك، وختمها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

---

(١) اختيارات شيخ الإسلام لابن عبدالهادي، مجموع رسائل ابن عبدالهادي ص ١٩٧.

إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]».







٨٨- احترز من الاشتراك اللفظي العرفي والشرعي

يقع البعض في سوء فهم لمعاني القرآن، بسبب الاشتراك في ألفاظ القرآن مع الألفاظ العرفية، فيأتي من يجهل المعاني الشرعية فيحملها علىٰ المعاني العرفية فيقع بسبب ذلك في زلل عظيم.

فمثلًا قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبسبب هذا الاشتراك الحادث غلط كثير من الناس في فهم الخطاب بلفظ «السعي» من هذا الباب، فإنه في الأصل عام في كل ذهاب ومضي، وهو السعي المأمور به في القرآن، وقد يخص أحد النوعين باسم المشي، فيبقىٰ لفظ «السعي» مختصًا بالنوع الآخر، وهذا هو السعي الذي نهىٰ عنه النبي ﷺ، حيث قال: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون**»، وقد روي أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ كان يقرأ: «فامضوا»، ويقول: لو قرأتها «فاسعوا» لعدوت حتىٰ يكون كذا، وهذا إن صحَّ عنه فيكون قد اعتقد أن لفظ السعي هو الخاص».

❁ ❁ ❁



٨٩- طرق الترجيح بين الحقائق الشرعية واللغوية والعرفية

معرفة طرق الترجيح بين أنواع الحقائق الشرعية واللغوية والعرفية ضروري حتىٰ يقف طالب العلم علىٰ الصواب ويعرف المراد من الخطاب القرآني.

فآكد المرجحات هو الترجيح بالأصل، وهو تقديم عرف الشرع لأنه الله تعبدنا بذلك، فحيث ورد لفظ (الصلاة) في القرآن والسُّنَّة فحينئذ يجب حمله علىٰ الحقيقة الشرعية، إلا إذا وُجد الصارف، كقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الطواف بالبيت صلاة» فهذا المراد به المعنىٰ اللغوي أي الدعاء، لأن من يطف بالبيت لا يستقبل القبلة، بل يجعلها عن يساره، ويتكلم وله أن يشرب الماء، وهذا مما يوجب صرف لفظ (الصلاة) من معناه الشرعي إلىٰ معناه اللغوي.

استقراء الشرع يُعين نوع الحقيقة، فقد تكون اللفظة لها حقيقة شرعية ولغوية، لكن الاستقراء دلَّ علىٰ أن استعمالها في القرآن والسنة كله شرعي، فـ «القرء» مثلًا في اللغة يُطلق علىٰ الحيض والطهر، أما في لغة الشرع فلم يأت إلا بمعنىٰ الحيض، قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «المعهود في لسان الشرع استعمال القرء بمعنىٰ الحيض، قال النبي ﷺ: «**تدع الصلاة أيام أقرائها**»، رواه أبو داود، وقال لفاطمة بنت أبي حبيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «انظري، فإذا أتىٰ قرؤك فلا تصلي، وإذا مر قرؤك

(١) المغني (١١/ ٢١٠).

فتطهري، ثم صلي ما بين القرء إلىٰ القرء»، رواه النسائي، ولم يعهد في لسانه استعماله بمعنىٰ الطهر في موضع، فوجب أن يُحمل كلامه علىٰ المعهود في لسانه».

ومن الحقائق ما ليس له حد شرعي ولا لغوي فيتعين حمله علىٰ المعنىٰ العرفي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وما لم يكن له حد في اللغة ولا في الشرع، فالمرجع فيه إلىٰ عرف الناس، كالقبض المذكور في قوله ﷺ: «**من ابتاع طعامًا فلا يبعه حتىٰ يقبضه**».

فمعرفة عرف الشرع وعرف اللغة وعرف الصحابة ضروري جدًا، وإتقان ذلك عون علىٰ تفسير الألفاظ الواردة في القرآن والسُّنَّة تفسيرًا صحيحًا، ولا تغتر بكل ما يُذكر أنه تفسير لألفاظ القرآن والسُّنَّة، فتتلقاه بالقبول من غير تمحيص ولا تدقيق، كتفسير بعض رواة حديث نهي النبي ﷺ عن الشغار بأنه «بضع كل واحدة مهر للأخرىٰ»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وهذا لا يُعرف لا في الصحاح ولا في السنن».

وقد ترد اللفظة في نصوص القرآن والسُّنَّة ويُراد بها المعنىٰ الشرعي واللغوي، كما في صفة التشهد في قول المصلي «والصلوات»، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قوله «الصلوات»، شامل لكل ما يطلق عليه صلاة شرعًا أو لغة، فالصلوات كلها لله حقًا واستحقاقًا، لا أحد يستحقها، وليست حقًا لأحد سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والدعاء أيضًا حق واستحقاق لله عَزَّوَجَلَّ».

ويقع أحيانًا من عطف الألفاظ الدال علىٰ التغاير ما يُعين نوع الحقائق في

---

(١) القواعد النورانية ص ١٧٠.

(٢) العقود ص ١٩٣.

(٣) الشرح الممتع (٣/ ٢٠٤).

الألفاظ كأمر النبي ﷺ بالصلاة عند وقوع الكسوف، فإنه ﷺ قال: «**فصلوا وادعوا**»، فالصلاة هنا يتعيَّن أن المراد بها الصلاة الشرعية لعطفها علىٰ اللغوية «وادعوا».

وينبغي علىٰ طالب العلم أن يتفطن لتصرف الشرع في المعاني اللغوية تخصيصًا وتعميمًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فإن الشارع يتصرف في اللغة تصرف أهل العرف، يستعمل اللفظ تارة فيما هو أعم من معناه في اللغة، وتارة فيما هو أخص».

فالتهجير مثلًا في لسان الشرع التبكير للطاعات والمسابقة إليها[٢]، ولا يختص ذلك بالهاجرة - أي نصف النهار -، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أراد به التبكير إلىٰ جميع الصلوات، وهو المضي إليها في أول أوقاتها».



(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٢٨٣).

(٢) كقول النبي ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه**». رواه البخاري (ص ١٠٧ - رقم ٦٥٤).

(٣) زاد المعاد (١/ ٤٠٥).



٩٠- تفسير الألفاظ بسياقها وقرائنها

لإدراك معاني ألفاظ الآيات إدراكًا صحيحًا لا بد من تدبرها في سياقها وقرائنها المحتفة بها، وإلا وقع الإنسان في الفهم الخاطئ.

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لأن السياق مبيّن للمجملات، مرجح لبعض المحتملات، مؤكد للواضحات».

وقال: «ويجب اعتبار ما دلَّ عليه السياق والقرائن، لأن بذلك يتبين مقصود الكلام».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد، وعرف الهدىٰ والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج.

وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين، لاسيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطًا من المفسرين المشهورين، فإنهم لا يقصدون معرفة معناه، كما يقصد ذلك المفسرون».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبعض الناس يأخذ القرآن والحديث يفسره بحسب ما يقتضيه ذلك اللفظ الظاهر بقطع النظر عن المتكلم به

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٢١٣)

والمخاطب والمنزل عليه وقرائن الأحوال، وهذا خطأ».







٩١- الترجيح بين المعاني المحتملة بمرجحات منفصلة من غير اللفظ والسياق

معنىٰ الآية يدل عليه لفظه وسياقه، وهذا هو الشأن في غالب النصوص، وتبقىٰ بعض النصوص معانيها محتملة وليس ثمَّ مُرجح واضح من لفظ الآية أو سياقها، فيحتاج الباحث إلىٰ ترجيح معنىٰ الآية أو حكمها بمرجحات منفصلة من غير اللفظ وسياقه.

مثال (١): أن شعيب صاحب مدين استأجر موسىٰ ثماني سنين أو عشرًا مهرًا لتزويجه ابنته، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، فليس في الآية مُرجح من لفظها أو سياقها يُعيّن أي الأجلين قضىٰ موسىٰ، ورجح المفسرون ذلك بمرجحات منفصلة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وقد دلَّ الدليل علىٰ أن موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما، قال البخاري حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان ابن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير. قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ فقلت: لا أدري

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣١).

حتىٰ أقدم علىٰ حبر العرب فاسأله، فقدمت، فسألت ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال: قضىٰ أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل».

هنا واضح أن الترجيح بمنفصل، وفي الغالب لن يُعدم المفسر ترجيحًا من اللفظ أو سياقه، وبعض النصوص يدق لفظ ترجيحها بحيث يعتقد البعض عدم وجود مُرجح من اللفظ ويجهد نفسه في طلب مرجحات منفصلة، وقد لا يتحصل له شيء من ذلك، فليس معنىٰ هذا تعطل الدليل عن الترجيح، فالقرآن بيان، ولكنه يخفىٰ ويدق علىٰ المفسرين، كُلٌّ بحسب ما يبصره من دلالة الدليل، وموجب ترجيحه.

مثال (٢): قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾.

[الكهف: ١٢]

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لم يبين هنا شيئًا عن الحزبين المذكورين. وأكثر المفسرين علىٰ أن أحد الحزبين - هم أصحاب الكهف. والحزب الثاني - هم أهل المدينة الذين بُعث الفتية علىٰ عهدهم حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية. وقيل: هما حزبان من المؤمنين في زمن أصحاب الكهف. اختلفوا في مدة لبثهم، قاله الفراء، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الملوك الذين تداولوا ملك المدينة حزب، وأصحاب الكهف حزب، إلىٰ غير ذلك من الأقوال. والذي يدل عليه القرآن: أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف: ١٩]. وكأن الذين قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ هم الذين علموا أن

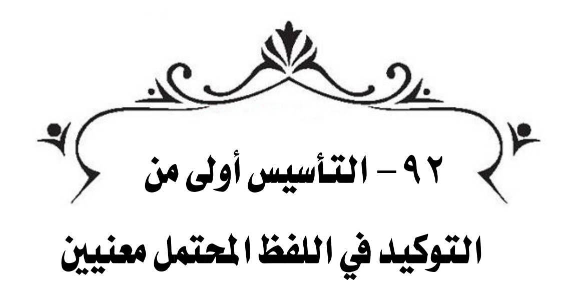
---

(١) أضواء البيان (٢/ ٣٤٣).

لبثهم قد تطاول. ولقائل أن يقول: قوله عنهم ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، يدل علىٰ أنهم لم يحصوا مدة لبثهم. والله تعالىٰ أعلم.

وقد يجاب عن ذلك بأن رد العلم إلىٰ الله لا ينافي العلم، بدليل أن الله أعلم نبيه بمدة لبثهم في قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٥] الآية، ثم أمره برد العلم إليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ [الكهف: ٢٦] الآية».





٩٢- التأسيس أولى من التوكيد في اللفظ المحتمل معنيين

اللفظ أحيانًا يحتمل أكثر من معنىٰ، ويتكرر وروده في الآية الواحدة، وأحيانًا في آية أخرىٰ مقاربة لها، فحمل اللفظ علىٰ التأسيس أولىٰ من حمله علىٰ التوكيد، لأن التأسيس فيه زيادة معنىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن التأسيس أولىٰ من التوكيد، وليس هذا من باب تعارض الدليلين، ولا من باب تقييد الكلام المطلق، وإنما هو من باب تفسير اللفظ الذي فيه احتمال المعنيين».

مثال (١) قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالأولىٰ: الأمر بكتابة الدَّين المؤجل، والثانية: المبادرة إلىٰ الكتابة بدون مماطلة، وليست تأكيدًا للأولىٰ.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحمل علىٰ التأسيس أولىٰ، لأن فيه زيادة معنىٰ، والتأسيس أولىٰ من التوكيد».

مثال (٢): قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾، هذا في الحدث الأصغر، وقوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، فهذا الأولىٰ حمل الملامسة فيه علىٰ الجماع لا علىٰ اللمس باليد ونحوه، لأن ذلك سيجعل الآية مقصورة علىٰ تكرار الحدث الأصغر فقط، لأن تأسيس معنىٰ جديد أولىٰ من التكرار والتوكيد،

وحمل الآية علىٰ أكثر من معنىٰ أولىٰ من قصرها علىٰ معنىٰ واحد بلا دليل.

واستدل جماعة من العلم علىٰ أن الأمر بالوضوء من النوم مذكور في القرآن من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [المائدة: ٦].

قال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعنىٰ إذا قمتم إلىٰ الصلاة وقد نمتم، وهو قول زيد بن أسلم، وهو مذهب جميع أهل المدينة، وهذا القول أولىٰ من الأول - من حدث -، لأن الإحداث مذكور بعد هذا، فأغنىٰ ذلك عن ذكره هنا، وأما النوم فلم يقع له ذكر، وليس بحدث، وإنما هو سبب للحدث علىٰ الأصح في ذلك، فحمل الكلام علىٰ زيادة فائدة أولىٰ من حمله علىٰ التكرار بغير فائدة».





٩٣- التفسير بالمقابل

قد يختلف المفسرون في تعيين معاني بعض المفردات القرآنية، ويكون من أسباب تعيين المعنىٰ الراجح التفسير بالمقابل، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله ﴿ثُبَاتٍ﴾، أي: متفرقين، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾، أي: مجتمعين، والذي دلنا علىٰ أن ﴿ثُبَاتٍ﴾، بمعنىٰ: متفرقين قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾، حيث قوبلت بهذا، ومقابل الشيء يكون ضده في المعنىٰ».

وقال شيخنا أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وقد ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا: أن الشيء قد يُعرف بمعرفة مقابله، وذكرنا أن منه قوله تعالىٰ: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١]».

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٣٢ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٢ - ١٣٣].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وقد عُلم من مقابلة قوله ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، بقوله: ﴿ءَاخَرِينَ﴾، أن المعنىٰ بناس آخرين غير كافرين، علىٰ ما هو الشائع في الوصف بكلمة آخر أو أخرىٰ، بعد ذكر مقابل للموصوف».

---

(١) تفسير سورة النساء (١/ ٥١٦).

(٢) تفسير سورة النساء (١/ ٥٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢١١).



٩٤- التوسط في التناسب بين الآيات والسور

فبعض العلماء بالغ في محاولة إيجاد التناسب بين الآيات والسور مهما اختلفت أحكامها، وترتيب نزولها الزمني كالبقاعي في نظم الدرر، ويقابله الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي بالغ في الشناعة عليه بدعوىٰ أن ترتيب المصحف ليس وفق ترتيب نزوله الزماني والمكاني. والحق وسط بين الطرفين، فالمبالغة في التناسب يوقع في التكلف، وإلغاء التناسب مطلقًا غير صحيح، فبعض الآيات ترتيبها وفق وقت نزولها، كآيات سورة براءة والأحزاب ونحوها، فإنكار الكل خطأ، والتعسف في التزام التناسب في الكل خطأ، والحق وسط بين طرفين.

كما أن الصحابة في ترتيبهم المصحف راعوا توافق المعنىٰ، قال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٠٨هـ): «ومن ظن ممن اعتمد القول بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة؛ أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب والاشتباه، فقد سقطت مخاطبته، وإلا فما المراعىٰ، وترتيب النزول غير ملحوظ في ذلك بالقطع؟

بل هذا معلوم في ترتيب آي القرآن الواقع ترتيبها بأمره ﷺ وتوقيفه بغير خلاف.

ألا ترىٰ أن سورة البقرة من المدني وقد تقدمت سور القرآن بتوقيفه ﷺ في الصحيح المقطوع به، وتقدم المدني علىٰ المكي في ترتيب السور والآي كثير جدًا، فإذا سقط تعلق المكان بترتيب النزول لم يبق إلا رعي التناسب والاشتباه، وارتباط

النظائر والأشباه.

وتدبر بعقلك وضوح ذلك في عدة سور كالأنفال وبراءة، والطلاق والتحريم، والتكوير والانفطار، والضحىٰ وألم نشرح، والفيل وقريش، والمعوّذتين، إلىٰ غير هذه السور مما لا يتوقف في وضوحه من له أدنىٰ نظر».

وحشد الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «البرهان في تناسب سور القرآن»، أدلة كثيرة علىٰ اعتبار المعنىٰ في ترتيب السور، منها: حديث: «**اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران**». رواه مسلم. وحديث: «**يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران**»، وأن النبي ﷺ صلىٰ بالسبع الطوال في ركعة، وأنه كان يجمع المفصل في ركعة، وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي - أول ما نزل -، فذكر نسقًا كما استقر ترتيبها، والنبي ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه كل ليلة جمع كفّيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس.





٩٥ - لا تلازم بين الترتيب الذكري والحكمي

لا بد من ملاحظة عدم التلازم بين الترتيب الذكري والحكمي في بعض الآيات، وقد نبَّه السلف علىٰ ضرورة ملاحظة ذلك حتىٰ لا يقع الناس في أحكام غير صحيحة.

مثال ذلك: قال تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ [النساء: ١١]، قال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «إنكم تقرؤون ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، وإن رسول الله ﷺ قضىٰ بالدين قبل الوصية».

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: «إنما قُدّمت الوصية إذ هي حظ مساكين وضعفاء، وأُخّر الدين إذ هو حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان وله فيه مقال»[١].

وقال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «ومنهم من قال: «أو» بمعنىٰ «الواو»، والمراد الجمع بينهما، وبيان أن الإرث مؤخر عنهما جميعًا، ومنهم من قال «أو» علىٰ حقيقته، ومعناه: من بعد وصية، إن كانت وصية، أو دين إن كان دين، فالإرث مؤخر عن كل واحد منهما، من ذلك عرف تأخيره عنهما إذا اجتمعا بطريق الأولىٰ».



(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧٤).

(٢) تفسير القرآن (١/ ٤٠٣).



٩٦- معرفة الناسخ من المنسوخ

النسخ واقع في القرآن كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

ومعرفة الناسخ من المنسوخ ضرورة حتىٰ لا يتدين الإنسان بأحكام منسوخة، قال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لقاص يقص: هل علمت الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت.

والنسخ يقع في التلاوة والحكم جميعًا، ويقع في الحكم دون التلاوة، ويقع في التلاوة مع بقاء الحكم.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما النسخ: فإن له ثلاثة مواضع في الكتاب والسنة، ولكلها شواهد ودلائل، فأحدها: نسخ القرآن مما يعمل به، وهو علم الناسخ من المنسوخ، والشاهد عليه ما فسره ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في حديثه الذي ذكرناه: أنه إبدال الآية مكان الآية، ثم أوضحه مجاهد، فقال: يُثْبت خطها ويُبْدل حكمها، فهذا هو المعروف عند العالم أن الآية الناسخة والمنسوخة جميعًا ثابتتان في التلاوة وفي خط المصحف إلا أن المنسوخة منهما غير معمول بها، والناسخة هي التي أوجب الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ الناس اتباعها والأخذ بها.

وأما النسخ الثاني: فأن ترفع الآية المنسوخة بعد نزولها، فتكون خارجة عن قلوب الرجال، ومن ثبوت الخط والشاهد عليه أحاديث عدة».

والنسخ يقع إلىٰ أثقل، أو مساو، أو أخف، والنسخ إلىٰ أثقل قال به جمهور العلماء، وخالف بعض الشافعية في ذلك، ومثاله: نسخ وجوب صيام عاشوراء بصوم رمضان، ونسخ التخيير بين صيام رمضان أو الإطعام إلىٰ وجوب الصيام.

ومثال النسخ إلىٰ مساو: نسخ استقبال بيت المقدس بوجوب استقبال الكعبة.

ومثال النسخ إلىٰ الأخف: التخفيف من وجوب مصابرة العدو من عشرة أضعاف إلىٰ الضعف، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦][1].



(١) التحبير شرح التحرير (٦/ ٣٠٢١).



٩٧ - التحرز من الغلط في اصطلاح النسخ

قد تقف خلال قراءتك لكتب التفسير علىٰ أكثر من رواية عن بعض الصحابة في الحكم علىٰ الآية بأنها منسوخة، فتقرأ عن صحابي واحد مثلًا أنها منسوخة، ورواية أخرىٰ عنه أنها محكمة، فلا تتوهم المعارضة، وفهم اصطلاح السلف في النسخ يعصمك من الزلل.

المتأخرون يطلقون النسخ علىٰ رفع حكم شرعي بمثله متراخ عنه، أما المتقدمون فيطلقون النسخ علىٰ ما هو أعم من ذلك، فيطلقونه علىٰ تخصيص العام، وتقييد المطلق، والاستثناء، قال أبو الحسن السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كانوا يسمون ما يُغيّر الأحوال نسخًا».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «وأما تسمية المتأخرين تخصيصًا وتقييدًا ونحو ذلك مما فيه صرف الظواهر، فهو داخل في مسمىٰ النسخ عند المتقدمين».

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

فعن محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال:** جلس ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقرأ سورة البقرة

(١) جمال القراء (١/ ٣٠٨).

(٢) الاستقامة (١/ ٢٣).

حتىٰ أتىٰ علىٰ هذه الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، فقال: نُسخت هذه الآية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال أبو مسلم الأصفهاني: إن هذه الآية منسوخة، إنما هي مفسرة بآية المواريث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصىٰ الله به من توريث الوالدين والأقربين، من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء، ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يسار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضًا سعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان. ولكن علىٰ قول هؤلاء لا يسمىٰ هذا نسخًا في اصطلاحنا المتأخر، لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن «الأقربين» أعم ممن يرث ومن لا يرث، فرُفع حكم من يرث بما عُين له، وبقي الآخر علىٰ ما دلت عليه الآية الأولىٰ».



(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٩٧).



٩٨- التحقق من النسخ

النسخ رفع حكم شرعي بمثله متراخ عنه، ففيه تعطيل لأحد الدليلين، وهذا لا يصار إليه إلا بعد تعذر الجمع ومعرفة المتأخر من الدليلين.

وبعض أهل العلم يعيا بوجوه الجمع بين الأدلة التي ظاهرها التعارض فيصير إلىٰ النسخ، وهذا لا يجوز قبوله والتسليم له إلا بعد التحقق من تعذر الجمع.

وكتب التفسير تحكي كثيرًا من مقالات العلماء في دعوىٰ النسخ لكثير من آي القرن، فالواجب التثبت وعدم المجازفة في دعوىٰ النسخ والتحقق من وجوه الجمع بين الأدلة، والاستعانة بالأئمة المحققين في كشف ذلك.

قال أبو الحسن السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وقد جعلوا آية السيف ناسخة لمائة وأربع وعشرين آية، وليس ذلك عن يقين منهم، وإنما يظنون إذا سمعوا أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيّه ﷺ وللمؤمنين بالصبر وترك الاستعجال ظنّوا أن ذلك منسوخ بآية القتال، وإنما يكون منسوخًا بآية القتال النهي عن القتال.

وإنما كان النبي ﷺ يشكو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ما يلاقيه من أذىٰ المشركين فيأمره بالصبر، ويعده بالنصر، ويقصّ عليه أنباء الرسل وما صبروا عليه من الأذىٰ في ذات الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ولم ينسخ بآية السيف شيء من ذلك، ولا يحلّ أن يقال بالظن: هذا ناسخ لكذا، ولا

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (١/ ٣٠٨).

هذا منسوخ بكذا، ولو كان هذا الناسخ والمنسوخ مقطوعًا به لم يقع فيه اختلاف، كيف وهذا يقول في الآية منسوخة، ويقول الآخر بل هي محكمة.

ثم إن رسول الله ﷺ لم يكن قادرًا علىٰ القتال، فكيف ينهىٰ عنه؟ وكيف نقول للعاجز عن القيام: لا تقم، وإنما هذا كالفقير يؤمر بالصبر علىٰ الفقر، فإذا استغنىٰ وجبت عليه الزكاة، فوجوب الزكاة لم يعارض الصبر فيكون ناسخًا له، والنسخ إنما هو رفع حكم الخطاب الثابت بخطابٍ آت بعده لولاه لكان ثابتًا، وهذا واضح».

وقال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ذهب أكثر العلماء إلىٰ القول بإحكام هذه الآية، قيل للشعبي: أمنسوخة هي؟ قال: لا والله ما نُسخت؟ قلت: إن الناس لا يعلمون بها، فقال: الله المستعان.

وقال سعيد بن جبير: «والله ما نُسخت، ولكنها مما يتهاون به الناس».



(١) رموز الكنوز (٥/ ٢٨٤).



٩٩- طرق معرفة الناسخ من المنسوخ

طرق معرفة الناسخ من المنسوخ ضرورة، ومعرفة ذلك ممكنة؛ وقد نبَّه العلماء علىٰ ذلك ليبذل العلماء وطلبة العلم وسعهم في معرفته.

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٣١٠هـ)**[١]: «إنه لا ناسخ من سنته لمنسوخ منها في شيء من الحلال والحرام والأقضية والأحكام إلا وهو مبيَّن - وإن أشكل علىٰ كثير ممن ضعفت قوىٰ علمه بأحكام رسول الله ﷺ وسننه وجه مطلبه، وعزبت عنه المعرفة به - كما إنه لا ناسخ في القرآن لشيء من أحكام الله - جل وعز - فيه ولا منسوخ إلا وهو مبين، وإن جهل علم ذلك كثير ممن يتلوه ويقرأه!

فإن قال: فبيّن لنا الوجه الذي منه يُوصَل إلىٰ علم ذلك؟

قيل: الوجه الذي منه يوصل إلىٰ علمه هو الوجه الذي منه يوصل إلىٰ علم ناسخ القرآن ومنسوخه، وذلك هو بيان رسول الله ﷺ ذلك لأمته، غير أن الأمة تنقل بيانه ذلك علىٰ سبيل ما ينقل بيانه: ناسخ القرآن ومنسوخه؟!

فمنه: ما ينقله الواحد العدل أو الجماعة التي لا يوجب مجيئها العلم، ولا يقطع ورودها العذر، وإن لزم الوارد ذلك عليه بوروده للتصديق به.

---

(١) تهذيب الآثار (الجزء المتمم) ص ٤٣٩.

ومنه ما ينقله من يُوجب وروده - لمن ورد عليه - العلم بما ورد به، ويقطع مجيئه العذر، وذلك نقل الجماعة التي ينتفي عنها السهو والخطأ، ويمنع من نقلها - فيما نقلت - الكذب!».

ولفظ الآية نفسها قد يكون فيها ما يدل علىٰ النسخ، كنسخ وجوب مصابرة العدو ولو كان عشرة أضعاف إلىٰ مصابرة الضعف، فإنه نزل أولًا قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ثم نزل بعد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.
[الأنفال: ٦٦]

والعمدة في معرفة الناسخ من المنسوخ هو معرفة المتأخر، حيث لا يمكن الجمع بين النصوص، لأن في الجمع بين النصوص إعمالًا للأدلة كلها، وفي الصيرورة إلىٰ النسخ تعطيل لبعض الأدلة، وإعمال كل الأدلة أولىٰ من إهمال بعضها.

والدليل علىٰ أن معرفة المتأخر هو العمدة في معرفة الناسخ من المنسوخ قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: وكان أصحاب النبي ﷺ يتبعون الأحدث فالأحدث من أمره ﷺ[(١)].

مثال ذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ أذن أولًا في شرب الخمر فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾ [النحل: ٦٧]، ثم حرَّم الله شربها وقت الصلاة فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم عرّض الله بتحريم شرب الخمر في كل الأوقات:

---

(١) رواه مسلم.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم نزل تحريمها تحريمًا باتًا في كل الأوقات في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، ومعلوم أن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن كما قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.





١٠٠- نسخ بعض أحكام الآية الواحدة

نسخ بعض حكم الآية لا يوجد ما يمنعه عقلًا، وهو واقع شرعًا.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٥].

قال الشَّعبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لمَّا نزلت هذه الآية، فكان الأغنياء يُطعمون ويفطرون، فصار الصِّيام علىٰ الفقراء؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ [البقرة: ١٨٥]، قال: فوجب الصَّوم علىٰ النَّاس كلِّهم».

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (١/ ٤٢٩).

وقال العلَّامة محمد بن عليّ الخطيب الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٨٢٥هـ)[١]: «الآية الثَّانية فأوَّلها مُحْكَم، وباقيها منسوخ علىٰ المشهور عند أهل العلم».

ونازع في النَّسخ بعض العلماء، قال العلَّامة عبد القادر بن أحمد بن بدران الدِّمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذا وإن سلَّمنا فيه النَّسخ؛ فإنَّه منصبٌّ علىٰ عدم القضاء، كما يشير إليه قول سلمة: من شاء صام ومن شاء أفطر، ثم نزل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فدلَّ علىٰ وجوب الصَّوم اللَّازم منه القضاء؛ فهذه الآية تفسير لتلك لا ناسخة لها».

ولا يظهر هذا الاعتراض علىٰ نسخ التخيير بين الصَّوم والإطعام للمستطيع إلىٰ وجوب الصَّوم.

قال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ الآية اقتضت - كما قاله أكثر العلماء - أنَّ الصَّائم كان له أن يُفطر، ويفتدي علىٰ الجواز؛ فلا خلاف أنَّ هذا الحكم منسوخ كما قالوا».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾ الآية [البقرة: ١٨٤]، اختلف السَّلف في هذه الآية علىٰ أربعة أقوال:

أحدها: أنَّها ليست بمنسوخة، قاله ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الثَّاني: أنَّها منسوخة، كما قاله سلمة والجمهور.

---

(١) تيسير البيان لأحكام القرآن (١/ ٢٢٧).

(٢) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار (ص٤٩٩).

(٣) أحكام القرآن (١/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) بدائع التَّفسير (١/ ٣٨٥).

الثَّالث: أنَّها مخصوصة؛ خُصَّ منها القادر الذي لا عذر له، وبقيت متناولة للمرضع والحامل.

الرَّابع: أنَّ بعضها منسوخ، وبعضها محكم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قيل: هي منسوخة في حقِّ الذي كان قد خُيِّر بين الأمرين، وهو القادر علىٰ الصِّيام، كما دلَّ عليه نطق الآية، وكما بيَّنوه، فأمَّا من كان فرضه الطَّعام فقط كما دلَّ عليه معنىٰ الآية؛ فلم يُنسخ في حقِّه شيء، وعلىٰ هذا يُحمل كلام من أطلق القول بأنَّها منسوخة؛ لأنَّه قد رُوي عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا التَّصريح بذلك».



(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (١/ ٤٢٩، ٤٣٠).



١٠١- الاختلاف في التَّخصيص والنَّسخ وإحكام العموم

بعض النُّصوص تكون دلالتها عامة، ويخالفها في الحكم نصوص خاصَّة، فالمصير إلىٰ التَّخصيص أولىٰ من المصير إلىٰ النَّسخ؛ لأنَّ التَّخصيص فيه إعمال لكل الأدلَّة، والنَّسخ فيه تعطيل للدَّليل المنسوخ.

والأدلَّة فيها ما يُرجِّح التَّخصيص ويدلُّ عليه، وهذا الذي يجب المصير إليه عند الوقوف علىٰ اختلاف المفسِّرين والعلماء في تزاحم النَّسخ والتَّخصيص، وحيث لم يتحقَّق النَّسخ في النَّصِّ.

وحيث وقع التَّخصيص للنَّصِّ، فإن الحكم الذي دخله التَّخصيص والتغيُّر لا يمكننا أن نبقيه علىٰ عمومه كما كان قبل ورود التَّخصيص.

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بإحكامه، ولم يخصِّصه بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وعامَّة العلماء علىٰ أنَّ آية المائدة مخصِّصة لآية البقرة.

قال العلَّامة محمد بن عليٍّ الخطيب الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٨٢٥هـ)**[١]:

---

(١) تيسير البيان لأحكام القرآن (ص٣٨٩، ٣٩٠).

«حرَّم الله سبحانه علىٰ المؤمنين نكاح المشركات ابتداءً ودوامًا، فقال هنا: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وهذا الخطاب عامٌّ في الوثنيَّات والكتابيَّات، الذمِّيَّات منهن والحربيات، وسمَّىٰ الله سبحانه الكتابيَّ مُشركًا؛ لقوله: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ولقوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وكان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إذا سُئل عن نكاح الرجل اليهوديَّة أو النصرانيَّة، قال: حرَّم الله المشركات علىٰ المؤمنين، ولا أعرف شيئًا من الشِّرك أعظمَ من أن تقول المرأة: ربُّها عيسىٰ، أو عبدٌ من عباد الله.

وأحلَّ الله لهم نكاح الكتابيَّات في سورة المائدة، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] .

وهذا الخطاب لهم عامٌّ من وجه، وخاصٌّ من وجه؛ فخصوصه في الكتابيَّات دون الوثنيَّات، فيقضىٰ بخُصوص آية المائدة علىٰ آية البقرة، وعمومه في الذميَّات والحربيَّات، في الحرائر منهنَّ والإماء، ولكنَّ الله سبحانه حرَّم الإماء منهنَّ، فقال في سورة النِّساء: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ﴾ [النساء: ٢٥]، فشرط فيهنَّ الإيمان؛ فيقضىٰ بخُصوص آية النِّساء علىٰ عموم آية المائدة، وبخصوص آية المائدة علىٰ عموم آية البقرة، هكذا ترتيب هذه الآيات بعضها علىٰ بعض، ويُعْمَلُ بجميعها.

وقد اتَّفق العلماء علىٰ ترتيب آية البقرة علىٰ آية المائدة، إلَّا ما يُروىٰ عن ابن

عمر - رضي الله تعالىٰ عنهما - من تحريم نكاح الكتابيَّات، وأنَّ آية البقرة ناسخة لآية المائدة، وقيل: إنَّه كرهه، ولم يحرِّمه.

قال بعضهم: ولا تصحُّ عنه رواية التَّحريم.

قلتُ: أو تُحْمل علىٰ الكِتابيَّات الحَرْبيَّات، كما هو قول ابن عبَّاس رضي الله تعالىٰ عنهما».

وإيراد ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أجاب عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث قال[1]: «وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وهو إنَّما يخاطب الموجودين في زمانه بعد النَّسخ والتَّبديل، فدلَّ علىٰ أنَّ من دان بدين اليهود والنَّصارىٰ؛ فهو من الَّذين أوتوا الكتاب، لا يختصُّ هذا اللَّفظ بمن كانوا متمسِّكين به قبل النَّسخ والتَّبديل، ولا فرق بين أولادهم وأولاد غيرهم؛ فإنَّ أولادهم إذا كانوا بعد النَّسخ والتَّبديل ممَّن أوتوا الكتاب، فكذلك غيرهم إذا كانوا كلُّهم كفَّارًا، وقد جعلهم الَّذين أوتوا الكتاب بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾، وهو لا يخاطب بذلك إلَّا من بلغته رسالته؛ لا من مات؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، يتناول هؤلاء كلَّهم كما هو مذهب الجمهور من السَّلف والخلف، وهو مذهب مالكٍ وأبي حنيفة، وهو المنصوص عن أحمد في عامَّة أجوبته، لم يختلف كلامه إلَّا في نصارىٰ بني تغلب، وآخر الرِّوايتين عنه: أنَّهم تباح نساؤهم وذبائحهم؛ كما هو قول جمهور الصَّحابة.

وقوله في الرِّواية الأخرىٰ: لا تباح؛ متابعةً لعليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لم يكن لأجل النَّسب؛ بل لكونهم لم يدخلوا في دين أهل الكتاب إلَّا فيما يشتهونه

(١) الإيمان (ص٦٠ - ٦٢)، ط: دار الحديث - القاهرة.

من شرب الخمر ونحوه، ولكنَّ بعض التَّابعين ظنَّ أنَّ ذلك لأجل النَّسب كما نُقل عن عطاءٍ، وقال به الشَّافعيُّ ومن وافقه من أصحاب أحمد، وفرَّعوا علىٰ ذلك فروعًا؛ كمن كان أحد أبويه كتابيًّا والآخر ليس بكتابيٍّ، ونحو ذلك، حتَّىٰ لا يوجد في طائفةٍ من كتب أصحاب أحمد إلَّا هذا القول؛ وهو خطأ علىٰ مذهبه مخالف لنصوصه، ولم يعلَّق الحُكم بالنَّسب في مثل هذا البتَّة، كما قد بُسط في موضعه. ولفظ «المشركين» يُذكر مفردًا في مثل قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وهل يتناول أهل الكتاب؟ فيه قولان مشهوران للسَّلف والخلف. والَّذين قالوا: بأنَّها تعمُّ؛ منهم من قال: هي محكمة؛ كابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والجمهور الَّذين يبيحون نكاح الكتابيَّات؛ كما ذكره الله في آية المائدة، وهي متأخِّرة عن هذه. ومنهم من يقول: نُسخ منها تحريم نكاح الكتابيَّات. ومنهم من يقول: بل هو مخصوص لم يُرد باللَّفظ العامِّ، وقد أنزل الله تعالىٰ بعد صلح الحديبية قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وهذا قد يُقال: إنَّما نهىٰ عن التَّمسُّك بالعصمة من كان متزوِّجًا بكافرةٍ، ولم يكونوا حينئذٍ متزوِّجين إلَّا بمشركةٍ وثنيَّةٍ؛ فلم يدخل في ذلك الكتابيَّات».

علىٰ كل حال سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، وفي لفظها ما يدلُّ علىٰ استقرار حكم إباحة نكاح الكتابيَّات.

قال العلَّامة محمد بن علي الخطيب الشَّافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال مجاهد وقتادة وابن جبير: آية البقرة مخصوصة مبيَّنة بآية المائدة.

وقال الحسن وعكرمة: نسخ الله سبحانه من آية البقرة تحريم نساء أهل

---

(١) تيسير البيان لأحكام القرآن (١/ ٣٩١).

الكتاب، ويُرْوىٰ عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ومالك، وسفيان الثَّوري.

والقول بالنَّسخ لا يستقيم إلَّا أن يكون قد استقرَّ تحريم المشركات، الوثنيَّات منهنَّ والكتابيَّات، ثم نُسخ بآية المائدة.

وقول هؤلاء الجماعة محمولٌ علىٰ ذلك، ولكن هذا يحتاج إلىٰ صحَّة نقل لحكم الاستقرار في أثناء الإسلام، ولعلَّ الإشارة إلىٰ اليوم بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٥] هي التي دلَّتهُمْ علىٰ استقرار الحكم، ثم نسخِه، أو لعل هذا بناءً علىٰ أن تأخير البيان عن وقت الخطاب لا يجوز».

ولأكابر الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كالفاروق عمر معاني عظيمة في فقه نكاح الكتابيَّات، فإنَّه كره ذلك صيانةً لأعراض المسلمين، ولئلَّا يزهد النَّاس في المسلمات[١].

ويضاف إلىٰ ذلك الخشية علىٰ الذريَّة من فساد عقيدة والدتهنَّ الكتابيَّة.



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٥٨٧).



١٠٢ - فوائد الإظهار والإضمار في الألفاظ

القرآن كلام رب العالمين، ألفاظه الظاهرة والمضمرة في سياقها وتراكيبها اختارها الله لمعان وفوائد بلاغية جميلة، فكن حاضر الذهن للإظهار والإضمار في ألفاظ القرآن، واستنبط منها الفوائد التي تقتضيها حسب وضع اللفظ في سياقه وتركيبه.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾.

[المجادلة: ١١]

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد إيقاع الظاهر موقع المضمر في هذه الآية حيث قال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾، ولم يقل: «يرفعكم»؛ ليدل ذلك علىٰ فضيلة الإيمان والعلم عمومًا، وأنَّ بهما تحصل الرفعة في الدنيا والآخرة، ويدل علىٰ أن من ثمرات العلم والإيمان: سرعة الانقياد لأمر الله، وأن هذه الآداب ونحوها إنما تنفع صاحبها، ويحصل له بها الثَّواب إذا كانت صادرة عن العلم والإيمان، وهو أن تكون خالصة لوجه الله، لا لغير ذلك من المقاصد».

كذلك تأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧]، فهنا عدل عن الضمير، ولم يقل الله (وأعتدنا لهم)، فهذا إظهار في موضع إضمار.

ومن فوائده: إرادة العموم، لأنه إذا قال: (أعتدنا لهم عذابًا مهينًا)، صار هذا خاصًا بهم، لكن قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، فكل كافر سواء هؤلاء أو غيرهم.

ومن فوائده: تطبيق الوصف علىٰ مرجع الضمير الذي لولا هذا الظاهر لكان موجودًا، ومرجع الضمير هم أولئك الذين قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

[النساء: ١٥٠]

ومن فوائده: بيان الحكم، فقوله: «الكافرين» عوضًا عن (لهم)، يفيد علية الحكم، فالعلة في إعداد العذاب المهين لهم هو الكفر[1].



(١) تفسير العثيمين لسورة النساء (٢/ ٣٩٥، ٣٩٧).



١٠٣- ملاحظة حذف الكلمات والجمل

من إيجاز القرآن حذف الكلمات وحذف الجمل، قال ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٣٧هـ): «أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر، شبيه بالسحر، وذلك أنك ترىٰ فيه ترك الذكر أفضل من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبينًا إذا لم تبين، وهذه جملة تنكرها حتىٰ تخبر، وتدفعها حتىٰ تنظر».

والمحذوف لا بد أن يكون في الكلام ما يدل عليه، والمحذوف متىٰ ظهر صار الكلام غثًا، وذهب حسنه.

ومعرفة هذا الأصل عون علىٰ فهم جملة من الأحكام والمسائل، من ذلك دفع ما استشكله بعض الناس من سماع داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لخصومة اللذين تسوروا المحراب، فإنه لما سمع شكوىٰ الشاكي أفتاه مباشرة، وكان واجبه أن يسمع جواب المدعىٰ عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص: ٢١ - ٢٤].

قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم محذوف، أي: فأقر المدعىٰ عليه، فقال لقد ظلمك، ولكنه لم يحك في القرآن اعتراف المدعىٰ عليه، لأنه معلوم من الشرائع كلها إذ لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعىٰ عليه».

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]، قال صاحب الكشاف[1]: «إن قلت: لم خصَّ أصحاب اليمين بقراءة كتابهم؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرؤون كتابهم؟

قلت: بلىٰ، ولكن إذا اطَّلعوا علىٰ ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء علىٰ جناياته والاعتراف بمساوئه أمام التنكيل والانتقام منه، من الحياء والخجل والانخزال، وحبسة اللسان، والتتعتع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكأنّ قراءتهم كلا قراءة».



(١) الكشاف (٢/ ٦٣٧ - ٦٣٨)، رموز الكنوز (٤/ ٢٠٨).



١٠٤ - لا قلب في القرآن

القرآن كلام الله، وهو أفصح الكلام وأقواه وأحسنه، وما تجوّز العرب استعماله في لغتهم، وعرفهم لا يصح أن يجعل كلام الله علىٰ نمطه، فالعرب يجري في كلامهم القلب يقصدون به العبث أو التهكم أو المحاكاة، والله منزه عن ذلك[1].

وبعض الآيات تَوَهَّمَ البعضُ أن فيها قلبًا، وعند التحقيق ليس كذلك.

مثال: قال تعالىٰ في صفات عباده المؤمنين الذين يسألونه أن يجعلهم أئمة يُهتدىٰ بهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يُهتدىٰ بنا في الخير. وقال أبو صالح: يقتدىٰ بهدانا. وقال مكحول: أئمة في التقوىٰ يقتدي بنا المتقون. وقال مجاهد: اجعلنا مؤتمين بالمتقين، مقتدين بهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأشكل هذا التفسير علىٰ من لم يعرف قدر فهم السلف وعمق علمهم، وقال: يجب أن تكون الآية علىٰ هذا القول من باب المقلوب علىٰ تقدير: «واجعل المتقين لنا أئمة»، ومعاذ الله أن يكون شيء من القرآن مقلوب عن وجهه، وهذا من تمام فهم مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه لا يكون الرجل إمامًا للمتقين حتىٰ يأتمَّ بالمتقين، فنبَّه مجاهد علىٰ هذا الوجه الذي ينالون به هذا المطلوب، وهو اقتداؤهم بالسلف المتقين من قبلهم فيجعلهم الله أئمة للمتَّقين من بعدهم، وهذا

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ص(٨٠٥).

(٢) مجموع الرسائل (رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه) ص(١١ - ١٢).

من أحسن الفهم في القرآن وألطفه، ليس من باب القلب في شيء، فمن ائتمَّ بأهل السنة قبله، ائتمَّ به من بعده ومن معه».







١٠٥ - زيادة المبنى زيادة في المعنى

من بلاغة القرآن قوة ألفاظه، وقوة اللفظ قوة في المعنىٰ، فتلمح ذلك يوقفك علىٰ فوائد متجددة في كل لفظة وقعت فيها زيادة في صيغتها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه ليس في القرآن حرف زائد، وإن كل لفظة لها فائدة متجددة زائدة علىٰ أصل التركيب».

مثال: قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، فمقتدر هنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة علىٰ تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب، أو للدلالة علىٰ بسطة القدرة، فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر، وذلك أن مقتدرًا اسم فاعل من اقتدر، وقادر اسم فاعل من قدر، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالتَّوَّاب هو الذي تتكرر منه التوبة مرّة علىٰ مرّة، وهو فعَّال، وذلك أبلغ من التائب الذي هو فاعل، فالتائب اسم فاعل من تاب يتوب فهو تائب: أي صدرت منه التوبة مرة واحدة؛ فإذا قيل: توّاب؛ كان صدور التوبة منه مرارًا كثيرة.

والزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني، إلا إذا تضمَّنت معنىٰ الفعلية، لأن الأسماء التي لا معنىٰ للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها، ألا ترىٰ أنا لو نقلنا لفظة «عذب»، وهي ثلاثية إلىٰ الرباعي، فقلنا: عَذْيَب، علىٰ وزن جعفر؛ لاستحال

معناها، ولم يكن لها معنىٰ، كما نبَّه علىٰ ذلك ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وانظر إلىٰ اختلاف بناء الفعل فيما ذكره الله من عجز يأجوج ومأجوج عن نقض السد، قال تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، قال العلامة أحمد بن إبراهيم ابن الزبير الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «استطاع واستاع واسطاع، والأول أصل، ثم يحذفون أحد الحرفين تخفيفًا، فجيء أولًا بالفعل مخففًا عند إرادة نفي قدرتهم علىٰ الظهور علىٰ السدّ والصعود فوقه، ثم جيء بأصل الفعل مستوفي الحروف عند نفي قدرتهم علىٰ نقبه وخرقه، ولا شك أن الظهور أيسر من النقب، والنقب أشد عليهم وأثقل، فجيء بالفعل مخففًا مع الأخف، وجيء به تامًا مستوفىٰ مع الأثقل، فتناسب».



(١) ملاك التأويل (٢/ ٧٩١).



١٠٦ - الاستفادة من ترتيب الألفاظ

معرفة أسرار تقدم وتأخر الألفاظ يوقفك علىٰ بلاغة القرآن وأحكامه، فهذا النبي ﷺ لما فرغ من طوافه في نسك الحج وذهب إلىٰ الصفا والمروة، بدأ بالصفا، وقال: أبدأ بما بدأ الله به، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وللعلماء تعليقات نفيسة في معاني تقديم الألفاظ وترتيبها في سياقها، فتأمل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ تقديم التوابين علىٰ المتطهرين: «إن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث والنجاسات، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، وهذا الطهور أصل لطهور الماء، وطهور الماء لا ينفع بدونه، بل هو مكمل له، معد مهيأ بحصوله، فكان أولىٰ بالتقديم، لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك، ثم يتطهر بالماء من الحدث».

ومن الأمور الملاحظة في التقديم والتأخير اعتبار:

١ - **ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنىٰ**: من هذا النحو: الجن والإنس، فإن لفظ الإنس أخف لمكان النون الخفيفة والسين المهموسة، فكان الأثقل أولىٰ بأول الكلام من الأخف لنشاط المتكلم وجمامه، وأما في القرآن فلحكمة أخرىٰ سوىٰ هذه، قدَّم الجن علىٰ الإنس في الأكثر والأغلب.

٢ - **ترتيب الألفاظ بحسب الزمان**: نحو عاد وثمود، والظلمات والنور، فإن

الظلمة سابقة للنور في المحسوس والمعقول، قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، فالجهل ظلمة معقولة، وهي متقدمة بالزمان على نور العلم، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ [الزمر: ٦]، فهذه ثلاث محسوسات: ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة.

ومن تقدم الزمان، تقدم السبب على المسبب، كتقدم العزيز على الحكيم، لأنه عز، فلما عز حكم.

وقد يتقدم ذكر المتأخر في الزمن لمعنىً يوجب ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لأن الآخرة أهم من الدنيا، ولأن الآخرة يظهر فيها ملك الله تعالىٰ تمامًا. في الدنيا هناك رؤساء، وهناك ملوك، وهناك أمراء يملكون ما أعطاهم الله عَزَّوَجَلَّ من الملك، لكن في الآخرة لا ملك لأحد ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. فلهذا قدّم ذكر الآخرة من أجل هذه الفائدة المعنوية».

٣- **التقدم للرتبة**: كقوله تعالىٰ: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ [الحج: ٢٧]، لأن الذي يأتي راجلًا يأتي من المكان القريب، والذي يأتي على الضامر يأتي من المكان البعيد.

٤- **التقدم للفضل والشرف**: نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

---

(١) تفسير جز (عم) ص ٢٣٠.



١٠٧ - استخلص العبر من القصص

فما قصَّه الله علينا في كتابه ليس أخبارًا محضة يتسامر بها الناس دون أخذ العظة والعبرة من شأنهم، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

والتنبيه القرآني واضح في قصة أبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالىٰ عنه وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الخبر الذي أخبر الله عن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قيله الذي لقَّاه الله إياه، فقاله تائبًا إليه من خطيئته، تعريف منه جلَّ ذكره جميع المخاطبين بكتابه كيفية التوبة إليه من الذنوب».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الله تعالىٰ لم يذكر ذنوب الأنبياء في القرآن ليعيّرهم بها، ولكن ذكرها ليبين موقع النعمة عليهم بالعفو، ولئلا ييأس أحد من رحمته».

وقصص الأنبياء متنوعة لمن تدبرها، قال أبو الحسن السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكانت تلك المعاني كعرائس تُجْلىٰ في ملابس مختلفة رائقة».

---

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٢٢).

وقال العلامة محمد جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة، وفي كل واحدة منها ما ليس في الأخرىٰ، كأنها ثمرات مختلف ألوانها».

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في بعض فوائد قصص الأنبياء:** «تقرير الإيمان بالله وتوحيده وإخلاص العمل له والإيمان باليوم الآخر، وبيان حسن التوحيد ووجوبه، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

وفي قصصهم أيضًا عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين، في مقام التوحيد، والقيام بالعبودية، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التام، وفي مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الأجر والثواب من الله تعالىٰ، لا يطلبون من الخلق أجرًا ولا جزاءً ولا شكورًا، إلا الأمور النافعة للخلق.

وفيها أيضًا عبرة لاتفاقهم علىٰ دين واحد وأصول واحدة ودعوة إلىٰ كل خلق جميل وعمل صالح وإصلاح، وزجرهم عن كل ما يضاد ذلك.

وفيها أيضًا من الفوائد الفقهية والأحكام الشرعية والأسرار الحكمية شيء عظيم لا غنىٰ لكل طالب علم عنها».

ومن أمثلة الأحكام المستفادة من قصص النبيين: الضمان بالمثل في المتلفات، لقوله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨ – ٧٩].

ومن الأحكام المستفادة من قصص النبيين القول بقسمة المهيأة المستفاد من قصة ثمود لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ [القمر: ٢٨]، وقوله

تعالىٰ: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

ومن الأحكام المستفادة من قصص النبيين تفضيل النكاح علىٰ التخلي لنوافل العبادة، قال تعالىٰ في شأن قصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع العبد الصالح شعيب وقبوله تزويجه إحدىٰ ابنتيه علىٰ أن يرعىٰ الغنم له عشر سنين: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٧ - ٢٨].

وانظر إلىٰ استفادة النبي ﷺ من قصص من قبله من النبيين، قال سبحانه في شأن عدوان فرعون علىٰ موسىٰ: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ [الإسراء: ١٠٣]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة همّوا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: ٧٦ - ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوة علىٰ أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٦ - ١٢٧).



١٠٨- تدبّر

معاني أمثال القرآن

الأمثال المضروبة في القرآن فيها تذكرة وبيان لمعاني عظيمة، ذكر الله هذه المعاني أمثالًا لأنها أثبت في الأذهان مع ما تتضمنه من التشويق لمعرفتها. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وبمقدار النقص في معرفة معاني الأمثال القرآنية يفوت العبد علم كثير، قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال عمرو بن مرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني قرأت قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾».

وكلما عظم علم العالم علم من معاني الأمثال ما لا يعلمه من هو دونه علمًا وفضلًا، قال عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «عقلتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل»(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه منقبة عظيمة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضرب الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمور التذكير والوعظ، والحث، والزَّجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره

---

(١) رواه أحمد وحسنه الهيثمي.

في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلىٰ الحس.

وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة علىٰ بيان تفاوت الأجر، وعلىٰ المدح والذَّمِّ، وعلىٰ الثواب والعقاب، وعلىٰ تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلىٰ تحقيق أمر وإبطال أمر».

وأمثال القرآن لا تكون إلا للمعاني العظيمة، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار والمطالب العالية والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهمُّ من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده علىٰ تعقُّلها وتدبُّرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها، فإن ذلك دليل علىٰ أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمّة، فعدم معرفته غيرها من باب أولىٰ وأحرىٰ، ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدّين ونحوها».





١٠٩ - استخلص الأحكام من الأخبار

كلام الله في القرآن ينقسم إلىٰ قسمين خبر، وإنشاء الذي هو الأمر والنهي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المقسِّمون للكلام من أهل النظر والنحو والبيان ذكروا أن الكلام نوعان: خبر وإنشاء، والخبر دائر بين النفي والإثبات، والإنشاء: أمر، أو نهي، أو إباحة».

ومع هذا فينبغي لطالب العلم أن ينتبه للأخبار المضمّنة معنىٰ الأمر، وما يكون فيها من أحكام، فمن بلاغة القرآن ذكر بعض الأوامر بصفة الخبر مبالغة في الإلزام بهذا الأمر.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: وجوب اعتداد المطلقة بثلاث حيض؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾؛ وهي جملة خبرية بمعنىٰ الأمر؛ قال البلاغيون: إذا جاء الأمر بصيغة الخبر كان ذلك توكيدًا له؛ كأنه أمر واقع صح أن يُخبر عنه».

مثال (٢) قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾: خبر معناه الأمر».

مثال (٣): قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]،

فهذا خبر عن مكة أنها موضع قيام معاش الناس، فهذا يؤخذ منه تحريم التعرض للناس بالأذىٰ، وتغلظ ذلك في الحرم.

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال العلماء: والحكمة في جعل الله تعالىٰ هذه الأشياء قيامًا للناس، أن الله سبحانه خلق الخلق علىٰ سليقة الآدمية من التحاسد والتنافس والتقاطع والتدابر، والسلب والغارة والقتل والثأر، فلم يكن بدّ في الحكمة الإلهية، والمشيئة الأوّلية من كافّ يدوم معه الحال، ووازع يُحمد معه المآل، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فأمرهم الله سبحانه بالخلافة، وجعل أمورهم إلىٰ واحد يزَعُهم عن التنازع، ويحملهم علىٰ التآلف من التقاطع، ويردّ الظالم عن المظلوم، ويقرر كلّ يد علىٰ ما تستولي عليه.

روىٰ ابن القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يقول: ما يَزَع الإمام أكثر مما يزع القرآن، ذكره أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وجَوْر السلطان عامًا واحدًا أقل أذاية من كون الناس فوضىٰ لحظة واحدة، فأنشأ الله سبحانه الخليفة لهذه الفائدة، لتجري علىٰ رأيه الأمور، ويكفّ الله به عادية الجمهور؛ فعظّم الله سبحانه في قلوبهم البيت الحرام، وأوقع في نفوسهم هيبته، وعظّم بينهم حرمته، فكان من لجأ إليه معصومًا به، وكان من اضطهد محميًا بالكون فيه».



---

(١) أحكام القرآن (٦/ ٣٢٥).



١١٠- تمييز المعاني الراجحة من المرجوحة في المجمل

تجاذب المعاني في النصوص واقع بلا ريب، ولكن ما كل معنىٰ محتمل يمكن قبوله وتفسير النصوص به، فهنا يتعين علىٰ كل متعلم وزن المحتملات بميزان الشرع وهو معانيه المعهودة ومقاصده المعروفة وأحكامه المألوفة.

قال نجم الدين الطوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧١٦هـ)**[١]: «الكلام في هذا المكان كالميزان، فلو فرضنا ميزانًا في إحدىٰ كفتيه عشرة أرطال، وفي الكفة الأخرىٰ ثلاثة أرطال، احتجنا لتعديلهما إلىٰ سبعة أرطال، وهو نظير الاحتمال المرجوح مع الدليل القوي، وإن كان في الكفة المرجوحة سبعة أرطال، احتجنا في تعديلهما إلىٰ ثلاثة أرطال، وهو نظير الاحتمال الراجح مع الدليل اللين، وإن كان في الكفة المرجوحة خمسة أرطال أو ستة أرطال احتجنا في التعديل إلىٰ خمسة أو أربعة أرطال، فالتفاوت ها هنا متوسط، وهو نظير الاحتمال المتوسط مع الدليل المتوسط».

وأما بالنسبة لحكم البيان، فقد قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إذا كان البيان يعد منطوقًا به في المبين كان حكمه حكم ذلك المبين: إن واجبًا فواجب، أو مندوبًا فمندوب، أو مباحًا فمباح، وحجة الوجوب القرآن والإجماع والمعقول، أما

(١) شرح مختصر الروضة (١/ ٥٦٤).

(٢) شرح تنقيح الفصول ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

القرآن فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، والفعل مأتي به، فوجب أخذه، لأن ظاهر الأمر الوجوب، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، جعل تعالىٰ اتباع نبيه من لوازم محبتنا لله، ومحبتنا لله تعالىٰ واجبة، ولازم الواجب واجب، فاتباعه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واجب، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، والأمر للوجوب.

وأما الإجماع فلأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لما أخبرتهم عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا بأنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اغتسل من التقاء الختانين رجعوا إلىٰ ذلك بعد اختلافهم، وذلك يدل علىٰ أنه عندهم محمول علىٰ الوجوب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالنبي ﷺ هو المبيِّن للناس ما نُزل إليهم، وسُنَّته تُفسِّر الكتاب وتبيِّنه، وتدل عليه، وتعبّر عنه، وفعله إذا خرج امتثالًا لأمر أو تفسيرًا لمجمل كان حكمه حكم ما امتثله وفسَّره».

ونبَّه بعض العلماء إلىٰ أن البيان حكمه بحسب رفعه للإجمال الوارد في النص، فإن كان البيان رافعًا للإجمال صار البيان واجبًا، وإن كان النص واضحًا بيّنا بنفسه، والبيان متمم ومكمل له، فالبيان هنا فضل.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فائدة بديعة في أصول الفقه، وذلك أن النبي ﷺ متىٰ فعل فعلًا بيَّن فيه مجملًا كان بيانه واجبًا، ومتىٰ كان فعله تتميمًا لحكم معلوم وتفصيلًا لأمر مشروع كان فعله محمولًا علىٰ الفضل كقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، لما كان هذا قولًا مجملًا أو عامًا بيّنه النبي ﷺ

---

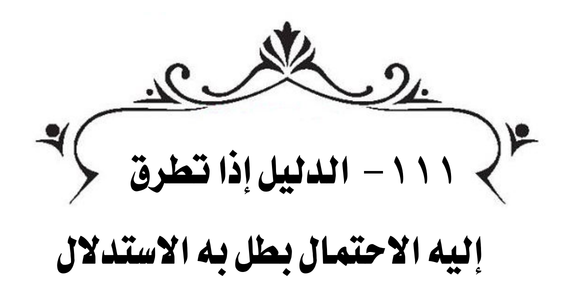
(١) القواعد النورانية الفقهية (١/ ١٧٧).

(٢) القبس في شرح الموطأ (١/ ١٧٣).

بفعله أو خصصه فوقع ذلك الفضل بيانًا لمشكل فوجب امتثاله.

أما قوله: (اطّهروا) أو (حتىٰ تغتسلوا) فهو أمر بيّن في ذاته، واضح في نفسه، فما وقع من الزيادة عليه فهو بذلك أجر وفضل، يبين ذلك ويوضحه أن النبي ﷺ لما أفتىٰ في غسل الجنابة من سأله عن بعض محتملاته، فقال: «**إنما يكفيك أن تحثي علىٰ رأسك ثلاث حثيات من ماء ثم تضغثيه بيديك ثم تفيضي الماء علىٰ سائر جسدك، فإذا أنت قد طهرت**»، ولم يذكر الوضوء، فدلَّ علىٰ أنه أجر وفضل، وليس بواجب ولا فرض».





١١١- الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال

من له استقراء لألفاظ ومعاني الشريعة يتيقن أن خطاب الشرع بيان واضح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الشارع قد نص علىٰ كل ما يعصم من المهالك نصًا قاطعًا للعذر».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن النصوص الشرعية من الكتاب والسُّنَّة تأتي مركبة صريحة في معانيها، لا تحتمل غيره بوجه، هذا حالها في نفسها، وقد اتفق علىٰ هذا جميع أئمة المسلمين، الذين عرفوا مقاصد الشارع في مصادره وموارده، وتمرنوا علىٰ ألفاظه ومعانيه، فكما لا يستريبون في نصوصه في الأحكام الفرعية، فلا يستريبون أيضًا في نصوصه في الأصول، بل يرون هذا النوع أكثر بيانًا، وأبلغ وضوحًا، لشدة الحاجة إليه».

فالواجب علىٰ طالب العلم تمييز المعاني الصحيحة التي توافق ظاهر الدليل من القرآن والسُّنَّة وتقتضيه ألفاظها وتوافق مقاصد الشريعة ومعانيها الكلية، من الاحتمالات الضعيفة التي هي في كثير من الأحيان سوانح خواطر وهواجس آراء.

قال نجم الدين الطوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧١٦هـ)**[٣]: «إن الظاهر والاحتمال

---

(١) درء تعارض العقل والنقل.

(٢) توضيح الكافية الشافية ص ٧٩ - ٨٠.

(٣) شرح مختصر الروضة (١/ ٥٦٨ - ٥٦٩).

المرجوح إذا تقابلا، فقد يحتف بالظاهر قرائن تدفع ذلك الاحتمال وتبطله، ثم قد يكون كل واحد من القرائن دافعة للاحتمال وحدها، وقد لا يندفع إلا بمجموع تلك القرائن، وذلك بحسب قوة القرائن وظهورها، ومقاومتها لذلك الاحتمال، وقصورها عنه، فقد تقاومه قرينة واحدة، أو قرينتان فتدفعه، وقد لا تقاومه إلا جميع، فلا يندفع بدونها».

فقول العلماء «الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال، بطل به الاستدلال»، لا يريدون به أي احتمال، وإنما يريدون به الاحتمال القوي الذي يقتضيه اللفظ ومعاني الشريعة، وقال به جماعة من السلف أو بعضهم.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الاحتمال المؤول به إما أن يقبله اللفظ أو لا، فإن لم يقبله فاللفظ نص لا احتمال فيه، فلا يقبل التأويل.

وإن قبله اللفظ فإما أن يجري علىٰ مقتضىٰ العلم أو لا؟ فإن جرىٰ علىٰ ذلك فلا إشكال في اعتباره، لأن اللفظ قابل له، والمعنىٰ المقصود من اللفظ لا يأباه، فاطراحه إهمال لما هو ممكن الاعتبار قصدًا، وذلك غير صحيح ما لم يقم دليل آخر علىٰ إهماله أو مرجوحتيه.

وأما إن لم يجر علىٰ مقتضىٰ العلم فلا يصح أن يحمله اللفظ الظاهر علىٰ حال، والدليل علىٰ ذلك أنه لو صح لكان الرجوع إليه مع ترك اللفظ الظاهر رجوعًا إلىٰ العمىٰ، ورميًا في جهالة، فهو ترك للدليل لغير شيء، وما كان كذلك فباطل».

فالحاصل هو وجوب التحرز من معارضة دلالات الأدلة بإيراد الاحتمالات الضعيفة علىٰ نصوص القرآن والسُّنَّة، ثم ادعاء أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال

---

(١) الموافقات (٣/ ١٠٠).

بطل به الاستدلال.

ودفع الأدلة في نحورها لا يتوقف عند هذا، فالمتعصبة يسلكون كل طريق لدفع أدلة مخالفيهم كدعواهم الخصوصية في أفعال النبي ﷺ أو دعوىٰ عدم معرفة علل الحكم، وهكذا في اعتراضات لا تنهض في كثير من الأحيان لرد المذاهب الصحيحة لمن له معرفة واستقراء لكثير من المسائل الشرعية.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولا يخفىٰ أن رد السنن الفعلية بمثل هذا يستلزم رد أكثر أفعاله، ويستلزم رد ما لا يعلم وجهه من أقواله، فيفضي ذلك إلىٰ رد أكثر السُّنَّة، وذلك باطل مخالف للآيات القرآنية القاضية باتباع الرسول ﷺ، والتأسي به، والأخذ بما أتىٰ به لأنها لم تُفرّق بين ما عُلم وجهه وما جُهل، فمن ادّعىٰ اعتبار العلم فعليه الدليل. علىٰ أن هذه المقالة قد صارت عصىٰ يتوكأ بها من رام صيانة مذهبه إذا خالف الثابت من فعله ﷺ وإن كان له وجه أوضح من الشمس، ثم إنهم يحتجون بأفعاله إذا وافقت المذهب ولا يقيدون الاحتجاج بمثل هذا القيد، وما أكثر هذا الصنع في تصرفاتهم لمن تتبع، فليأخذ المنصف من ذلك حذره، فإن المعذرة الباردة في طرح سُنَّة صحيحة مما لا ينفق عند الله، ولاسيما إذا كان ذلك لقصد الذب عن محض الرأي».

فالواجب علىٰ طالب العلم تعظيم حرمة نصوص القرآن والسُّنَّة، وأن لا يطلق العنان للخواطر والهواجس ثم يسلطها علىٰ النصوص بدعوىٰ الاحتمال.

قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لا يجوز حمل الخاطر علىٰ استخراج

---

(١) نيل الأوطار (٦/ ١٧٦ - ١٧٧)، ط - مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) قواطع الأدلة (١/ ٤١٤).

التأويلات المستكرهة للأخبار، وينبغي للعالم الورع أن يتجنب ذلك ويحترز عنه غاية الاحتراز، لأن الكلام علىٰ كلام الشارع صعب، والزلل فيه يكثر، وقد ورد في الخبر: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله».

وقال أبو عبد الله المازري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يطلق الفقيه هواجس خواطره يسرح فيها كيف شاء، ولكن لا بد أن يجري خواطره علىٰ مضمار مسالك السلف في الاستنباط واستفادة الظنون».



(١) إيضاح المحصول من برهان الأصول ص ٣٨٨.



١١٢- طرق تمييز المعاني الراجحة في المجمل

إذا علم طالب العلم ما في بعض النصوص من الإجمال، وجب عليه بيان هذا الإجمال، وتمييز المعاني الراجحة من المرجوحة في النصوص.

قال نجم الدين الطوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال بعض الأصوليين: إن البيان في ضمن المجمل، حتىٰ إن جميع ما وردت به السُّنَّة وقاله الفقهاء في تفاصيل الصلاة وأفعالها في ضمن قوله - عَزَّوَجَلَّ - ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ووجهه أن البيان كاشف عمّا في ضمن المجمل، كالبحث كاشف عما في ضمن الأرض من المعادن، وكما أن المعادن تستخرج من الأرض بالبحث، كذلك المعاني والأحكام تستخرج من المجمل بالبيان».

والمتتبع للنصوص يجد أن بعض الآيات تامة البيان بنفسها، وبعضها مفتقر لبيان النبي ﷺ، قال العلامة محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وجدت أصول الفرائض كلها لا يُعرف تفسيرها ولا تأديتها ولا العمل بها إلا بترجمة من النبي ﷺ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الآية قد تكون نصًّا، وقد تكون

---

(١) الإشارات الإلهية (٣/ ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) السنة ص ٣٦.

(٣) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتوىٰ الحموية ص ٦ - ٧.

ظاهرة، وقد يكون فيها إجمال، فالحديث يُقرِّر النص، ويكشف معناه كشفًا تفصيليًا، ويُقرِّب المراد بالظاهر ويدفع عنه الاحتمالات، ويُفسِّر المجمل ويبينه ويوضحه، لتقوم حجة الله به، وليتبين أن الرسول ﷺ بيَّن معناه وحروفه جميعًا، وأنه لم يترك البيان المجمل ولا الظاهر، ولم يؤخِّره عن وقت الحاجة، بل قد بيَّن ذلك أحسن البيان وأجمله».

وسياق النص ولفظه ودلالته اللغوية من أقوىٰ طرق تعيين المحتملات، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فالعلماء اختلفوا من هو الذي بيده عقدة النكاح؟ فمنهم من قال: الزوج، ومنهم من قال: الولي.

قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، دليل علىٰ أن الذي بيده عقدة النكاح الزوج، لأن لكل واحد منهم فضلًا علىٰ صاحبه حثه الله علىٰ ترك نسيانه، منهن بالتجافي عن النصف، ومنهم بإكماله.

ومن قال: هو الولي كان الفضل من جانب واحد في العفو من قبل المرأة كان أو من عند وليها.

وكان ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يُحدث عن ابن شبرمة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال:** كلمت أبا الزناد في ذلك، فقال: هو الولي، وقلت أنا: هو الزوج، أرأيت إذ كان وليها هو الذي تزوج بها فطلقها قبل أن يدخل بها فأبت أن تعفو، أله أن يعفو عن نفسه؟

فسكت.

---

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ١٧١ - ١٧٣).

وهذه لطيفة حسنة من ابن شبرمة، وكان قوله علىٰ تأويل ما قلناه. قوله: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾، مخاطبة للأزواج في الإتمام، فيكون العفو في هذا الموضع بمعنىٰ الزيادة والنماء، لا بمعنىٰ النقصان والمحق. والعفو من الأضداد، فإذا أتم لها الصداق كان أقرب إلىٰ التقوىٰ، إذ الزايد علىٰ ما يجب عليه أقرب إليها من الذاهب بكله.

وقد اتفق القراء علىٰ إرسال الواو، وأنه بالتاء، وذلك مما يزيل الالتباس عنه أنه مخاطبة الأزواج، إذ لو كان إخبارًا عنهن لكان يكون بالياء وإثبات النون، أو عن الولي كان بالتاء ونصب الواو، والذي يزيل كل لبسة أنه الزوج قوله: ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾، ولو كان الولي لكان الذي بيده عقدة الإنكاح، والله أعلم».

ومن طرق تعيين المحتملات تفسير الصحابة، لأنهم أخذوا معاني القرآن وبيانه من النبي ﷺ، وهم أفصح الخلق وأعلم بدلالات الألفاظ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «انظر في عموم كلام الله ورسوله لفظًا ومعنىٰ حتىٰ تعطيه حقه، وأحسن ما تستدل علىٰ معناه آثار الصحابة الذين كانوا أعلم بمقاصده، فإن ضبط ذلك يوجب توافق أصول الشريعة وجريها علىٰ الأصول الثابتة».

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فإن العمل - الأولين - مخلص للأدلة من شوائب المحامل المقدرة الموهنة، لأن المجتهد متىٰ نظر في دليل علىٰ مسألة احتاج إلىٰ البحث عن أمور كثيرة، لا يستقيم إعمال الدليل دونها، والنظر في أعمال

(١) القواعد النورانية ص ٢٣١.

(٢) الموافقات (٣/ ٧٦).

المتقدمين قاطع لاحتمالاتها حتمًا، ومعيّن لناسخها من منسوخها، ومبين لمجملها، إلىٰ غير ذلك. فهو عون علىٰ سلوك سبيل الاجتهاد عظيم، ولذلك اعتمده مالك بن أنس ومن قال بقوله. وقد تقدّم منه أمثلة. وأيضًا فإن ظواهر الأدلة إذا اعتبرت من غير اعتماد علىٰ الأولين فيها مؤدية إلىٰ التعارض والاختلاف، وهو مشاهد معنىٰ، ولأن تعارض الظواهر كثير[1] مع القطع بأن الشريعة لا اختلاف فيها».

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ومن هنا يقصر بعض العلماء ويتوحَّل في خضخاض من الأغلاط حين يقتصر في استنباط أحكام الشريعة علىٰ اعتصار الألفاظ ويوجه رأيه إلىٰ اللّفظ مقتنعًا به، فلا يزال يُقلِّبُهُ ويُحلِّلُه ويأمل أن يستخرج لُبَّه، ويُهْمِل ما قدمناه من الاستعانة بما يحف بالكلام من حافات القرائن والاصطلاحات والسياق، وإن أدَّق مقام في الدلالة وأحوجه إلىٰ الاستعانة عليها مقام التشريع.

وفي هذا العمل تتفاوت مراتب الفقهاء، وترىٰ جميعهم لم يستغنوا عن استقصاء تصرفات الرسول ﷺ ولا عن استنباط، وكانوا في عصر التابعين وتابعيهم يشدُّون الرِّحال إلىٰ المدينة ليتبصروا من آثار الرسول ﷺ وأعماله وأعمال الصحابة ومن صحبهم من التابعين. هنالك يتبين لهم ما يدفع عنهم احتمالات كثيرة في دلالات الألفاظ، ويتضح لهم ما يُستنبط من العلل تبعًا لمعرفة الحكم والمقاصد».

---

(١) التعارض في أذهان المستدلين لا في الأدلة نفسها إلا ما دخله النسخ.

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية ص ٢٠٤.



١١٣ - تعاضد الأدلة يدفع الأقوال المرجوحة والضعيفة والمبتدعة

لا تخلو بعض الأحكام من أقوال مرجوحة وضعيفة، والأدلة إذا أعطيت حقها من التدبّر حصل بها تمييز الراجح من المرجوح، والقوي من الضعيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٢٨هـ)**[١]: «إن القرآن من تدبّره تدبُّرًا تامًّا تبيَّن له اشتماله علىٰ بيان الأحكام، وأن فيه من العلم ما لا يُدركه أكثر الناس، وأنه يُبيّن المشكلات، ويفصل النزاع بكمال دلالته وبيانه إذا أُعطي حقَّه، ولم تُحرَّف كَلِمُهُ عن مواضعه».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الظواهر إذا تعاضدت علىٰ مدلول واحد صار قطعيًّا».

وقال أيضًا[٣]: «لا يستريب عاقل أنَّ العلم بكثرة الأدلَّة وقوَّتها، وبفساد الشُّبهة المعارضة لذلك، وبيان بطلان المحتج عليها، ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشُّبهة المعارضة له، فإنّ الشيء كلما قويت أسبابه وتعددت وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكماله وقوته وتمامه».

---

(١) جامع المسائل المجموعة الأولىٰ ص ٢٥٦.

(٢) بيان تلبيس الجهمية ٥/ ٣١٦).

(٣) شرح حديث جبريل (ص٤٦٢).

مثال: الطلاق ثلاث بلفظ واحد قيل إنه يقع ثلاثًا، وقيل إنه لا يقع شيء وهو مِن أقوال بعض الرافضة، والصواب أنه لا يقع به إلا طلقة واحدة، لأن أدلة القرآن متعاضدة علىٰ ذلك:

١ - **قال الله:** ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، إلىٰ أن قال: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ١ - ٢]، ومعلوم أن هذا لا يكون في الطلاق الثلاث، فإن الثلاث لا إمساك بعدهن، وبعد الثلاث لا يُحدث الله للزوج رجعة بدون رضاها.

٢ - **قوله تعالىٰ:** ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، إذن في مطلق الطلاق، ليس إذنًا في كل طلاق، وإذا لم يكن فيه عموم فهو لم يأذن إلا في الطلاق الذي وصفه، وهو أن يطلّق للعدة، وأن يحصي العدة ويتقي الله، وأنه إذا بلغن أجلهن أمسك بمعروف أو فارق بمعروف، وهذه الصفة إنما هي في الطلاق دون الثلاث.

٣ - أنه أمر بإحصاء العدَّة وأن يتقي الله، وأمر إذا بلغن أجلهن أن يُمسك بمعروف أو يُسرِّح بمعروف، وهذا لا يحتاج إليه في الثلاث، فإن الثلاث إنما يحتاج إلىٰ إحصاء العدة لتحلَّ لغيره، لا لأجل إمساكه وتسريحه.

٤ - **قال تعالىٰ:** ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١]، وهذا حكم المطلقة الرجعية، فإن زوجها أحقُّ بها ما دامت في العدة.

٥ - **قال تعالىٰ:** ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، فأي أمر يحدث بعد الثلاث، فإن الله ذكر هذا ليبيِّن أنه قد يحدث بعدُ رغبة في الزوجة وندم علىٰ الطلاق، فيكون له سبيل إلىٰ رجعتها.

٦ - **قوله تعالىٰ**: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهذا صفة الطلاق الرجعي، فدلَّ ذلك علىٰ أن هذا هو الطلاق الموصوف في كتاب الله بقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾، فالمطلق ثلاثًا ابتداءً لا رجعة له، ومن لم يُوقع إلا طلاقًا لا رجعة فيه فقد خالف كتاب الله.

٧ - **قوله تعالىٰ**: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١]، وهذا لا يتأتىٰ في جمع الثلاث.

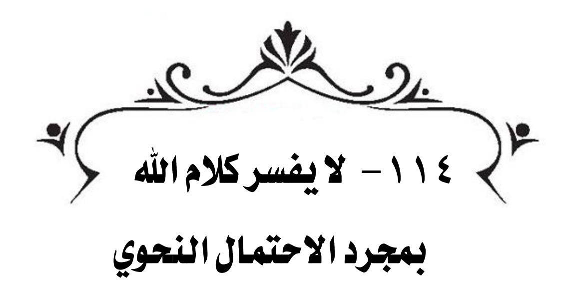
٨ - **قال تعالىٰ**: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١]، فقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ عام في كل تطليق، فإنه نكرة في سياق الشرط، فأمر عند بلوغ الأجل بالإمساك أو التسريح، وهذا لا يكون مع جمع الثلاث، فعُلِم أن جمع الثلاث لم يدخل في ذلك، فلا يكون داخلًا في مسمىٰ التطليق، فلا يكون مشروعًا، فإنه لو دخل في مسماه لزم مخالفة ظاهر القرآن وتخصيص عمومه.

٩ - **قال تعالىٰ**: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقد روي أن جمع الثلاث من اتخاذ آيات الله هزوًا، قال محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أُخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلَّق امرأته ثلاث تطليقات جميعًا، فقام غضبان، ثم قال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟! حتىٰ جاء رجل فقال: يا رسول الله! أفلا أقتله؟[(١)].

فمجموع هذه الوجوه وغيرها يُعين أن طلاق الثلاث بلفظ واحد واحدة ويدفع الأقوال الضعيفة.

---

(١) إلىٰ غير ذلك من تسعة ثمانية عشر وجهًا ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية كما في جامع المسائل المجموعة الأولىٰ (ص ٢٧٥ - ٢٩١).



١١٤- لا يفسر كلام الله بمجرد الاحتمال النحوي

لا تبادر إلىٰ حمل كلام الله علىٰ ما يقتضيه مجرد الاحتمال النحوي دون مراعاة مراد الله ومعنىٰ الآية، والمعنىٰ المعهود للقرآن.

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد زلت أقدام كثير من المعربين راعوا في الإعراب، ظاهر اللفظ، ولم ينظروا في موجب المعنىٰ».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه لا يجوز أن يُحمل كلام الله عَزَّوَجَلَّ ويُفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون به الكلام له معنىٰ ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة ويُفهم من ذلك لتركيب أي معنىٰ اتفق، وهذا غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويُفهم من ذلك التركيب أي معنىٰ اتفق، وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنىٰ في سياق آخر، وكلام آخر، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن».

مثال: قراءة الخفض في ﴿أَرْجُلِكُمْ﴾ من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، فهم منها البعض أن الرجل تُمسح، وهذا خطأ، لأمور:

١ – أن النبي ﷺ غسل وما مسح قط.

٢– أن النبي ﷺ توعد بالنار لمن ترك إيعاب غسل الرجلين، فإنه رأىٰ قومًا تلوح أعقابهم، فقال: ويل للأعقاب من النار.

٣– المسح في قراءة الخفض يُراد به الغسل، قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن الفاشي المستعمل في أرض الحجاز أن يقولوا: تمسحنا للصلاة، أي: توضأنا».

٤– إن العطف يقع مرة علىٰ اللفظ المجاور، ومرة علىٰ المعنىٰ المجاور، كقولهم: جحر ضب خرب، والخرب نعت الجحر.

٥– لا بد من تأمل قراءة (الخفض) في ضوء قراءة (النصب) التي تدل علىٰ غسل الرجلين.

٦– قراءة الخفض لا يُراد بها المسح فقط، وإنما يُراد بها المسح مع الغسل، كالدلك والغسل.

٧– القحطاني في نونيته ذهب إلىٰ أن قراءة الخفض منسوخة.





١١٥- تقديم معاني القرآن المعهودة على التفسير اللغوي المحض

لا يجوز العدول عن المعاني المعهودة للقرآن لمحض المعنىٰ اللغوي، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن النبي ﷺ قد يتكلم بكلام من كلام العرب أو أعمَّ منه، ويتلقىٰ ذلك عنه حملة شريعته من الصحابة، ثم يتلقاه عنهم التابعون، ويتلقاه عنهم أئمة العلماء، فلا يجوز تفسير ما ورد في الحديث المرفوع إلا بما قاله هؤلاء أئمة العلماء الذين تلقوا العلم عمن قبلهم، ولا يجوز الإعراض عن ذلك والاعتماد علىٰ تفسير من يُفسِّرُ ذلك اللفظ بمجرد ما يفهمه من لغة العرب. وهذا أمر مهم جدًا، ومن أهمله وقع في تحريف كثير من نصوص السنة، وحملها علىٰ غير محملها». وكذلك القرآن يجب أن يُحمل علىٰ معانيه المعهودة.

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، فسر بعض أئمة اللغة الهوىٰ بنزول القرآن منجمًا، قال ابن خالويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل شيء من قريب يُقال أهوىٰ، وكل شيء بعيد يُقال: هوىٰ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، لأنه من بعيد، أقسم الله تعالىٰ بنجم القرآن أي بنزوله».

كذا قال، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معترضًا: «قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في رواية عكرمة، يعني: النجوم التي تُرمىٰ بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع، وهذا قول الحسن، وهو أظهر الأقوال، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظًا للوحي من استراق

الشياطين له علىٰ أن ما أتىٰ به رسول الله ﷺ حق وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذا هوىٰ رصدًا بين يدي الوحي وحرسًا له، وعلىٰ هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل علىٰ المقسم عليه، وليس بالبيّن تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوىٰ، ولا تسمية نزوله هويًا، ولا عُهد في القرآن ذلك فيُحمل هذا اللفظ عليه».

ومن أشهر الأمثلة علىٰ ضرورة حمل ألفاظ القرآن علىٰ المعنىٰ المعهود في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن لفظ الزينة يكثر تكرره في القرآن العظيم مرادًا به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها، ولا يُراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين بها، كقوله تعالىٰ: ﴿يَابَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ [القصص: ٦٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ الآية [النحل: ٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] وقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩] الآية، وقوله تعالىٰ عن قوم موسىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ

---

(١) أضواء البيان (٦/ ١٩٩).

مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ [النور: ٣١]، فلفظ الزينة في هذه الآيات كلها يُراد به ما يزين به الشيء وهو ليس من أصل خلقته كما ترىٰ، وكون هذا المعنىٰ هو الغالب في لفظ الزينة في القرآن، يدل علىٰ أن لفظ الزينة في محل النزاع يُراد به هذا المعنىٰ، الذي غلبت إرادته في القرآن العظيم، وهو المعروف في كلام العرب، كقول الشاعر:

يأخذن زينتهن أحسن ما ترىٰ وإذا عطلن فهن خير عواطل

وبه تعلم أن تفسير الزينة في الآية بالوجه والكفين فيه نظر».





١١٦- رد المتشابه إلى المحكم

آيات القرآن نوعان: محكمة ومتشابهة كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

ومن أعظم الحكم التي من أجلها جعل الله الاشتباه في بعض آياته هو امتحان الناس في إيمانهم، فإنه لو شاء لجعل القرآن كله محكمًا، ولكن أراد ابتلاء الناس في إيمانهم ليتميز الصادق المتبع أمر الله فيلزم المحكم، من المضاد لأمر الله المتبع للمتشابه ابتغاء الفتنة.

قال العلامة أبو عبيد الجبيري المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لو كانت جلية كلها لارتفع التنازع وعُدم الاختلاف، ولم يُلجأ إلىٰ تدبُّر، ولا احتيج إلىٰ اعتبار وتفكير، ولا وُجد شكٌّ ولا ظن، ولا جهل ولا حسبان، لأن العلم حينئذ يكون طبعًا. ولو كانت كلها خفية لم يبق طريق إلىٰ معرفة شيء منها، إذ الخفي لا يُعلم بنفسه، ولو عُلم بنفسه لكان جليًا».

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لو زال الاختلاف بأن يُنص كل شيء باسمه

(١) التوسط بين مالك وابن القاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل مدونة ص ٢١٠.

(٢) أعلام الحديث (١/ ٢١٨).

تحليلًا وتحريمًا لارتفع الامتحان، وعُدم الاجتهاد في طلب الحق، ولاستوىٰ الناس في رتبة واحدة، ولبطلت فضيلة العلماء علىٰ غيرهم».

والمقصود بالتشابه هذا هو اشتباه معنىٰ الآية، فرده إلىٰ المحكم من آي القرآن يزيل الاشتباه ويميّز الحقيقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يكون الإحكام في التأويل والمعنىٰ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتىٰ لا تشتبه بغيرها.

وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا، وتشبه هذا، فتكون محتملة للمعنيين».

والاشتباه الواقع في بعض النصوص لا يخرج القرآن عن كونه بيانًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «بيان الأحكام يحصل تارة بالنص الجلي المؤكد، وتارة بالنص الجلي المجرد، وتارة بالنص الذي قد يعرض لبعض الناس فيه شبهة بحسب مشيئة الله وحكمته.

وذلك كله داخل في البلاغ المبين، فإنه ليس من شرط البلاغ المبين أن لا يُشكل علىٰ أحد، فإن هذا لا ينضبط، وأذهان الناس وأهواؤهم متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، وفيهم من يبلغه العلم، وفيهم من لا يبلغه، إما لتفريطه أو عجزه».

فالواجب علىٰ متحري الحق رد المتشابه إلىٰ المحكم، والاستعانة بفهم الصحابة في تمييز الحق.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «فالقرآن معانيه كلها بيِّنة، لكن

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

(٢) منهاج السنة (٨/ ٥٧٥ - ٥٧٦.).

(٣) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد ص ٤٩٥.

بعض القرآن يشتبه علىٰ ناس دون آخرين، حتىٰ العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنىٰ القرآن، وهذا يدل علىٰ أنه خفي علىٰ بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعًا بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما، فإنها تُحمل عليهما جميعًا».

واتباع المتشابه في آي القرآن هو أول ما وقع من الشر في هذه الأمة، وكانت بدايته في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حيث ظهر عبد الله بن صبيغ التميمي واتّبع المتشابه، وأخذ يخوض فيه.

وعظم اتباع المتشابه في عهد علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حيث صاروا مجموعات، وهؤلاء هم الخوارج، الذين فارقوا الجماعة، وأراقوا دماء المسلمين لاتباعهم المتشابه.

قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **في الخوارج**: عمدوا إلىٰ آيات في الكفار فجعلوها في المسلمين.

وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لما ناظرهم أحالهم إلىٰ ما يُوجب نزعهم عن هلكة المتشابه، حيث قال لهم: «أتيتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وهم الذين نزل عليهم القرآن وهم أعلم بتأويله».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «فإن الخوارج أول من تبع ما تشابه منه، وابتغوا بذلك الفتنة، فقتلوا من أهل الإسلام ما لا يحصىٰ كثرة، وتجنبوا قتل أهل الشرك، وأخبارهم في ذلك شهيرة، ولذلك ورد في عدة أحاديث صحيحة أنهم شر الخلق والخليقة، وذكر الخوارج نبّه به الحديث المذكور علىٰ من ضاهاهم في

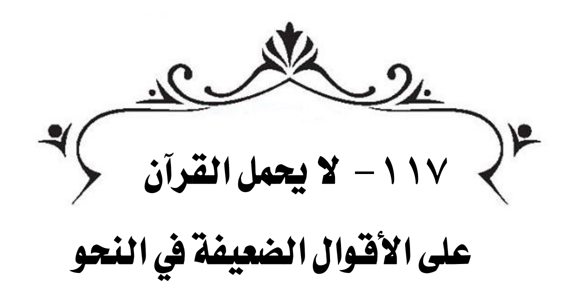
---

(١) العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٦٢ - ٦٦٣).

اتباع المتشابه وابتغاء تأويله، فالآية شاملة لكل مبتدع سلك ذلك المسلك».







١١٧- لا يحمل القرآن على الأقوال الضعيفة في النحو

القرآن كلام رب العالمين، فيجب أن يتجنب فيه الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة في الإعراب، ويجب أن يحمل علىٰ القوي الفصيح(١).

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أما التنزيل فلا يجوز أن يخرج إلا علىٰ ما يغلب علىٰ الظن إرادته، فإن لم يغلب شيء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف».

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، حمل الشافعية [الباء] في الآية علىٰ التبعيض، وهذا ضعيف في مذاهب النحويين.

قال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أكثر أسباب الخلاف في هذه المسألة دخول «الباء» في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾. والقول فيها عند أصحاب مالك علىٰ وجهين، أحدهما: أنها زائدة مؤكدة، فالمعنىٰ: امسحوا رؤوسكم، فيجب المسح لجميع الرأس علىٰ نص الآية. وقال بعضهم: إن [الباء] علىٰ بابها للإلصاق، ليست بزائدة. والمعنىٰ علىٰ ثبوت [الباء] وسقوطها سواء، وذلك يوجب عموم المسح، وهذا الوجه أحسن لأن زيادة [الباء] في هذا الموضع غير معروف في كلام العرب. والذين ذهبوا إلىٰ جواز مسح البعض، قال أكثرهم: إن

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٨٤).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٨٤).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٣٦٩ - ٣٧٠).

[الباء] للتبعيض فيقتضي مسح بعض الرأس، وهذا قول ضعيف عند أهل العربية، وقد ردّه ابن جني في [سر الصناعة]، وبيّن فساده غير أنه أراد قائل هذا [الباء] بمعنىٰ [من]، فكأنه قال: [امسحوا من رؤوسكم]، فهذا قول ضعيف أيضًا، لأنه إخراج [للباء] عن بابها، وإنما يجوز علىٰ مذهب بعض الكوفيين».

وقال برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٨٨٤هـ)**(١): «وأما دعوىٰ أن [الباء] إذا وليت فعلًا متعديًا أفادت التبعيض في مجرورها لغة فغير مسلم دفعًا للاشتراك، ولإنكار الأئمة.

قال أبو بكر: سألت ابن دريد وابن عرفة عن الباء تبعض؟ فقالا: لا نعرفه في اللغة.

وقال ابن برهان: من زعم أن الباء تبعّض، فقد جاء عن أهل اللغة بما لا يعرفونه، وقوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وقول الشاعر: «شربن بماء البحر»، فمن باب التضمين، كأنه قيل: تروىٰ».



(١) المبدع في شرح المقنع (١/ ١٢٧).



١١٨ - التمس أنواع العلوم من القرآن

من اعتقد أن القرآن فيه بيان كل شيء، صرف همّته إلىٰ طلب أنواع العلوم منه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني: لكل شيء من أمر الدين، إما نصًا، وإما دلالة وإحالة علىٰ السنة، فإن الكتاب العزيز اشتمل علىٰ الأمر بالانتهاء إليهما والاعتماد عليهما، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]».

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أُنزل في القرآن كل علم، وبُيِّن لنا فيه كل شيء، ولكنّ علمنا يقصر عمّا بُيِّن لنا في القرآن».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل علىٰ سبيل الهدىٰ فيها».

وأَجَلُّ ما في القرآن من العلوم توحيد رب العالمين، وشرائع الدِّين، وبيان الأحكام من الحلال والحرام، والترغيب في الخيرات، والتحذير من أنواع المضار والمحرمات.

فيه المواعظ من الترغيب والترهيب، والحِكَم والأمثال، من أصول تعبير الرؤىٰ، وفيه الآيات الدالة علىٰ أصول علم الفلك، والطب، كما دلَّ علىٰ علم الصناعات، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا

تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيدخل فيه جميع المخترعات التي حدثت والتي تحدث إلىٰ يوم القيامة من المراكب البرية والبحرية والهوائية، وما خلقه وعلمه الإنسان بواسطة الكيمياء والكهرباء من المخترعات المدهشة، ونقل الأصوات والأنوار من الأماكن الشاسعة في أسرع وقت.

وهذا من الآيات والبراهين التي دلَّ عليها القرآن، حيث لا يحدث حادث جليل أو حقير، كبير أو صغير، إلا وفي القرآن تصريح به، أو إدخاله في عموم أو مفهوم، وأنه لم يأت ولن يأتي علم صحيح ولا حادث حقيقي ينقض شيئًا من أدلة القرآن، فإنه تنزيل من حكيم محيط علمه، بكل شيء، نفذت إرادته ومشيئته في كل شيء».

فالشأن في الاستهداء بنور القرآن، واجتهاد العلماء وطلبة العلم في التماس أنواع العلوم منه ودلالة الخلق إليه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن القرآن الكريم فيه بيان لكل شيء؛ لأن النور لا بد أن تستبين به كل الأشياء، كالنهار إذا طلع بانت به الأشياء، وكالحجرة إذا أسرجتها فلا بد أن يبين منها ما كان خافيًا، فالقرآن تبيان لكل شيء، ولكن قد يخفىٰ البيان إما لقلة الإيمان، وإما لقلة العلم، وإما لقصور الفهم، وإما لسوء القصد، وإلا فإن القرآن بيّن ونور لكل أحد، لكن قد يكون عند الإنسان ضعف إيمان، بمعنىٰ أنه لا يثق بأن القرآن فيه بيان كل شيء، أو يكون قاصر علم، وليس عنده أداة يتمكن بها من استنباط الأحكام من الأدلة، ومن ثَمّ صرنا محتاجين إلىٰ تعلم أصول الفقه، وإما أن يكون من قصور الفهم، فيكون الإنسان

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ٥٣٠ - ٥٣١).

عنده علم وعنده تدبر لكن لا يفهم، والناس يختلفون في هذا اختلافًا عظيمًا».







١١٩- لا تُنكر القراءات الثابتة لاستشكالات النحويين

معرفة القراءات ضروري للتحقق من معنىٰ الآية، والوقوف علىٰ فوائد مهمة تتعلق بأحكام الآية وغيره.

وهنا لا بد أن يكون طالب العلم علىٰ حذر من بعض ملاحظات اللغويين والنحويين، فإن لهم اعتراضات غير مقبولة علىٰ بعض القراءات، والخلاف بين القُرّاء وبعض اللغويين معلوم. قال محمد ابن عيسىٰ الأصبهاني: «أصحاب النحو أعداء القرآن».

قال أبو الحسن السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يريد بهذا من أشرت إليه من جهلتهم المتوهمين أن القراء قرأوا من اختيارهم، فطعنوا عليهم، ونسبوا إلىٰ قراءتهم الخطأ، وجاروا في الطعن عليهم، وقد تابعهم علىٰ ذلك جماعة، فوقعوا في أئمة القرآن، كوقوع أبي حاتم السجستاني في حمزة، وابن قتيبة، وغيرهم، ممن ليس بقارئ ولا نحوي، كالحكيم الترمذي وأضرابه.

والقراء اعتمادهم في قراءتهم علىٰ النقل، وهذا أصل بنفسه، فالقرآن نزل بلغة قريش.

وقرأ الشعبي (والله ربَّنا)، فقيل له: إن أصحاب العربية يقولون جميعًا (والله ربِّنا)، جرًا، فقال: هكذا أقرأنيها علقمة بن قيس».

وقيل لطلحة بن مصرِّف: يا أبا عبد الله: إن بعض أصحاب النحو يقول في قراءتك لحن!

قال: ألحن كما لحن أصحابي أحبُّ إليَّ من أتابع هؤلاء.

وقال طلحة أيضًا: إن كل شيء في القرآن مرتفع الواو إلا التي في البروج، وما أعرفها في العربية ولكني أتبع الأثر، يعني: الوقود.

ونحن لا نقول كما قال طلحة: ألحن كما لحن أصحابي، مع أنَّه لم يقصد بذلك اللحن، وإنَّما يرد عليهم بما يدلُّ علىٰ عدم لحنه؛ لأنَّه ذكر أنَّه أخذ القراءة بالنقل الثابت عن القراء، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، وهو حاكم علىٰ ما يعرفه أو يجهله الناس من لغة العرب، وليس العكس.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ القرآن يَحْكم ولا يُحْكم عليه، بل إذا جاء في القرآن تركيب لم يُعهد في اللغة العربية، فإنَّ الفضل للقرآن بإحياء هذا التركيب».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وعلىٰ هذا فنقول في كل آية زعم النُّحاة أنَّها شاذَّة، إنَّه ليس في القرآن شيء شاذّ، بل كل ما في القرآن فهو علىٰ اللغة الفصحىٰ بلسان عربي مبين، ويجب أن تؤخذ القواعد من القرآن ليحكم بها وعليها، لا أن تؤخذ القواعد مؤصلة باصطلاحات حادثة، ثم يُقال: القرآن شاذ».

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير سورة النساء (١/ ١٦).

(٢) تفسير سورة النساء (١/ ١٦).



١٢٠ - لزوم الظاهر ومحاذرة التأويل البدعي

عمد بعض المبتدعين إلىٰ صرف معاني النصوص عن حقائقها بأنواع المجازات ومستنكر التحريفات، والذي أوجب لهم ذلك هو الظن الفاسد الذي مضمونه نبذ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وراء ظهورهم، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف والكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والتأويل في القرآن يطلق علىٰ حقيقة ما يؤول إليه الشيء كما في قول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما سجد له والداه وأخوته: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، يعني هذه حقيقة ما آلت إليه رؤياي قبل أربعين سنة لما رأيت الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا لي ساجدين.

ويُطلق التأويل علىٰ الفهم، كما في دعاء النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل**»، وهذا ما استعمله الطبري في تفسيره حيث يقول: القول في تأويل قوله تعالىٰ: كذا، وكذا.

وأما التأويل البدعي فهو صرف اللفظ عن حقيقته وظاهره إلىٰ مجازه، كتأويل المبتدعة الاستواء في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] بالاستيلاء.

وبسبب التأويل افترقت الأمة إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة، وصار المبتدع يقول ما شاء لأنه لا يتعبد لله بظاهر التنزيل، فكل قول مبتدع عندهم سائغ لأنه تأويل،

كذا زعموا.

ومن عجائب المبتدعة أن كلام شيوخهم عندهم نص في مراده لا يحتمل التأويل، وكلام الله قل ما شئت فيه بدعوىٰ التأويل.

ولا أدل علىٰ خطأ هذه التحريفات التي يسمونها «تأويلات» من أن الصحابة لم يتكلموا بشيء من ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أحق الناس بالهدىٰ الذين باشرهم النبي ﷺ بالخطاب من خواص أصحابه وعامتهم».

وهؤلاء الصحابة حضروا التنزيل وهم أعلم بمعاني كلام الله ورسوله، والنبي ﷺ بلَّغ البلاغ المبين وما كان ليكتم عنهم المعاني التي اخترعها المبتدعة.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان القرآن بين أيديهم، ولم يفسروه بخلاف ظاهره، والأصل أنهم فهموه علىٰ ظاهره بمقتضىٰ اللسان العربي».

وقال العلامة عبد الرحمن المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد تقرر في الأصول أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، والحاجة في النصوص الاعتقادية هي وقت الخطاب».

فادعاء التأويل يوقع في الفوضىٰ، ويؤدي إلىٰ فساد الشريعة، حيث كل واحد يمكنه أن يقول: إن بيان الشارع غير معلوم من لفظه، وأنا أبيّن ما لم يقله الله ورسوله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمتأول عليه وظيفتان: بيان احتمال اللفظ للمعنىٰ الذي ادّعاه، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنىٰ الظاهر».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن مدّعي المجاز المعين يلزمه أمور:

أحدها: إقامة الدليل الصارف عن الحقيقة، إذ مدّعيها معه الأصل والظاهر، ومخالفها مخالف لهما جميعًا.

---

(١) تفسير سورة النساء (١/ ٢٥٧).

وثانيها: بيان احتمال اللفظ لما ذكره من المجاز لغة، وإلا كان منشأ من عنده وضعًا جديدًا.

وثالثها: احتمال ذلك المعنىٰ في هذا السياق المعين، فليس كل ما احتمله اللفظ من حيث الجملة يحتمله هذا السياق الخاص.

ورابعها: بيان القرائن الدالة علىٰ المجاز الذي عيَّنه بأنه المراد، إذ يستحيل أن يكون هذا هو المراد من غير قرينة في اللفظ تدل عليه البتة، وإذا طولبوا بهذه الأمور الأربعة تبين عجزهم».

والإنصاف يقتضي بيان أن المتأولين طبقات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنىٰ القرآن، فإنهم حرَّفوا الكلم عن مواضعه، وصاروا مراتب: ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر، حتىٰ عن أكثر أحوال الأنبياء، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر، وآخرون من أصناف الأمة، وإن كان تغلب عليهم السنة، فقد يتأولون أيضًا مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه».

علىٰ كل حال تكلمت عن المجاز بشيء من الإفاضة في «الجامع في علوم القرآن»، ولا بأس هنا من ذكر مثال ادّعي فيه المجاز وسياق الآية ومعناها يأباه.

قال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «ابتدأ جل ثناؤه ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلمَّا قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، الآية، دلَّ علىٰ أنَّه إنَّما أراد أهل القرية؛ لأنَّ القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السَّبت ولا غيره، وأنَّه إنَّما أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون».

وقال الإمام الشَّافعي[(٢)]: «وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٢]، وهذه الآية في مثل معنىٰ الآية قبلها، فذكر قصم القرية فلما ذكر أنَّها ظالمة بَانَ للسامع أنَّ الظَّالم إنَّما هم أهلها، دون منازلها التي لا تَظْلِمُ، ولمَّا ذكر القوم المُنْشَئين بعدها، وذكر إحساسهم البأس عند القَصْم: أحاط العلمُ أنه إنَّما أحسَّ البأسَ من يعرف البأس من الآدميين».



(١) الرسالة (ص٦٢، ٦٣)، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر.

(٢) الرسالة (ص٦٢، ٦٣)، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر.



١٢١ - اللفظ المطلق لا يجوز تقييده بدون قيد الشارع

اللفظ المطلق في الشريعة لا يجوز تقييده بدون قيد الشارع، لأن الشارع له غرض ظاهر في الإطلاق، منها التوسعة علىٰ المكلفين، فالتقييد حقيقته إضافة معنىٰ زائد إلىٰ مسمىٰ المطلق، وهذا لا يجوز إذا لم يأت من الشارع.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الأمر إذا تعلق بالمأمور المتبوع من حيث الإطلاق، ولم يرد عليه أمر آخر يقتضي بعض الصفات أو الكيفيات التوابع، فقد عرفنا من قصد الشارع أن المشروع عمل مطلق، لا يختص في مدلول اللفظ بوجه دون وجه، ولا وصف دون وصف، فالمخصص له بوجه دون وجه أو وصف دون وصف لم يوقعه علىٰ مقتضىٰ الإطلاق، فافتقر إلىٰ دليل علىٰ ذلك القيد، أو صار مخالفًا لمقصود الشارع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والواجب أن يُطلق ما أطلقه صاحب الشرع، ويقيّد ما قيده».

وقال العلامة عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن ما ورد من العبادة مقيدًا بقيد يلتزم قيده، وما ورد منها مطلقًا يلتزم إطلاقه، فالآتي بالعبادة المقيدة دون قيدها مخالف لأمر الشرع ووضعه.

والآتي بالعبادة المطلقة ملتزمًا فيه ما جعله بالتزامه كالقيد مخالف كذلك لأمر الشرع ووضعه، وهو أصل في جميع العبادات».

ومما يلحق بهذا القيود الأغلبية فإنها غير معتبرة، مثاله: قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، فهذا قيد أغلبي لا يقيد الحكم، فالربيبة تحرم مطلقًا سواء كانت في حجر زوج الأم أم لم تكن.

ومن الأمثلة للقيود الغير معتبرة ولم يرد بها التقييد قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فكل من جعل مع الله إلهًا آخر فإنه لا برهان له.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما قيّدها الله بهذا القيد بيانًا لشناعة الشرك والمشرك».





١٢٢- تقييد اللفظ بملحقاته من وصف أو شرط أو استثناء

وكما أن اللفظ المطلق في الشريعة لا يجوز تقييده بدون قيد الشارع، فكذلك ما ورد في كلام الشارع من تقييد اللفظ بوصف أو شرط أو استثناء وجب اعتباره، قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الصفة نطق عن صاحب الشرع، تكلف ذكره، فلا يجوز أن يخلو عن فائدة، لأن طلب الفوائد من كلام صاحب الشرع واجب ما أمكن، ولا يجوز استعمال طريق تؤدي إلىٰ إلغاء كلامه، وإخلائه عن الفائدة».

وأحوال المطلق مع المقيد أربعة:

١- **الأولىٰ**: أن يتحد المطلق والمقيد في السبب والحكم جميعًا: قال أبو الفتح البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذه الصورة يُحمل المطلق علىٰ المقيد إجماعًا، لأن السبب واحد والحكم واحد والصورة واحدة».

كاشتراط الولي في النكاح، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾.

[البقرة: ٢٣٢]

قال ابن قدامة: «أن يكونا في حكم واحد كقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا نكاح إلا بولي**»، وقال: «**لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل**»، فيجب حمل المطلق علىٰ المقيد».

٢- **أن يختلف السبب والحكم جميعًا**: مثل ما ورد من تقييد الصيام بالتتابع في كفارة القتل، وإطلاق الإطعام في الظهار، قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يُحمل أحدهما علىٰ الآخر، بل يعتبر كل واحد منهما بنفسه، لأنهما لا يشتركان في لفظ

ذولا معنىٰ». وقال أبو علي الرجراجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذي اختلف حكمه وسببه لا يُحمل فيه المطلق علىٰ المقيد إجماعًا، إذ لا موجب لرد أحد الدليلين إلىٰ الآخر لاختلاف الأحكام والأسباب».

٣- أن يتحد المطلق والمقيد في الحكم ويختلفان في السبب، فلا يُحمل المطلق علىٰ المقيد وهو رواية عن أحمد وقول جلِّ الحنفية والمالكية وبعض الشافعية، لأن الأصل في اختلاف الأسباب اختلاف الأحكام كما قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤- أن يتحد المطلق والمقيد في السبب، ويختلفا في الحكم، قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المطلق ضد المقيد، فيكون في حمل المطلق علىٰ المقيد نسخ المطلق، لا نسخ الحكم رفعه».

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن يختلف الحكم فلا يحمل المطلق علىٰ المقيد سواء اختلف السبب أو اتفق كخصال الكفارة إذا قيّد الصيام بالتتابع وأُطلق الإطعام، لأن القياس من شرطه: اتحاد الحكم، والحكم ها هنا مختلف».

وأبو عبد الله المازري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ عدم إطلاق القول بتقييد المطلق أو عدم تقييده في حال اختلاف السبب واتحاد الحكم، أو اتفاق السبب مع اختلاف الحكم، وأنه تختلف المسائل بحسب كل مسألة، حيث قال: «وهي الموازنة بين التقييد والإطلاق، فأيهما رجح في مسالك الظنون قضىٰ به وغلب علىٰ صاحبه، فقد تضعف دلالة الإطلاق، وتقوىٰ دلالة التقييد علىٰ الإشعار باشتراط الصفة التي قيّد بها، وقد يكون الأمر بالعكس».

ومما ينبغي التنبيه عليه لأهميته؛ هو وجوب التمييز بين الصفة المقصودة التي تخصص الموصوف، والصفة الكاشفة غير المؤثرة في تخصيص الموصوف.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم:٥٠]، **فلا يُفهم من قوله:** ﴿عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ **تعدد عاد، كما قال بذلك بعض المفسِّرين.**

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾، وصف كاشف، وليس وصفًا مقيدًا، يعني ليس هناك عاد أولىٰ وعاد ثانية، ، بل هي واحدة. لكنها عاد قديمة سابقة، ولهذا وصفها بأنها الأولىٰ أي: أنها القديمة السابقة وليس ثمة عاد أخرىٰ وهم قوم هود».



(١) تفسير سورة النجم (ص٢٥١).



١٢٣ - العمومات لا تُخصص بالتوهمات

العموم إذا لم يقم دليل صحيح الثبوت صريح الدلالة علىٰ تخصيصه فلا يجوز لنا أن نخصصه بالتوهمات والتخرصات، بل الواجب أن يبقىٰ عمومه محكمًا.

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يجوز حمل الخاطر علىٰ استخراج التأويلات المستكرهة للأخبار، وينبغي للعالم الورع أن يتجنب ذلك ويحترز عنه غاية الاحتراز، لأن الكلام علىٰ كلام الشارع صعب، والزلل فيه يكثر، وقد ورد في الخبر: يحمل هذا العلم من كل خلف عدولهم.

وقال في وصفهم: ينفون عنه تأويل الجاهلين، والله العاصم بمنّه، والمرشد إلىٰ الصواب بفضله وعونه، ونسأله تعالىٰ أن لا يجعلنا من هؤلاء القوم، فقد بيّن النبي ﷺ أن الجهل يحمل الإنسان علىٰ التأويلات المستكرهة، وذكر أن العدول من علماء الأمة ينفون ذلك، وذكر أيضًا أنهم ينفون تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وإلىٰ الله الملاذ، وبه المعاذ من وساوس النفس وخواطر السوء، فما ضل من ضل، ولا هلك من هلك إلا بأمثال ذلك، والله المستعان».

ومن أمثلة ذلك التخرص بالأوهام في شأن حياة الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالنصوص من القرآن والسنة صريحة في وفاته، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ

---

(١) قواطع الأدلة في الأصول (١/ ٤١٤).

ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالخضر إن كان نبيًا أو وليًا، فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حيًا في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه، يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه إن كان وليًا فالصدِّيق أفضل منه، وإن كان نبيًا فموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أفضل منه.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **أن رسول الله ﷺ قال:** «والذي نفسي بيده لو أن موسىٰ كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني»، وهذا الذي يُقطع به ويُعلم من الدين علم الضرورة، وقد دلَّت عليه هذه الآية الكريمة: أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ، لكانوا كلهم أتباعًا له، وتحت أوامره وفي عموم شرعه. كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع بهم ليلة الإسراء رفع فوقهم كلهم. ولما هبطوا معه إلىٰ بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم، فصلىٰ بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم، فدلَّ علىٰ أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجّل المقدّم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإذا عُلم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن - علم أنه لو كان الخضر حيًا كان من جملة أمة محمد ﷺ، وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك.

هذا عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة، لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني

---

(١) قصص الأنبياء من «البداية والنهاية» ص ٤٣٢ - ٤٣٥، باختصار.

إسرائيل، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالًا في مشهد من المشاهد.

فإن قيل: إنه كان حاضرًا في هذه المواطن كلها، ولكن لم يكن أحد يراه؟

فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات. ثم ما الحامل علىٰ هذا الاختفاء؟ وظهوره أعظم لأجره وأعلىٰ في مرتبته وأظهر لمعجزته؟ ثم لو كان باقيًا بعده، لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة، والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل مما يقال عنه من كنونه في الأمصار، وجَوْبه الفيافي والأقطار. واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم. ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ صلىٰ ليلة العشاء ثم قال: «أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإنه إلىٰ مائة سنة لا يبقىٰ ممن هو علىٰ وجه الأرض اليوم أحد»، وفي رواية «**عين تطرف**»، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فوهل الناس من مقالة رسول الله ﷺ هذه، أراد انخرام قرنه.

قال ابن الجوزي: فهذا الحديث يقطع دابر دعوىٰ حياة الخضر.

قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقىٰ في القوة إلىٰ القطع، فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعده مائة سنة، فيكون الآن مفقودًا لا موجودًا، لأنه داخل في

هذا العموم، والأصل عدم المخصص له حتىٰ يثبت بدليل صحيح يجب قبوله».







١٢٤ - الزيادة على النص ليست نسخًا

هذه مسألة دقيقة في استنباط الأحكام من القرآن، فالقرآن كله بيان، فما أُجمل في موضع تجده مفصلًا في آخر، وكذلك تقيد بعض النصوص ما أُطلق في غيرها، ويُزاد في الأحكام علىٰ أصل ما قررته الشريعة، كإضافة التغريب إلىٰ الجلد في حد الزنا، فهذا كله داخل في بيان المجمل وتقييد المطلق وتخصيص العام، وليس بنسخ كما يقول به الحنفية.

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٤٨٩هـ)**[١]: «ونقول في تقييد الرقبة بالإيمان هو تخصيص، لأن الرقبة عامة في كل ما يسمىٰ رقبة، فإذا أخرجنا عتق الكافرة من الخطاب كان تخصيصًا محضًا، وإذا عُرف وجه الكلام في هاتين الصورتين ظهر في سائر الصور ولم يثبت النسخ الذي ادّعوه في صورة ما، وإنما نهاية ما في الباب أن يكون ضم حكمه إلىٰ حكم في بعض المواضع مثل التغريب مع الجلد وزيادة العشرين علىٰ الثمانين في حد القذف لو قُدر ورود الشرع بها، وكذلك إيجاب النية في الوضوء، وإيجاب الترتيب وإثبات الحجة بالشاهد واليمين، وكذلك إيجاب قراءة الفاتحة، والأولىٰ أن يقال إن خبر الفاتحة بيان لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، أو يكون تخصيصًا للعموم مثل

---

(١) قواطع الأدلة (١/ ٤٤٥).

تقييد الرقبة بوصف الإيمان في كفارة الظهار وكفارة اليمين، ويمكن دعوىٰ التخصيص أيضًا بإثبات النية والترتيب».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الزيادة علىٰ النص لا تكون ناسخة له علىٰ التحقيق؛ إلا إن كانت مثبتة شيئًا قد نفاه النص أو نافية شيئًا أثبته النص، أما إذا كانت زيادة شيء سكت عنه النص السابق، ولم يتعرض لنفيه، ولا لإثباته، فالزيادة حينئذ إنما هي رافعة للبراءة الأصلية المعروفة في الأصول بالإباحة العقلية، وهي بعينها استصحاب العدم الأصلي، حتىٰ يرد دليل ناقل عنه، ورفع البراءة الأصلية ليس بنسخ، وإنما النسخ رفع حكم شرعي كان ثابتًا بدليل شرعي».

والقول بأن الزيادة علىٰ النص نسخ يُعطّل كثيرًا من الأحكام ويضاد شرع الله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ منتقدًا تأصيل الحنفية في ذلك[٢]: «وكيف يمكن أحدًا من أهل العلم أن لا يقبل حديثًا زائدًا علىٰ كتاب الله، فلا يقبل حديث تحريم المرأة علىٰ عمتها، ولا علىٰ خالتها، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب، ولا حديث خيار الشرط، ولا أحاديث الشفعة، ولا حديث الرهن في الحضر مع أنه زائد علىٰ ما في القرآن، ولا حديث ميراث الجدة، ولا حديث تخيير الأمة إذا أعتقت تحت زوجها، ولا حديث منع الحائض من الصوم والصلاة، ولا حديث وجوب الكفارة علىٰ من جامع في نهار رمضان، ولا أحاديث إحداد المتوفىٰ عنها زوجها مع زيادتها علىٰ ما في القرآن من العدة، فهلا قلتم: إنها نسخ للقرآن وهو لا يُنسخ بالسنة! وكيف أوجبتم الوتر مع زيادة محضة علىٰ القرآن بخبر مختلف فيه؟ ».

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣٣).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٩).



١٢٥- لا تتعسف الآيات لقاعدة نحوية

القرآن كلام الله أنزله الله بلسان عربي مبين، وقواعد اللغة والنحو يجب أن تكون تابعة له، ولا يجوز لأحد أن يتعسّف معاني كلام الله من أجل قاعدة نحوية.

مثال: قال تعالىٰ عن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا شرط دخل علىٰ ماضي اللفظ، وهو ماضي المعنىٰ قطعًا، لأن المسيح إما أن يكون صدر هذا الكلام منه بعد رفعه إلىٰ السماء، أو يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة، وعلىٰ التقريرين، فإنما تعلق الشرط وجزاؤه بالماضي.

وغلط علىٰ الله من قال: إن هذا القول وقع منه في الدنيا قبل رفعه، والتقدير: إن أكن أقول هذا فإنك تعلمه، وهذا تحريف للآية، لأن هذا جواب، وإنما صدر منه بعد سؤال الله له عن ذلك، والله لم يسأله وهو بين أظهر قومه، ولا اتخذوه وأمه إلهين إلا بعد رفعه بمئات السنين، فلا يجوز تحريف كلام الله انتصارًا لقاعدة نحوية، هدمُ مئة أمثالها أسهل من تحريف معنىٰ الآية».



١٢٦ - دفع توهم التعارض عن آي القرآن

القرآن كله محكم كما قال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فمعانيه كلها متفقة مؤتلفة يعضد بعضها بعض لا تنافر ولا تخالف بينها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فكتاب الله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، أنزله الله وفصَّله علىٰ علم ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقرآن كله محكم بمعنىٰ الإتقان، فقد سمّاه الله حكيمًا، بقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، فالحكيم بمعنىٰ الحاكم».

فمعاني القرآن كلها متشابهة واحدة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالتشابه في المعنىٰ ينفي التضاد والتناقض المُعبر عنه بالاختلاف في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وذلك في الأوامر والنواهي، فيأمر بالشيء الحسن وما يماثله، وينهىٰ عن الشيء السيئ وعما يماثله، ولا يتناقض، فيحكم بين المثلين بحكمين متفقين، وكذلك المدح والذم يمدح الشيء وما يماثله، ويذم الشيء ويذم ما يماثله، وكذلك في الترغيب والترهيب،

والوعد والوعيد، وكلام المخلوقين لا يخلو عن نوع من التناقض والاختلاف».

مثال: لا تتوهم أن قوله تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، يتعارض مع ما أخبر الله به عن محاسبة جميع الخلق: مسلمهم وكافرهم، وإنسهم وجانهم، قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، فالله لا يسألهم في حال دون حال، فإنهم لا يُسألون عن ذنوبهم بعد أن يؤمر بهم إلىٰ النار، وقد كانوا سُئلوا قبل ذلك.

وقيل المراد لا يُسألون سؤال استعلام بما وقع، لأن الله عالم بذلك، وإنما يريد مجازاة عباده، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟





١٢٧ - أبرز جمال القرآن في تفسيرك

عند تعليقك على معاني الآيات، أبرز جمال القرآن بإظهار إعجازه، بكل ما فيه من جمال بلاغي، وحسن نظم، وأحكام متقنة، وأخبار عن قصص ماضية، ومستقبلية، وهذا كله داخل في عموم قول النبي ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**»[(١)].

وبيان جمال القرآن، هو من الدعوة للإسلام، فالقرآن هو شريعة الإسلام، ولذلك قال شقيق بن سلمة: استعمل عليٌّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على الحج، فخطب الناس خطبة لو سمعها الترك والروم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سورة النور، فجعل يفسرها[(٢)].

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إن معاني القرآن على كثرتها أو على تكرارها بحسب مقتضيات الأحوال: على حفظ وبلوغ غاية في إيصالها إلى غايتها، من غير إخلال بشيء منها، ولا تضادٍّ، ولا تعارض، على وجه لا سبيل إلى البشر أن يدانوه».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «فالقرآن العظيم معجز من وجوه كثيرة،

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلّمه (ص ٩٠١ - رقم ٥٠٢٧) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) جامع البيان (١/ ٧٥).

(٣) الاعتصام (٣/ ٣٧٨).

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٥٤٧).

من فصاحته، وبلاغته، ونظمه وتراكيبه، وأساليبه، وما تضمَّنه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة، وما اشتمل عليه من الأحكام المحكمة الجليَّة، فالتحدي ببلاغة ألفاظه يخص فصحاء العرب، والتحدِّي بما اشتمل عليه من المعاني الصحيحة الكاملة - وهي أعظم في التحدي عند كثير من العلماء - يعم جميع أهل الكتاب من الملتين، أهل الكتابين وغيرهم من عقلاء اليونان والهند والفرس والقبط وغيرهم من أصناف بني آدم في سائر الأقطار والأعصار».





١٢٨ - معاني الآيات في سياقها الواحد وسياقها الكلي

سياق الآيات كما أنه يُعيّن المعنىٰ، فإن ملاحظته تورث المفسر معرفة حِكَم ومعاني الشريعة حيث جاءت آياتها في سياق واضح لتهيئة النفوس لقبول أحكامها.

فانظر مثلًا إلىٰ حكمة الشريعة في تهيئة النفوس لقبول الجهاد الذي فيه إزهاق النفوس، بالتحريض عليه بذكر منازل أهل الجنة، وبيان أن منازل الشهداء أعلىٰ المنازل.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]، ثم بعد ذلك حرّض الله علىٰ القتال فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾.

[النساء: ٧١]

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «استئناف وانتقال إلىٰ التحريض علىٰ الجهاد بمناسبة لطيفة، فإنه انتقل من طاعة الرسول ﷺ إلىٰ التحريض علىٰ الجهاد بمناسبة لطيفة، فإنه انتقل من طاعة الرسول إلىٰ ذكر أشد التكاليف، ثم ذكر الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكان الحال أدعىٰ إلىٰ

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١١٧).

التنويه بشأن الشهادة دون بقية الخلال المذكورة معها الممكنة النوال».

وهذا كما يُلاحظ في سياق الآيات المتواليات نسقًا في السورة الواحدة، فإن ملاحظة مثل ذلك في الآيات ذات الموضوع الواحد كذلك، يُطلعك على أسرار التشريع ومعانيه وحِكَمه، فإن القرآن كالسورة الواحدة. وقد تحدث عن ذلك شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يتحدث عن حكم النسخ[1]: «التطور في التشريع حتىٰ يبلغ الكمال، ولهذا لم تجب الصلاة إلا قبل الهجرة بنحو سنة أو ثلاث سنين أو خمس».

وقال مبينًا أكثر في مثال الخمر: «الخمر – وهو من أبرز الأمثلة وأضحها، له أربع مراحل: مرحلة الإباحة، ومرحلة التعريض، ومرحلة التوقيت، ومرحلة التأبيد.

١- مرحلة الإباحة: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ [النحل: ٦٧]، النخيل والأعناب التي يكون منها الخمر أباحها الله ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾.

[النحل: ٦٧]

٢- مرحلة التعريض: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، هذه الآية بمجرد ما يقرؤها العاقل يقول: إن إثمهما أكبر من نفعهما، فيتركهماغ، لكنه يرىٰ نفسه في حل لو فعلهما.

٣- مرحلة التوقيت: فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، يستلزم النهي عن قربان الصلاة حال السكر، فلا يسكر الإنسان حين أوقات الصلاة، لأنه لو سكر لوقع فيما نهىٰ الله عنه، إذن: هذا يخفف من شربها.

---

(١) شرح الأصول من علم الأصول ص ٤٥٣ – ٤٥٤، باختصار يسير جدًا.

٤ - **التأبيد:** بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. فتدرج في حكمها، لأن الناس لو صدموا من أول الأمر علىٰ أن يدعوا شرب الخمر الذي ألفوه، واشتهته أنفسهم، لصعب عليهم ذلك، وربما كان من بعضهم عدم امتثال».

فإن قلت: قد استقرت أحكام الشريعة، فكيف نستفيد من ذلك الآن؟

الجواب هو أن الاستفادة ما زالت قائمة، وللعلماء تطبيقات دقيقة لذلك كما في توبة المضيّع للتكاليف الشرعية، فإنه يؤمر بها شيئًا فشيئًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئًا فشيئًا بمنزلة بيان الرسول ﷺ لما بُعث به شيئًا فشيئًا، ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يبلّغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأتِ الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع. فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يبلّغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يُلقّن جميع شرائعه، ويؤمر بها كلها.

وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويُذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك».

وهذا الكلام لا يُراد به الترخيص في تعطيل الشَّريعة، فإنَّ الواجب إقامة حكم الله وشرعه من غير تراخ ولا تذرُّع بالتدرُّج، فإنَّ الشَّرع قد أتمَّ الله بيانه للأمَّة، فما عليها إلَّا الحكم به، ومن استعان بالله أعانه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٥٩ - ٦٠).



١٢٩- ألفاظ الشرع تُحمل على المأذون المشروع

يقع بعض الفقهاء في استنباطات خاطئة بسبب حملهم ألفاظ الشرع علىٰ غير المشروع، والواجب حمل ألفاظ الشريعة علىٰ المأذون المشروع.

فالمطلقة ثلاثًا لو وُطئت وطئًا فاسدًا، أو في نكاح فاسد كنكاح المحلل فإنها لا تحل للزوج الأول، لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، قال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اختلف عندنا هل يحل بالوطء الفاسد في عقد نكاح صحيح؟ فقيل: تحل له لأنه يُسمىٰ نكاحًا، ولوجود اللذة فيه المنبّه عليها في الحديث، وقيل: لا تحل، لأن مجمل ظواهر الشرع وألفاظه علىٰ ما يصح في الشرع دون ما لا يصح».

وهذا باب مهم متىٰ انتبه إليه طالب العلم فتح له أبوابًا من العلم والمعرفة هو من ضروريات التحقق بالعلم.

وبمثل هذا استدل المحققون علىٰ فساد الطلاق البدعي سواء في حيض أو طهر وقع فيه جماع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن القرآن خطاب للصحابة ابتداءً، ثم للأمة بعد الصحابة، ومعلوم أن الخطاب بالطلاق الذي ذكر

(١) أحكام القرآن (١/ ٣٣١).

(٢) جامع المسائل المجموعة الأولىٰ ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

الله أحكامه، كقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، لا يتناول جمع الثلاث، وإنما يتناول من طلَّق مرة بعد مرة، فدلَّ ذلك علىٰ أن هذا هو الطلاق المعروف عند المخاطبين بالقرآن ابتداءً، ودلَّ ذلك علىٰ أن جمع الثلاث لم يكن من الطلاق الذي يعرفونه[1]، إذ لو كان كذلك لكان يستثنيه ويُبيِّنه، وإلا كان القرآن قد أُريد به خلاف ظاهره وعمومه بلا بيان من الله ورسوله ﷺ».

وانظر إلىٰ حذق العلماء في إدخال قول النبي ﷺ: «ألا ترون إلىٰ ما يدفع الله عني من أذىٰ قريش، يشتمون ويهجون مذممًا وأنا محمد؟!».

في كتاب الطلاق، قال العلامة أبو القاسم السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٨١هـ)[2]: «وأدخل النسوي هذا الحديث في كتاب الطلاق في باب: [من طلق بكلام لا يشبه الطلاق فإنه غير لازم]، وهو فقه حسن لقول النبي ﷺ: «**ألا ترون إلىٰ ما يدفع الله عني**»؛ فجعل أذاهم مصروفًا عنه؛ لما سبوا مذممًا لا يشبه أن يكون اسمًا له، فكذلك إذا قال لها: كلي واشربي، وأراد به الطلاق لم يلزمه وكان مصروفًا عنه، لأن مثل هذا الكلام لا يشبه أن يكون عبارة عن الطلاق».

---

(١) عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أمضاه من باب التعزيرات لأنه كان خليفة المسلمين، فهو من فقه السياسة الشرعية، كمواصلة النبي ﷺ الصيام بالصحابة الذين لم يمتثلوا نهي النبي ﷺ عن الوصال.

(٢) الروض الأنف (٢/ ١١٤ - ١١٥)، ط - دار الفكر.



١٣٠ - الاستفادة من استعارة وكنايات الألفاظ في فهم المعاني واستنباط الأحكام

الاستعارة وضع الكلمة موضع غيرها، قال تعالىٰ في شأن الكافر: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]، وقد ذكر العلماء أقوالًا في معناها: شنشينه شينًا باقيًا، وقال آخرون: سنسمُ علىٰ أنفه، وقال بعضهم: سنسمه سمة أهل النار، أي: سنسوِّد وجهه، لأن الخرطوم وإن كان خُصَّ بالسمة، فإنه في مذهب الوجه، لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض، والعرب تقول: والله لأسمنَّك وسْمًا لا يفارقك، يريدون الأنف، وقد ذكر هذه الأقوال كلها ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، مع ما حكاه من وقوعه حقًا من خطم بعض الكفار بالسيف يوم بدر، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «حكىٰ ذلك كله أبو جعفر ابن جرير، ومال إلىٰ أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو مُتّجه».

علىٰ كل حال الآية علىٰ ظاهرها رغم جمال بلاغتها، فيقال إنه وضع الأنف موضع الوجه لأنه منه، والوجه جعل الله عليه أمارات الإيمان والكفر، والصلاح والفساد، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٧٠ - ١٧١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٥).

ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٦ - ٢٧].

ومن أمثلة الكنايات، التكنية عن الجماع باللمس، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنا في حجرة ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ومعنا عطاء بن أبي رباح، ونفر من العرب، وعبيد ابن عمير، ونفر من الموالي، فتذاكرنا اللماس، فقلت أنا وعطاء: اللمس باليد، فقال عبيد بن عمير والعرب: هو الجماع، فقلت: إن عندكم من هذا لفصل قريب، فدخلت علىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا - وهو قاعد علىٰ سرير - فقال لي: مهيم؟ فقلت: تذاكرنا اللمس، فقال بعضنا: هو اللمس باليد، وقال بعضنا: هو الجماع، قال: من قال: هو الجماع؟ قلت: العرب، قال: فمن قال: هو اللمس باليد؟ قلت: الموالي، قال: فمن أي الفريقين كنت؟ قلت: مع الموالي، فضحك، وقال: غُلبت الموالي، غُلبت الموالي، ثم قال: إن اللمس، والمس، والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء[1].

ومما يلتحق بذلك المعاريض التي ذكرها الله في كتابه عن أنبيائه، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كسَّر أصنام المشركين، ولما اتهمه المشركون بذلك: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، قال لهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ

(١) تفسير ابن المنذر (٢/ ٧٢٦ - رقم ١٨١٩).

إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«نسب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الفعل الصادر عنه إلىٰ الصنم؛ ليبلغ مقصوده من إلزامهم الحجة، وتبكيتهم عند ظهور عجز آلهتهم.

فإن قيل: هل يُعدُّ مثل هذا كذبًا؟

قلتُ: كلا، بل هو من معاريض الكلام، أي: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا».

ومن ذلك قوله تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **أيضًا**: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨ – ٨٩]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢):

«إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نظر نظرة في النجوم، أي: نظر إليها، وإنما فعل ذلك، لأن قومه كانوا يعبدون النجوم، ويضعون لها الهياكل في الأرض، وأصل العبادة للنجوم، فنظر في هذه النجوم، فلما نظر قال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وإنما نظر فيها وهو لا يعتقد - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - من باب التورية، فكما تكون التورية بالقول تكون التورية بالفعل.

فالتورية بالقول كثيرة معروفة، التورية بالفعل: أن يري الإنسان غيره أنه يرىٰ شيئًا وهو لا يريده، أو أنه معرضًا عن شيء وهو قد وضع باله عليه».

❁ ❁ ❁

---

(١) رموز الكنوز (٤/ ٦٣٠ – ٦٣١).

(٢) تفسير سورة الصافات ص ١٩٩.



١٣١ - تمرين الذهن على استنباط فوائد الآيات

لا يجمد ذهنك علىٰ أخذ معاني القرآن بمجرد التلقين، فالله عَزَّوَجَلَّ أمر عباده بالازدياد من العلم، فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

والذهن متىٰ ألف الجمود أصابته البلادة، وحُرِم التفقه في الدين، وهذا من الحرمان، ومن بخس العقل حقه، فإن الله امتنّ علينا بنعمة العقل لنتدبّر آياته، ولنُعمل الذهن في استنباط فوائده، فتعطيل العقل عن هذا الخير باختيارنا قد يدخل في معنىٰ الإعراض عن تدبّر القرآن.

فتعطيل الذهن عن ملاحظة معاني وفوائد القرآن تجعله لا يبصر كنوزه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٥١هـ)[1]: «قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧]، فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدىٰ، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرَّت به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها علىٰ من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها».

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٦٩).

وطالب العلم بمشافهة العلماء وإصغاء السمع لشروحاتهم وتقريراتهم واستنباطاتهم، مع ممارسة قراءة الكتب التي فيها نكت بديعة يتمرن ذهنه علىٰ الاستنباط والإفادات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدرّبه ويقويه علىٰ العلم، فيصير مثل كثرة الرمي بالنشاب وركوب الخيل تعين علىٰ قوة الرمي والركوب، وإن لم يكن ذلك وقت قتال، وهذا مقصد حسن»[1].

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فإن تمرين الذهن علىٰ التدبّر والتفكر، وتقليب الأمور علىٰ كل وجه ممكن، مما يُرقِّي الذهن وينمّيه، ويُوَسّع دائرة المعارف، وعدم ذلك أو قلته مما يُضعف القريحة ويخمد الفكر، ويحدث البلادة».

مثال: قال تعالىٰ ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: ١١٢]، فسؤال الحواريين لعل الباعث عليه ما شاهدوه أو علموه من كرامة الله لبني إسرائيل بإنزال المن والسلوىٰ عليهم وتظليل الغمام لهم.



(١) الرد علىٰ المنطقيين ص ٢٥٥.

(٢) الرياض الناضرة ص ٦٨.



١٣٢ - العدد المراد لذاته والمراد لغيره

هذا أصل مهم لكثرة وروده في القرآن، وعدم التفريق بين الأعداد المنطوقة لذاتها، والمشار بها لغيرها يوقع في الشطط والزلل. ومعرفة هذا التأصيل ضرورة في فقه نصوص الكتاب والسنة، ويفتح لطالب العلم أنواعًا من كنوز الاستدلالات ودرر الاستنباطات. والأمر لا يقتصر علىٰ الأعداد فقط، بل المقصود عموم التوقيت والمقادير.

قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، فالقنطار هنا لا يراد به وزن محدد، وإنما يراد به المال الكثير، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (توفي ٦٦١هـ): «والذي يظهر في نظري أن المنقول عن النبي ﷺ وعنه في ذلك ليس علىٰ سبيل التحديد لزنة القنطار، وإنما هو علىٰ سبيل التنظير للمال الكثير»[١].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء: ٤٠]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ أي: زنة ذرة، والذرة يضرب بها

---

(١) رموز الكنوز ١/ ١٣٥.

(٢) تفسير سورة النساء (١/ ٣٢٩).

المثل في التحقير، وإلا فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ولا دونه، وما جيء به علىٰ سبيل التحقير أو التكثير فإنه لا مفهوم له».

ومن ذلك قوله تعالىٰ عن المنافقين: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أراد به إثبات اليأس عن طمع المغفرة لهم».

وقال[٢]: «ذكر عدد السبعين للمبالغة في إثبات اليأس».

وإنما استغفر لهم النبي ﷺ أولًا، لأن لفظ الآية يحتمل التخيير بين أن يستغفر لهم أو لا يستغفر لهم، ثم أعلم الله نبيه ﷺ أنه لا يغفر لهم.

قال ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وأما تمثيله بالسبعين دون غيرها من الأعداد، فلأنه عدد كثير، إما يجيء غاية وتحقيقًا في الكثرة، ألا ترىٰ إلىٰ القوم الذين اختارهم موسىٰ، وإلىٰ أصحاب العقبة، وقد قال بعض اللغويين أن التصريف الذي يكون من السين والباء والعين فهو شديد الأمر، من ذلك السبعة، فإنها عدد مقنع هي في السموات وفي الأرض وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي بها يطيع الله وبها يعصيه، وبها ترتيب أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس، وهي عيناه وأذناه ولسانه وبطنه وفرجه ويداه ورجلاه».

وقال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «وهذا العدد

---

(١) تفسير القرآن (٢/ ٣٣٢).

(٢) تفسير القرآن (٢/ ٣٣٢).

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٢٤٢).

(٤) ملاك التأويل (٢/ ١٠٦٤).

مطّرد جار في أشياء يشهد اطراده فيها علىٰ قصد حكمة تقتضيها، فمنها ما ذكر آنفًا، ومنها أن أم القرآن سبع آيات، والأيام سبع، والسماوات سبعة، والأرض سبعة مثلها، وأبواب جهنم سبعة، وحد الإثغار سبعة أعوام، ويعق عن المولود يوم سابعه، ومن مسنوناته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التسبيع للبكر، وهذا كثير جدًا».

ويلتحق بذلك ما يذكره الله مرادًا به كثرة غير محدودة في بعض الطاعات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، قال العلامة محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هو - والله أعلم - حض علىٰ سبيل الفلاح، وبلوغه بكثرة ذكره، لا أن حد الكثير مفروض بلوغه؛ لقيام الدليل علىٰ إعواز معرفة حد غير محدود، فكلما أكثر المرء ذكر الله، كان أزيد لفلاحه، وأجدر لنجاحه».

وانظر إلىٰ المقادير الزمانية التي ذكرها الله في أفعاله سبحانه، كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤].

قال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن المراد تبيين أفعاله سبحانه وأنه لا تكلف فيها ولا معالجة، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكأن قد قيل لهم: إذا شاء عذابكم كان، فإنه

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (٤/ ٣٠٠).

(٢) ملاك التأويل (٢/ ٨٦٣ - ٨٦٤).

سبحانه المتعالي عن التعاون والمعالجة والافتقار، فإذا قدّر الشيء وأراد إنفاذه كان، وتحصّل في الوقت الوجيز القريب منه ما تصدرون حصوله ومعالجة وقوعه في ألف سنة من أيامكم أو ما يتقدرون تهيئته ونفوذه بألف سنة من أيامكم علىٰ مألوفكم، وإذا أراد سبحانه وقوع ذلك كان عن أمره (كن)، أعجل من كل عاجل، إذ ليست أفعاله كأفعال خلقه التي يستعجلون ما لا تكلف في وقوعه وحصوله؟ فإنما يمنع من استعجاله ربطه بأجل، إذا بلغ الأجل كان وقوعه، وهو يوم القيامة، وهو الأجل المسمىٰ، ومن شاء تعجيل عذابه في دنياه أو ما شاء من امتحانه حلّ به إذا آن وقته، وتوقفه عمن قدره عليه إملاء وزيادة في امتحانه، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الحج: ٤٨]، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وعلىٰ هذا قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، المراد أن بعد هذه المسافة لا تحول دون استعجال نفوذ تدبيره وإمضاء مقاديره، وأنه سبحانه ليديرها ثم ترجع إليه في وقت لو وُكّل ذلك إليكم وكان من مقدوراتكم لفعلتموه في ألف سنة علىٰ نحو ما تقدم في الآية الأخرىٰ. وأما آية المعارج فالمراد باليوم المذكور فيها يوم القيامة، الواقع فيها حساب الخلائق، ووزن أعمالهم، وفصل ما بينهم، إلىٰ استقرار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ففيه من الأعمال المتعلقة بالخلق ما يتقدر وقوعه وتخلصه من أيام الدنيا علىٰ متعارفها، مع عظيم أهواله وشدة كروبه، وأيام الأهوال والشدائد توصف بالطول لعظيم أهوالها، مع ما يقتضي فيه، مقدر من أيامنا بخمسين ألف سنة، وهو علىٰ المؤمن التقي كصلاة صلاها، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠]، ويدل علىٰ أن المراد به يوم القيامة ما ذكره الله

عقب تقديره من وصفه بقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]، إلىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٤] ».

والأصل في العدد أنه مقصود ومعتبر، وهذا هو الغالب فيما ذُكر في الآيات، إلا ما قام الدليل علىٰ خلاف ذلك.

ومن أمثلة ذلك: قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، وقوله تعالىٰ في تعبير يوسف لرؤيا الملك: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧].

وقد يقترن مع ذلك العدد مؤكدات لفظية لا تدع لأحد شكًا في أن العدد مقصود، قال تعالىٰ في شأن المتمع الغير مكي إذا لم يجد هدي تمتعه: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة عشرة، لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاث أيام في الحج والسبعة إذا رجع، وليدل علىٰ انقضاء العدد لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقي منه شيء بعد ذكر السبعة، وهو توكيد أيضًا(١).

ويُطلق التوقيت ويُراد به مقداره، مثاله قوله تعالىٰ عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، مقادير الليل والنهار.

وقال قتادة: فيها ساعتان: بكرة وعشي: ليس ثمَّ ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور.

---

(١) فتح القدير ص ١٧٨.

وقال الحسن: البكور يرد علىٰ العشي، والعشي يرد علىٰ البكور، ليس فيها ليل.

وقال مجاهد: ليس فيها بكرة ولا عشي، ولكن يؤتون به علىٰ ما كانوا يشتهون في الدنيا.

وقال زهير بن محمد: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبدًا، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، وبفتح الأبواب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أي: في مثل وقت البُكُرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلًا أو نهارًا، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار»[(١)].

وكذلك قال الله في خلود الكافرين في النَّار: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣]، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يجعل الله لأهل النار مدةً، بل قال: أحقابًا، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضىٰ حُقْبٌ دخل آخر، ثم آخر، ثم آخر، كذلك إلىٰ الأبد.

وقال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا لا يدلُّ علىٰ غاية؛ لأنَّه كلما مضىٰ حُقْبٌ تبعه حُقْبٌ، ولو أنَّه قال: لابثين فيها عشرة أحقاب أو خمسة أحقاب دلَّ علىٰ غاية[(٢)].

فالمقصود هو معرفة حقائق المراد بالمواقيت، والمعاني التي من أجلها ذُكرت، من ذلك ما ذكره النبي ﷺ في مقدار مكث الدجال زمن فتنته، حيث قال الصحابة للنبي ﷺ: وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٧ - ٢٤٨).

(٢) رموز الكنوز (٨/ ٤٥٠).

كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا، اقدروا له قدره**»(١).

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ومعنىٰ [**اقدروا له قدره**]، أنه إذا مضىٰ بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر، ثم إذا مضىٰ بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب، وكذا العشاء والصبح، ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب، وهكذا، حتىٰ ينقضي ذلك اليوم».

وفقه هذا التأصيل يدفع عنك كثيرًا من الإشكالات، وييسر لك أسباب التوفيق بين الأدلة، فقد ورد الحث علىٰ قراءة سورة الكهف يوم الجمعة، وليلة الجمعة، ورواية ليلة الجمعة أصح رواها الدارمي موقوفًا على أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والروايات مؤتلفة، فليلة الجمعة داخلة في مسمىٰ يوم الجمعة، وقد يكون المراد بالجمعة الأسبوع، وهذا توقيت معلوم كما جاء في حديث الدجال: «**ويوم كجمعة**»، يعني كأسبوع، ولعل مما يُرجّح هذا المعنىٰ هو مقصود التلاوة من إدراك الفضل والصيانة من الفتن في الأسبوع كله، لذلك جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ سورة [الكهف]، في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين**».

---

(١) رواه مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال.

(٢) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٦٦).



١٣٣- تفسير الألفاظ تفسيرًا يدرك الحقائق والمقادير

المقادير لا بد أن تُفسر تفسيرًا يبلغ حقيقتها ومقدارها الذي من أجلها ساقها الله عَزَّوَجَلَّ، ومع هذا فإن بعض الألفاظ وبعض المقادير يشق علىٰ المفسرين تفسيرها تفسيرًا يدرك تلك المقادير والمعاني فتقرب تقريبًا يقارب المقدار.

مثال (١): قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال زيد بن أسلم: فلم يُدرىٰ ما حق تقاته من عِظَمِ حقه عَزَّوَجَلَّ، ولو اجتمع أهل السموات والأرض علىٰ أن يبلغوا حق تُقاته ما بلغوا، فأراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعلم خلقه قدرته، ثم نسخها، وهوَّن علىٰ خلقه بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، فلم يدع لهم مقالًا، ولو قلت لرجل: اتق الله حق تُقاته، رأىٰ أنك قد كلَّفته بغيًا من أمره، فإذا قلت له: اتق الله ما استطعت، رأىٰ أنك لم تكلفه شططًا[١].

فزيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يجهل حق التقوىٰ، وإنما أراد التنبيه إلىٰ أن طبيعة البشر وما كتبه الله عليهم لا بد أن يقع منهم نقص فلا يدركوا حق التقوىٰ من عدم الزلل مطلقًا، وإلا فقد ذكر ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿حَقَّ

---

(١) أحكام القرآن، للقاضي إسماعيل المالكي ص(٢٢٦).

تُقَاتِهِۦ﴾: أن يُطاع فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، وأن يُشكر فلا يُكفر[(١)].

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «التقوىٰ الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهو أعلىٰ درجات التقوىٰ».

مثال (٢): قال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فالأضعاف الكثيرة لا بد أن تفسر تفسيرًا يدرك أو يقارب المقدار الذي من أجله ساقه الله عَزَّوَجَلَّ، ومن جميل التعليقات التي قصد بها العلماء تقريب هذا المعنىٰ ما ذكره الوزير ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٦٠هـ)[(٣)]: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، وكثيرة هنا نكرة وهي أشمل من المعرفة، فيقتضي هذا أن يحسب توخيه الكثرة علىٰ أكثر ما يمكن، ثم يقدر لتناول هذا الوعد الكريم بأن يقول: إذا تصدق الآدمي بحبة بر فإنه يحسب له ذلك في فضل الله عَزَّوَجَلَّ أنه لو بذر تلك الحبة في أزكىٰ أرض، وكان له من التعاهد والحفظ والري أوفىٰ ما يقتضيه حالها، ثم إنها استحصدت نظر في حاصلها ثم قدر أن ذلك بذر في أزكىٰ أرض، وكان التعاهد له علىٰ تلك الحال التي تقدم ذكرها ثم هكذا في السنة الثالثة، ثم يستمر له ذلك إلىٰ يوم القيامة، فتأتي الحبة من البر أو الخردل وهي أمثال الجبال الرواسي».

علىٰ كل حال هذا التقريب لحقائق المقادير خصوصًا الأخروية يبلغ حقيقته أو

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠١).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٩).

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ٧٩).

يقاربه مَنْ منحه الله فهمًا لمعاني القرآن ومَنْ قوي إيمانه، وأحسب أن شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أولئك، ولعلي أضرب مثلًا من كلامه يدل علىٰ ذلك، فإنه في تفسير خواتيم سورة البقرة، تحدث في معاني الآيات الحاثة علىٰ الصدقة، وذكر ثوابها الأخروي، ثم عرّج بذكر الفوائد الحسية حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أما بالنسبة للزيادة الحسية في الدنيا فمن عدة أوجه:

الوجه الأول: أن الله قد يفتح للإنسان باب رزق لم يخطر له علىٰ بال، فيزداد ماله.

الوجه الثاني: أن هذا المال ربما يقيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آفات لولا الصدقة لوقعت فيه، وهذا مشاهد، فالإنفاق يقي المال الآفات.

الوجه الثالث: البركة في الإنفاق بحيث ينفق القليل، وتكون ثمرته أكثر من الكثير، وإذا نُزعت البركة من الإنفاق فقد ينفق الإنسان شيئًا كثيرًا في أمور لا تنفعه، أو تضره، وهذا شيء مشاهد.

ومنها: أن هذه المغفرة التي يعدنا الله بها مغفرة عظيمة، لقوله تعالىٰ ﴿مِّنۡهُ﴾؛ لأن عظم العطاء من عظم المعطي، ولهذا جاء في الحديث الذي وصّىٰ به النبي ﷺ أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «**فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني**».

ومنها: أنه ينبغي للمنفق أن يتفاءل بما وعد الله، لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ﴾، فإذا أنفق الإنسان وهو يحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ أن الله يغفر له الذنوب، ويزيده من فضله كان هذا من خير ما تنطوي عليه السريرة».

مثال (٣): قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[النجم: ٣١]، قال

---

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠).

شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد الآية[1]: «الرضا بشرعه، وقبول شرعه والقيام به؛ لأنَّه ملكه، إذا قال لك: افعل، فافعل، وإذا قال: لا تفعل، فلا تفعل.

أرأيت لو كان لك عبد رقيق فأمرته، ولكنه لم يفعل، أو نهيته ففعل، فالسِّيادة ناقصة، إذن أنت إذا عصيت ربك: إما بفعل محرَّم أو بترك واجب، فإنَّك خرجت عن مقتضىٰ العبوديَّة التَّامَّة؛ لأنَّ مقتضىٰ العبوديَّة التَّامَّة أن تخضع لشرعه، كما أنَّك خاضع - كرهًا أو طائعًا - لقضائه وقدره، فانتبه! ليس معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾، أن يخبرنا أنَّه مالك فقط، لكن لأجل أن نعتقد مقتضىٰ هذا الملك، وهو الرضا بقضائه ، والرضا بشرعه، هذه حقيقة الملك».



(١) تفسير سورة النجم (ص٢٢٩).



١٣٤ - استنبط المعاني والأحكام والفوائد من مكان قريب

الآية معانيها ودلالاتها لما أنزلها الله تكون واضحة وبيِّنة، وأحكامها ظاهرة دلَّ عليها لفظ الآية نصًّا ومنطوقًا ومطابقة؛ فظهرت هذه المعاني للبصير، وتحذلق في بيانها المتكلِّف، فأخرج المعاني من دلالة الالتزام؛ فعند وقوفك علىٰ أقوال المفسِّرين ميِّز بينها، وخذ معاني الآية وأحكامها ممَّن أرشدك إليها من مكان قريب، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وإذا دعاك اللَّفظ إلىٰ المعنىٰ من مكان قريب، فلا تُجِبْ من دعاك إليه من مكان بعيد».

وأخذ المعاني من مكان قريب من دلالة آيات القرآن؛ هو من تدبُّر القرآن، فأعطِ ألفاظ القرآن حقَّها من التدبُّر، ولا تفرِّط في ملاحظة ظهور الأدلَّة علىٰ معانيها من مكان قريب، ومع ذلك استخرج كنوز الفوائد بأنواع الاستنباطات الذكيَّة؛ فكن كالطَّائفة الطيِّبة من الأرض التي زكت، فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فهذه الطَّبقة كان لها قوَّة الحفظ والفهم والفقه في الدِّين والبصر والتأويل؛ ففجَّرت من النُّصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورُزقت فيها فهمًا خاصًّا».

(١) التِّبيان في أيمان القرآن (ص٣٢٠).

(٢) نقض المنطق (ص٧٩).

والقرآن صفته تقرير الحقِّ والدَّلالة إليه بأقرب وأيسر طريق، وأوجز عبارة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] .

وهكذا كان منهج الصَّحابة في العلم والفهم والاستدلال والتعليم، فهم كما نعتهم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أبرّ الأمَّة قلوبًا، وأعمقهم علمًا، وأقلّهم تكلُّفًا».

فأخذُ معاني القرآن من مكان بعيد؛ من التكلُّف، وقد يكون سببه الذهول أو نقص العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فالنَّاظر في الدَّليل بمنزلة المترائي للهلال؛ قد يراه، وقد لا يراه لعشًىٰ في بصره، وكذلك أعمىٰ القلب».

وضلال النَّاس عن معاني القرآن من جهتهم، وإلَّا فالقرآن كما نعته الله: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وضلال المبتدعة والكفَّار عن صحيح الاعتقاد الظَّاهر في القرآن وعلومه النَّافعة؛ سببه سوء قصدهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وتلقِّي معانيه من غير من نزل عليهم من الصَّحابة ومن أخذ عنهم من التَّابعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «كلُّ من استقرأ أحوال العالَم وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلًا، وأنَّهم ينالون في المدَّة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرونٍ وأجيالٍ، وكذلك أهل السُّنَّة والحديث تجدهم كذلك متمتِّعين؛ وذلك لأنَّ اعتقاد الحقِّ الثَّابت يقوِّي الإدراك ويصحِّحه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا

(١) نقض المنطق (ص٣٤).

(٢) نقض المنطق (ص٨).

عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] ».

والمقصود هو استنباط معاني الآية من أقرب الدَّلالات، وهذا مقتضىٰ كون القرآن بيانًا وهدًىٰ، وهذا نافع أيضًا في التَّرجيح؛ فإنَّ دلالة المنطوق والمطابقة مُقدَّمة علىٰ دلالة المفهوم والالتزام، ولا نقصد بكلامنا هذا التَّفريط في أنواع الاستنباطات كلها من المنطوق والمفهوم، والمطابقة والتضمُّن والالتزام، بل إنَّ استخراج كل معاني الآية من مجموع دلالتها عون علىٰ فهم معانيها كاملة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «...، وأعطيت الآية حقَّها من دلالة اللَّفظ، وإيمائه، وإشارته، وتنبيهه، وقياس الشيء علىٰ نظيره، واعتباره بمُشَاكِلِه، وتأمَّلْتَ المشابهة التي عقدها الله - سبحانه - وربطها بين الظَّاهر والباطن؛ فَهِمْتَ هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التَّوفيق».

والإنسان قد يذهل أحيانًا عن أقرب الطُّرق في الاستدلال للمعاني الصَّحيحة، وهذا يقع لكبار العلماء فضلًا عن صغار طلبة العلم؛ فهذا شأن، وطريقة الفلاسفة والمتكلِّمين شأن آخر، فتوعير الطَّريق في تقرير الحق صفة ملازمة لمنهجهم وعلومهم؛ وذلك لأنَّهم أجهل النَّاس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «دلالات النُّصوص قد تكون خفيَّةً، فخصَّ الله بفهمهنَّ بعضَ النَّاس، كما قال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إلَّا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه. وقد يكون النَّصُّ بيِّنًا ويذهل المجتهد عنه، كتيمُّم الجنب؛ فإنَّه بيِّن في القرآن في آيتين».

---

(١) التِّبيان في أيمان القرآن (ص٣٤٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٩٨).

وإنَّما ذكرنا هذا التَّنبيه ليسلكه طالب العلم والمفسِّر في استنباط الأحكام، وذكر معاني الآيات؛ فيسير علىٰ نهج القرآن في الوصول إلىٰ الحقِّ بأقرب طريق وأيسر لفظ وأوجز عبارة وأجزل بلاغة، بعيدًا عن مشابهة أهل المنطق الكاسد في توعير الطَّريق في هداية النَّاس إلىٰ المعارف، هذا إن اهتدوا إليها، وكيف وقد ضلُّوا وما كانوا مهتدين!!

فالفلاسفة من أبخس النَّاس عقولًا، وأقلِّهم فهومًا، ومنطقهم لا ينتفع به الذَّكيُّ ولا يحتاجه البليد، بل هو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نفس الحذَّاق منهم لا يلتزمون قوانينه في كلِّ علومهم، بل يعرضون عنها؛ إمَّا لطولها، وإمَّا لعدم فائدتها، وإمَّا لفسادها، وإمَّا لعدم تميُّزها وما فيها من الإجمال والاشتباه؛ فإنَّ فيه مواضع كثيرةً هي لحم جملٍ غَثٍّ علىٰ رأس جبلٍ وعرٍ، لا سهلٍ فيرتقىٰ، ولا سمين فينتقل».



(١) نقض المنطق (ص١٥٥).



١٣٥ - التَّنبيه على ما في المعاني من التَّلازم

التَّنبيه علىٰ ما في المعاني من التَّلازم هي طريقة القرآن، قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، قال العلَّامة أبو المظفَّر السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: نوح أوَّل رسول أرسل الله تعالىٰ، وهذا محمول علىٰ أنَّه أوَّل رسول أرسله الله تعالىٰ بعد آدم - صلوات الله عليه - وهو صاحب شريعة، وإنَّما ذكر المرسلين؛ لأنَّ من كذَّب رسولًا فقد كذَّب جميع الرُّسل».

والعلماء في تفسيرهم وشروحاتهم سلكوا هذا المنهج في التَّنبيه علىٰ المعاني المتلازمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «في القرآن في مواضع: يبيِّن فيها أنَّ الرُّسل كلَّهم أمروا بالتَّوحيد، بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة شيءٍ من المخلوقات سواه أو اتِّخاذه إلهًا؛ ويخبر أنَّ أهل السَّعادة هم أهل التَّوحيد، وأنَّ المشركين هم أهل الشَّقاوة. وذكر هذا عن عامَّة الرُّسل، ويبيِّن أنَّ الَّذين لم يؤمنوا بالرُّسل مشركون.

فعُلم أنَّ التَّوحيد والإيمان بالرُّسل متلازمان، وكذلك الإيمان باليوم الآخر هو والإيمان بالرُّسل متلازمان؛ فالثَّلاثة متلازمة، ولهذا يجمع بينها في مثل قوله:

---

(١) تفسير القرآن (٤/ ٥٧).

(٢) نقض المنطق (ص١٧٣، ١٧٤).

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. ولهذا أخبر أنَّ الَّذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥]. وأخبر عن جميع الأشقياء أنَّ الرُّسل أنذرتهم باليوم الآخر، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨، ٩]؛ فأخبر أنَّ الرُّسل أنذرتهم وأنَّهم كذَّبوا بالرِّسالة. وقال تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] الآية. فأخبر عن أهل النَّار: أنَّهم قد جاءتهم الرِّسالة وأُنذروا باليوم الآخر».

مثال (٣): قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، قال العلامة عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قُرئ بفتح اللام، علىٰ معنىٰ أن الله تعالىٰ اختاره واستخلصه، واصطفاه علىٰ العالمين. وقرئ بكسرها، علىٰ معنىٰ أنه مخلص لله تعالىٰ، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته؛ فوصفُه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان؛ فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصُه موجبٌ لاستخلاصه، وأجلُّ حالة يُوصف بها العبد الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه».



(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٥٢٠).



١٣٦- احرص على التفاسير النقية

طالب العلم إذا وُفق للتلقي عن شيخ صاحب سنة فهذا من أسباب توفيق الله له، فيتعلم العلم النافع ويصونه الله عن الأهواء والبدع والضلالات.

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فأرجه، وإذا رأيته مع أصحاب البدع فايئس منه، فإن الشاب علىٰ أول نشوئه».

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلَّم، فهو من الأصل المعلِّم».

فاحرص علىٰ التفاسير النافعة النقية من البدع، التي تذكر تفسير الصحابة والتابعين وأئمة الشأن، التي تحرّر وتحقق الأقوال في التفسير، ولا تخرج عن عقيدة السلف، ولا تملأ صحفها من الإسرائيليات والأقوال الضعيفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **حاضًا علىٰ قراءة التفاسير المحررة:** «فليراجع كتب (التفسير)، التي يُحرر فيها النقل، مثل تفسير محمد بن جرير الطبري، الذي ينقل فيه كلام السلف بالإسناد، وليُعرض عن تفسير مقاتل، والكلبي، وقبله تفسير بقي ابن مخلد الأندلسي، وعبدالرحمن بن إبراهيم دحيم الشامي، وعبد ابن حميد الكشي وغيرهم، إن لم يصعد إلىٰ تفسير الإمام إسحاق ابن راهويه، وتفسير الإمام أحمد بن حنبل، وغيرهما من الأئمة، الذين هم أعلم أهل الأرض بالتفاسير

الصحيحة عن النبي ﷺ، وآثار الصحابة والتابعين كما هم أعلم الناس بحديث النبي ﷺ، وآثار الصحابة والتابعين في الأصول والفروع، وغير ذلك من العلوم».

ومن التفاسير النقية المحررة تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال عنه الجلال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «له التفسير الذي لم يؤلف علىٰ نمطه مثله».

وقال العلامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها وأدقها، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري. ولسنا نوازن بينهما وبين أي تفسير آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلهما ولا ما يقاربهما».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسير البغوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعة، والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك».

ومن تفاسير المعاصرين النقية النافعة المحرّرة: أضواء البيان للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وتيسير الكريم الرحمن للعلامة عبد الرحمن السعدي، وتفسير شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



(١) بلغ إلىٰ سورة المجادلة، وأتمه تلميذه الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وله بعض التقريرات الغير صحيحة كمسألة شد الرحال إلىٰ القبور..



١٣٧- احذر التفاسير المبتدعة

فإن المسلم إذا كان مصدر تلقيه معاني كلام الله باطلًا، أو حق مشوب بباطل أورثه ذلك اعتقاد البدع وانتحال الضلالة، ومفارقة الجماعة في العقيدة.

فلذلك أول ما يجب علىٰ طالب العلم أن يحترز من التفاسير المبتدعة، وهذه نصيحة علماء المسلمين في التحذير من تفاسير المبتدعة حتىٰ تصان عقائد الناس عن الزيغ والضلال.

قال الحافظ ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ محذرًا من تفسير الماوردي: «وتفسيره عظيم الضرر؛ لكونه مشحونًا بكثير من تأويلات أهل الباطل، وتلبيسًا علىٰ وجه لا يفطن لتمييزها غير أهل العلم والتحقيق، مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب إلىٰ المعتزلة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ محذرًا من تفسير «الكشاف» للزمخشري: «فتفسيره محشو بالبدعة، وعلىٰ طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة».

وقال البلقيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن كشاف الزمخشري: «استخرجت من الكشاف اعتزالًا بالمناقيش منه قوله تعالىٰ في تفسير: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأي فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلىٰ عدم الرؤية».

وقال بدر الدين الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **محذرًا من تفاسير الصوفية:** «فأما كلام الصوفية في تفسير القرآن، فقيل ليس تفسيرًا، وإنما هي معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، إن المراد النفس، فأمرنا بقتال من يلينا لأنها أقرب شيء إلينا وأقرب شيء إلىٰ الإنسان نفسه».

ومن التفاسير المبتدعة «مفاتح الغيب» للرازي، ففيه كل شيء إلا التفسير، وأسوأ ما فيه إيراده شبه المبتدعة والمتكلمين علىٰ غاية ما يكون من القوة، وضعفه عن جوابها، كما ذكر الطوفي.

ومن التفاسير المبتدعة «في ظلال القرآن» لسيد قطب، جنح كثيرًا في أحكامه علىٰ المجتمعات الإسلامية ووصفها بالجاهلية، وجعلها كلها في رتبة واحدة سواء. له طعون في الصحابة وتقريرات اعتزالية وأشعرية في الأسماء والصفات، ورد لأحاديث مخرجة في الصحيحين، ولم يكن يحسن التفريق بين توحيد الربوبية والألوهية، لذلك قال عنه العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه مسكين ضايع في التفسير»[١].

وقال والدنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تفسير سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه طوام»[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) براءة علماء الأمة من تزكية أهل البدعة ص ٢٨.

(٢) براءة علماء الأمة من تزكية أهل البدعة ص ٤٣.



١٣٨- لا باطنية في القرآن

ليس في القرآن باطن، وأما الاستنباطات التي يدل عليها مفهوم الآيات القرآنية فهذا فحوىٰ الخطاب، والناس يتفاضلون في فهم دقيق العلم، ومن خفي عليه العلم فهو ظاهر في حق العلماء، ولا نسميه باطنًا في حق الجاهل، بل نسميه: «بيان»، كما سمىٰ ووصف الله القرآن بذلك، وهؤلاء الجهال لو صرفوا عنايتهم لتدبر معاني القرآن لسهل عليهم لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في هذه الاستنباطات:** «يكون هذا من الباطن الصحيح الموافق للظاهر الصحيح».

وتكلم الشاطبي في شروط هذه الاستنباطات: «أن يصح علىٰ مقتضىٰ الظاهر المقرر في لسان العرب، ويجري علىٰ المقاصد العربية، والثاني: أن يكون له شاهد نصًا أو ظاهرًا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض».

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبهذين الشرطين يتبين صحة ما تقدم إنه الباطن، لأنهما موفران فيه، بخلاف ما فسر به الباطنية، فإنه ليس من علم الباطن، كما أنه ليس من علم الظاهر».

وتكلم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شروط الاستنباط، فقال:

١- أن لا يناقض معنىٰ الآية.

٢- أن يكون المعنىٰ صحيحًا في نفسه.

٣- أن يكون في اللفظ إشعار به.

٤- أن يكون بينه وبين معنىٰ الآية ارتباط وتلازم.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنا.

ويتفاوت العلماء تفاوتًا كبيرًا في تلمح فحوىٰ الآيات ودلالتها، التي اصطلح عليها البعض بالتفسير الإشاري، فمن ذلك ما استنبطه الصحابة والعلماء من الإشارات بقرب وفاة النبي ﷺ، وقد أدرك ذلك جمع من العلماء، وكانوا قد رأوا في آيات وحوادث كثيرة إشارات بقرب وفاته.

وتفاوت القوم في قرب وفاته بحسب إشارات الآيات، وما ذاك إلا لأن القرب نسبي، كالشأن في قرب قيام الساعة بعد بعثة النبي ﷺ، حيث قال ﷺ: «**بُعثت بين يدي الساعة كهاتين**».

ومما قيل من الإشارات في قرب وفاة النبي ﷺ ما وقع له من إصابة في غزوة أُحُد، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا بعض الحكم من غزوة أُحُد[1]: «إن وقعة أُحُد كانت مُقدِّمةً وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبتهم، ووبخَّهم علىٰ انقلابهم علىٰ أعقابهم أن مات رسول الله ﷺ، أو قُتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا علىٰ دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد ﷺ، وهو حي لا يموت، فلو مات محمد أو قُتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بُعث محمد ﷺ ليخلَّد لا هوَ ولا هُم، بل ليموتوا علىٰ الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ

(١) زاد المعاد ص ٤٥٨، ط - دار الكتاب العربي.

أو بقي، ولهذا وبَّخهم علىٰ رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان: أن محمدًا قد قُتل، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتىٰ ماتوا أو قُتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ علىٰ عقبيه، وثبت الشاكرون علىٰ دينهم، فنصرهم الله، وأعزهم، وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم».

وذكر السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٩١١هـ) عن بعض العلماء أنه استنبط عُمْر النبي ﷺ ثلاثًا وستين من قوله تعالىٰ في سورة المنافقين: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]، فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقّبها بالتغابن، ليظهر التغابن في فقده»[(١)].

ولا يخفىٰ ما في هذا الاستدلال من التكلف، ناهيك أن سورة التغابن مكية في قول بعض العلماء، فكيف يُقال لما نزل قبل الهجرة إنه نزل بعد الهجرة؟!!

قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وهي مدنية في قول الأكثرين، وقال الضحاك: مكية، وقال الكلبي: مكية ومدنية، ومعناه: أن بعضها مكية، وبعضها مدنية».

ورجح العلامة القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن سورة التغابن مكية لمحتواها، حيث قال[(٣)]: «سورة التغابن مكية علىٰ ما يظهر من أمثالها لمن سبر».

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٣.

(٢) تفسير القرآن (٥/ ٤٤٨).

(٣) محاسن التأويل (١٦/ ٥٨١٧).

والسيوطي نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غير الإكليل ذكر ما يدل أن سورة التغابن مكية أو أكثرها مكي، حيث قال[١]: «أخرج الترمذي والحاكم وصححاه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، في قوم من أهل مكة أسلموا فأبىٰ أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا المدينة، فلما قدموا علىٰ رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فهمّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ﴾ [التغابن: ١٤] الآية.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال**: نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾، نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ووقفوا، فقالوا: إلىٰ من تدعنا؟ فيرق ويقيم، فنزلت هذه الآية، وبقية الآيات إلىٰ آخر السورة بالمدينة».

والإشارة الصحيحة في الإعلام بقرب وفاة النبي ﷺ ما استنبطه حبر الأمة وترجمان القرآن، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدْخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنه ممن علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ [النصر: ١]، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول ص ٣٣٠.

أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣]، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: لا أعلم منها إلا ما تقول[١].

وبنحو هذا أشار النبي ﷺ إلىٰ قرب وفاة أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ حيث قال: بينما أنا علىٰ بئر أنزع منها جاءني أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، فأخذ أبو بكر الدَّلو فنزع ذنوبًا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف، والله يغفر له[٢].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ[٣]: «قال النووي: هذا دعاء من المتكلم، أي أنه لا مفهوم له، وقال غيره: فيه إشارة إلىٰ قرب وفاة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وهو نظير قوله تعالىٰ لنبيه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فإنها إشارة إلىٰ قرب وفاة النبي ﷺ».

ومن بديع ما فطن له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ من فهم القرآن تأسيسه لتاريخ المسلمين وفق هجرة النبي ﷺ من إشارة القرآن، حيث قال تعالىٰ: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي رَحِمَهُٱللَّهُ (ت: ٥٨١)[٤]: «وفي قوله سبحانه: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾، وقد علم أنه ليس أول الأيام كلها، ولا أضافه إلىٰ شيء في اللفظ الظاهر فيه من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ (ص ٨٩١ -رقم ٤٩٧٠).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٩).

(٤) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٦).

مع عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة، لأنه الوقت الذي عز فيه الإسلام، والذي أمر فيه النبي ﷺ وأسس المساجد وعُبد الله آمنًا كما يجب، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله سبحانه ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن، فإن كان أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا هذا من الآية، فهو الظن بأفهامهم، فهم أعلم الناس بكتاب الله وتأويله، وأفهمهم بما في القرآن من إشارات وإفصاح، وإن كان ذلك منهم عن رأي واجتهاد، فقد علم ذلك منهم قبل أن يكونوا، وأشار إلىٰ صحته قبل أن يفعل، إذ لا يعقل قول القائل فعلته أول يوم إلا بإضافة إلىٰ عام أو شهر معلوم، أو تاريخ معلوم، وليس ها هنا إضافة في المعنىٰ إلا إلىٰ هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة علىٰ غيره من قرينة لفظ أو قرينة حال، فتدبّره ففيه معتبر لمن اذكر وعلم لمن رأىٰ بعين فؤاده واستبصر».





١٣٩ - طرق معرفة الأقوال الضعيفة للمفسرين

كُتب التفسير مليئة بالتفسيرات الضعيفة والتأويلات الباطلة، فمنها ما يُعلم خطأه من جهة النقل لعدم ثبوت تفسيره عن النبي ﷺ من أحاديث موضوعة وضعيفة، وآثار مكذوبة وواهية، فالعلم بطرق تمييز المرويات عون علىٰ التحقق من حقيقة ما جمعته كتب التفسير.

ومن طرق العلم بالأقوال الضعيفة معرفة مصادرها، فمنها إسرائيليات، ومنها منقولات عن أساطين المبتدعة أو عمن أخذ عنهم.

ومن طرق العلم بالأقوال الضعيفة منافرة تلك الأقوال للمعهود من معاني القرآن.

ومن أعظم الأدلة علىٰ معرفة الضعيف من أقوال المفسرين هو مخالفة أقوالهم لظاهر القرآن، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الواجب علىٰ المؤمن أن يتبع ظاهر القرآن، لأن هذا هو الطريق في كل شيء، كما في أسماء الله وصفاته نتبع ظاهر القرآن، وكما في الأحكام الشرعية نتبع ظاهر القرآن.

إذا في الأمور الكونية نتبع ظاهر القرآن، لأن ظاهر القرآن صدر من الخالق العليم، فهو أعلم من خلقه بخلقه، قال الله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١]، فإذا كان هذا صادرًا من رب العالمين،

(١) تفسير سورة «صٓ» ص ١٥٨.

يجب علينا أن نصدِّقه».

ومن أعظم الأدلة علىٰ معرفة الضعيف من أقوال المفسرين معرفة مداخلها، فالأقوال الضعيفة لم يأت أهلها الأمر من بابه، فلم يفسروا القرآن بالقرآن، ولا فسروه بالسُّنَّة، ولا بأقوال الصحابة، بل اتبعوا أهوائهم، فمنهم من فسّره بمعقول غير صريح، ومنهم من فسّره برأي كاسد، وذوق فاسد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والمقصود هنا التنبيه علىٰ مثار الاختلاف في التفسير، وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلىٰ أن حرّفوا الكلم عن مواضعه، وفسّروا كلام الله ورسوله بغير ما أريد به وتأوّلوه علىٰ غير تأويله، فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق، وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة علىٰ بيان الحق».

ويقول ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٣١٠هـ) مبينًا طرق معرفة الصواب من أقوال المفسرين**[2]: «فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن الذي إلىٰ علم تأويله للعباد السبيل، أوضحهم حُجَّة فيما تأوّل وفسَّر، مما كان تأويله إلىٰ رسول الله ﷺ دون سائر أمته، من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه، إما من جهة النقل المستفيض فيما وُجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض، وإما من جهة نقل العدول الأثبات، فيما لم يكن عنه فيه النقل المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.

(٢) جامع البيان (١/ ٨٨ – ٨٩).

علىٰ صحته، وأوضحهم برهانًا فيما ترجم وبيَّن من ذلك مما كان مُدْركًا علمه من جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائنًا من كان ذلك المتأول والمُفسِّر، بعد ألا يكون خارجًا تأويله وتفسيره ما تأوَّل وفسَّر من ذلك عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة».

وطريقة المحققين كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاستدلال بكل ما يمكن من المرجحات علىٰ الأقوال الضعيفة، من:

١- دلالة اللفظ.

٢- دلالة السياق.

٣- عدم اشتهاره عن السلف.

٤- سبب النزول.

٥- أدلة أخرىٰ ذات صلة بالموضوع.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وظن بعض الناس أن الذين أخبر عنهم في الآية بالنجاة والسعادة ليسوا إلا ممن بُعث محمد ﷺ إليهم، لم يخبر فيها بحال من كان موجودًا قبل مبعثه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ منتقدًا هذا القول ومبينًا مرجحات ضعفه[1]: «غلطوا فيها في الفهم، ثم افترقوا علىٰ أقوال متناقضة تخالف لفظ الآية ومعناها.

والصواب هو القول الآخر، وأن الآية عامة تتناول من اتصف بما ذكر فيها

---

(١) تفسير آيات أُشكلت (١/ ٢٤٢ - ٢٤٥).

قبل مبعث الرسول ﷺ، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية، ويعرف به معناها من غير تناقض، ويعرف به قدرها، ويظهر به مناسبتها لما قبلها وما بعدها، وهذا هو القول المعروف عن السلف وجمهورهم، وعليه يدل ما ذكروه من سبب نزول الآية.

فقد روىٰ ابن أبي حاتم وغيره بالأسانيد الثابتة عن سفيان ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قال سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكر من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، ولم يذكر في هذا أن النبي ﷺ قال فيهم أولًا: «**إنهم من أهل النار**»، كما رُوي ذلك بأسانيد ضعيفة. وهذا هو الصحيح.

كما رُوي في صحيح مسلم عن عياض بن حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**». فدلَّ علىٰ أنه حين بعثه الله كان في الأرض بقايا من أهل الكتاب لم يمقتهم الله. وأيضًا: فالنبي ﷺ لم يكن ليجيب بما لا علم عنده، وما كان علم بأن هؤلاء من أهل النار، فكيف يجيب بذلك أولًا؟!».

وأهل الكتاب الممدوحون في الآية هم الموحدون، ليسوا أهل التثليث، ولا ممن كفر بمحمد أو أحد من النبيين عليهم السلام، ولا ممن تدين بالمبدّل والمحرّف من التوراة والإنجيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأما اليهودية والنصرانية المتضمنة للمنسوخ المبدّل وهي التي عليها اليهود والنصارىٰ الذين كذبوا محمدًا ﷺ فهذه ليست دين أحد من الأنبياء، لا موسىٰ ولا عيسىٰ ولا غيرهما. فإذا قال أهل الكتاب

(١) تفسير آيات أشكلت (١/ ٢٨١ - ٢٨٥).

للمسلمين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، فقد أمرهم الله أن يقولوا: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، فلا يجوز لنا اتباع ما اختص به أهل التوراة والإنجيل من الشرع المنسوخ، فكيف بالمبدل؟ بل نتبع ملة إبراهيم - وهي عبادة الله وحده بما أمر به - وهي التي كان عليها موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، لكن كان لهم شرع اختصوا به دون إبراهيم، وكان من الدين في حق أولئك الذين أمروا به خاصة، وإبراهيم ومن كان قبله لم يؤمروا به، وكذلك محمد ﷺ ومن آمن به لم يؤمروا بتلك الآثار والأغلال، بل رُفعت عنهم كما كانت مرفوعة عن إبراهيم، ولهذا قال ﷺ: «**بُعثت بالحنيفية السمحة**»، وقال: «**لا رهبانية في الإسلام**»، وقال: «**إيّاكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»، ولما رأىٰ بيد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورقة من التوراة قال: «**والذي نفسي بيده لو كان موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًّا، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم**».

ورُوي عنه أيضًا: «لو كان موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام حيين ما وسعهما إلا اتباعي». فقد تبيَّن أن اليهود والنصارىٰ فيهم سعيد؛ وهم المتبعون شرع التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل، وفيهم من هو مستحق للعذاب، ومع هذا نحن منهيون أن نتبع اليهودية والنصرانية مطلقًا. فإن ما اختص به السعداء منهم قد نُسخ، وأما ما اختص به الأشقياء فهو مبدّل أو منسوخ تمسكوا به بعد النسخ، وما كان مشروعًا كان داخلًا في مسمىٰ الإسلام والحنيفية لما كان مشروعًا، فلما نُسخ لم يبق داخلًا في الإسلام ولا في الحنيفية ملة إبراهيم، والمُبَدَّل بطريق الأولىٰ».

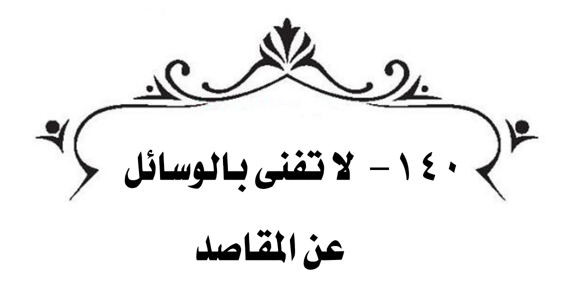
مثال آخر: قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٣]، فقد قال الثعلبي: كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم، وهذا قول ضعيف، قال

الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ليس بمستقيم؛ لأن المؤمنين والكفار مشتركون في اليأس من رجوع أصحاب القبور إليهم، فيكون الاقتصار علىٰ ذكر الكفار عديم التأثير».





(١) رموز الكنوز (٨/ ١٠٦).



١٤٠- لا تفنى بالوسائل عن المقاصد

المقصود من تعلم قواعد التفسير إدراك المعاني الصحيحة لكتاب الله، والوقوف على كل ما يمكن من دلالة الآيات التي تورث الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح، وليس مقصودنا إدراك وسائل الفهم من معرفة إعراب الآية، وبلاغتها، وأحكامها، لدرجة يفنى بها الواحد عن مقصود التدبّر وثمرته والتديّن به.

قال العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله[1] : «وأما المبالغة في الوصول إلى المخارج ومعرفة أنغام الأداء وجمع القراءة، فهذا إن لم يقترن به كمال الانقياد، وحسن التأمّل، وخاتمة العمل، وإلا كان الخوض في غير الغرض المقصود».

وقال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله[2]: «ولم يبق لأحد من شعوب أمتنا حظ من القرآن إلا تغنى بعضهم بتلاوته من غير فهم ولا تدبّر لما أودع من العِظات والعِبر في مطاويها، فهم يتشدقون بأن ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، منصوبان على الحال، ولا يرشدون أنفسهم ولا

---

(١) مزالق الأصوليين ص ١٠١.

(٢) تفسير المنار (١٠/٤٦١).

غيرهم إلى ما أوجباه على ذي الحال».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[١] : «إن القلوب إذا أيقنت بعظمة ما سمعت، واستشعرت شرف نسبة هذا القول إلى قائله، أذعنت وخضعت، فذا تدبّرت ما احتوى عليه من المراد ووعت، اندكت من مهابة الله وإجلاله، وخشعت.

فإذا هطل عليها وابل الإيمان من سُحب القرآن، أخذت ما وسعت، فإذا بذر فيها القرآن من حقائق العرفان، وسقاه ماء الإيمان، أنبتت ما زرعت، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠]».

(١) نزهة الأسماع في مسألة السماع ص ٨٢ – ٨٣.



الخاتمة

تلك هي بعض الأسباب الممهدات لطلب علم التفسير، ومعرفة أصول التفسير، والمقدمات في علوم القرآن تكون سببًا لقراءة كتب التفسير قراءة صحيحة.

وعلم التفسير من صلب العلم، فلا ينبغي لطالب العلم أن ينشغل بمُلّح وفضول العلم عن صلبه، ففهم القرآن من أسباب التحقق بأنواع العلوم خصوصًا العقيدة والفقه.

وإذا يسّر الله لطالب العلم شيخًا يأخذ عنه تفسير القرآن بالمشافهة، وكان شيخه صاحب سنة حاذقًا ذكيًا حسن الفهم والتدبر لمعاني القرآن، فإن ذلك من أسباب اختصار الطريق لطالب العلم في فهم القرآن فهمًا صحيحًا بعيدًا عن انتحال المبتدعات والضلالات.

فبادر طالب العلم إلىٰ فهم معاني خطاب ربك لك، فهو نور قلبك، ونبراس حياتك، ومنهاج دربك، وسبيل سعادتك، لا تتوانىٰ ولا تتأخر.

والله الموفق



دليل الموضوعات